فلاديمير نابوكوف

بُنين

ترجمة

محمد جليد

منشورات الجمل

رواية

فلاديمير نابوكوف

بُنين

ترجمة

محمد جليد

منشورات الجمل

فلاديمير نابوكوف: بنين

ولد «فلاديمير نابوكوف» في «سانت بطرسبرغ»، في ٢٣ أبريل ١٨٩٩. فرّت عائلته إلى شبه جزيرة القرم عند نشوب الثورة البلشفيّة، ثم لجأت للمنفى في البدان الأوروبيّة. درس «نابوكوف» في كلية «Trinity»، جامعة «كامبريدج»، وحصل على ديبلوم جامعيّ في الأدب الفرنسيّ والروسيّ عام ١٩٢٢، ثم عاش في برلين وباريس خلال العقدين اللاحقين، اللذين كانا مرحلة للكتابة المكثّفة، وخاصة باللغة الروسيّة، تحت اسم مستعار «سيرين». انتقل عام ١٩٤٠ إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة، حيث تابع مهنته الادبيّة الرائعة (كشاعر، روائيّ، كاتب مذكّرات، ناقد ومترجم) وذلك أثناء تدريسه للأدب الروسيّ والتأليف الإبداعيّ، في جامعات «ستانفورد»، «ويلزلي»، «كورنيل» و«هارفرد». النجاح البارز الذي أحرزته روايته «لوليتا» (١٩٥٥) مكّنته من التخلّي عن مهنة التدريس وتكريس نفسه للكتابة. انتقل عام ١٩٦١ إلى «مونترو ـ سويسرا»، حيث توفيّ هناك عام ١٩٧٧. اعتُرف به على أنه عميد الأساليب النثرية الرفيعة في القرن العشرين، وباللغتيْن، الروسيّة والإنكليزيّة، وقد قام بنفسه بترجمة عدد من أعماله المكتوبة بالإنكليزيّة ـ لوليتا ضمناً ـ إلى الإنكليزيّة، كما ساهم في ترجمة أعماله الروسيّة، إلى الإنكليزيّة.

فلاديمير نابوكوف: بْنين، ترجمة: محمد جليد

الطبعة الأولى ٢٠١٨

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٨

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Vladimir Nabokov: Pnin

© 1953, 1955, 1957, Vladimir Nabokov

All rights reserved

© *Al-Kamel Verlag 2018*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مقدمة المترجم

يقول "فلاديمير نابوكوف"، في حوار أدلى به لمجلة "بلايبوي"، ملخصاً مسار حياته المتشعب: «أنا كاتب أمريكي، ولدت في روسيا، وتكوّنت في إنجلترا، هناك درست الأدب قبل أن أمضي خمس عشرة سنة في ألمانيا. جئت إلى أمريكا في سنة ١٩٤٠، وقررت أن أصبح مواطناً أمريكياً، وأن أجعل من هذا البلد بيتي».

ونحن نقرأ روايته الموسومة باسم بطلها "بْنين"، التي صدرت في طبعتها الأولى سنة ١٩٥٧، نكاد نجزم أن مسار "بْنين" البطل هو مسار "نابوكوف" الكاتب. فهل كان "نابوكوف" يكتب نفسه في هذه الرواية؟ نعم ولا. نعم، لأنه وصف تعرجات حياة أستاذ جامعي ولاجئ روسي، منذ فراره من جحيم النظام الذي أطاح بروسيا القيصرية، وصولا إلى ألمانيا وفرنسا حيث قضى فترة من حياته، قبل أن ينتهي به المطاف مواطنا مقيما بالديار الأمريكية. وهو مسار يتقاطع، إلى حد كبير، مع حياة "نابوكوف". ولا، لأنه جعل من مساره ـ إن صح هذا الافتراض ـ نقطة انطلاق فقط لصناعة فنية وجمالية تروم أن تبتكر شخصية جديدة في نمط الكتابة الروائية التي كانت سائدة إلى حدود الستينيات، شخصية مركبة ذات نزوعات معقدة وميولات طائشة حد الجنون أحياناً، ومتعقلة بشكل صارم أحياناً أخرى، شخصية تعارك الحياة الأمريكية واللغة الإنجليزية وتواجه طوارئ العالم الجديد، سعيا إلى التآلف مع حياة المنفى وتأثيراتها العبثية.

فالخيال إذا هو مكمن الاختلاف بين الشخصية الواقعية والشخصية الروائية. فالكاتب يقود شخصيته الرئيسة عبر دروب لم تكن مألوفة في الفن الروائي آنئذ، لكنه كان يعرفها حق المعرفة، لأن هذه المغامرة مثلت مشروعاً جمالياً خاصاً. إذ يقول في حوار نشر سنة ١٩٥٥: «عندما شرعت في كتابة "بُنين"، كنت أراهن على مشروع فني خاص، قوامه أن أخلق شخصية هزلية، غير جذابة من الناحية الجسدية ـ خرقاء إن صح التعبير ـ، وأن أجعلها تظهر من بعيد ـ بالنسبة للأشخاص "العاديين" ـ إنسانية ومهمة، وجذابة من الناحية الأخلاقية... ما أقدم لكم هو شخصية جديدة كل الجدة في الأدب ـ شخصية مهمة ومثيرة للشفقة بشكل كبير ـ وفي الأدب تولد شخصيات جديدة كل يوم».

لكن هذا الاشتغال الفني والجمالي لا يقتصر فحسب على صناعة الشخصية وتشكيل مسارها الحياتي، مع ما يفترضه ذلك من انغمار في دروبها النفسية المتشابكة والمعقدة، بل يركز أيضاً على الرهان اللغوي بمستوياته المتعددة: لغة السخرية، التعددية اللغوية (الإنجليزية والروسية والألمانية والفرنسية أساساً)، لغة الشعر والفلسفة والتاريخ والثقافة، لغة الذاكرة، لغة التناص والتثاقف، لغة الفن التشكيلي، الخ. أضف إلى هذا طبيعة مقومات هذه اللغة، التي راهنت أساساً على الجمل الطويلة المبنية على الاستطراد، والوصف المكثف، والاستعارات، والتركيب العجائبي الذي يولد صوراً فنية مغرقة في الغرابة. الخ. كما يمثل السرد رهاناً أساسيا في هذا الاشتغال، حيث يمثل لغزاً محيراً ومربكاً هو الآخر. إذ يظهر السارد بمظهر العارف بكل شاذة في حياة "بُنين" الظاهرة والخفية، وإلا كيف أمكن له أن يتسلل إلى طويته، وأن يعرف طفولته وسرائره النفسية وميولاته وأهواءه ورغباته ونزواته، بل وهلوساته وأمراضه؟ فالسارد يظهر في صور عدة، بل يتخذ لنفسه مواقف مختلفة؛ فهو صديق الطفولة، والمهاجر اللاجئ، والمثقف النبيل، والقارئ النبيه، الخ. هذا

فضلا عن مستويات فنية أخرى، تتعلق أساساً بالبناء الروائي وتشكيل الشخوص وتعدد الأصوات، وهي كلها مستويات تستجيب للوعي بضرورة تجديد الكتابة الروائية.

هكذا، تطرح كل هذه المستويات تحديا كبيراً على عمل المترجم؛ ذلك أن ترجمة هذه الرواية إلى اللغة العربية لن تكون بالمهمة السهلة المنال. إذ لا تكمن صعوبة هذا التحدي في اللغة وحدها، بل في دلالات النص المكثفة وثقافاته المتعددة، وكذا في المعارف الكثيرة التي يوظفها خدمةً لمشروعه الروائي، وخاصة ما يتعلق منها بعلم النفس والتحليل النفسي واللسانيات والإبداعات الأدبية والفنية التي يحيل عليها ("تشيخوف"، "تولستوي"، "دوستويفسكي"، "أخماتوفا"، "بيكاسو"، "دالي"، "فان غوغ"، "ميملينغ"، "فان أيك"، "كريستوس"، الخ). ناهيك عن الصعوبات التي تطرحها مستوياته الفنية العالية التي أتيت على ذكرها آنفا.

فهل ستغطي هذه الترجمة بعض النقص الحاصل في ترجمة أعمال "فلاديمير نابوكوف" إلى العربية؟ وهل ستنجح في خلق نفس الأثر الذي خلفته روايته الشهيرة *"لوليتا"* لدى القارئ العربي؟ ذاك رهاني، والجواب عندك أيها القارئ العزيز.

محمد جليد

الدار البيضاء: ٢٨ شتنبر ٢٠١٧

الفصل الأول

١

لم يكن المسافر الكهل الجالس في زاوية النافذة على يسار ذلك القطار الجامح، قرب مقعد فارغ يواجه آخرين فارغين، سوى الأستاذ "تيموفي بْنين". كان أصلع على نحو مثالي، حليق الذقن، ذا وجه لوّحته الشمس. بدا من فوق مثيراً بالأحرى بقبعته البنية الكبيرة تلك، ونظارتيه المصنوعتين من قوقعة سلحفاة (اللتين تخفيان حاجبيه الطفوليين)، وشفته العليا الشبيهة بشفة قرد، ورقبته الغليظة، وجذعه الضخم البارز تحت معطف صوفي ضيق، لكن جسده ينتهي، في الأسفل، مخيبا للآمال، بساقين نحيفتين (هما الآن متشابكتان ومغطاتان بنسيج من صوف الفلانيلة) وقدمين هشّتين تكادان تكونان أنثويتين.

جورباه الفضفاضان مصنوعان من صوف قرمزي موشّى بمربعات أرجوانية. لكن حذاءه "أوكسفورد" الأسود الثمين كلّفه لوحده قدر ما كلفته ملابسه كلّها (بما في ذلك ربطة عنقه المزخرفة بإسراف). قبل الأربعينات، ظل يرتدي، طوال المرحلة الرصينة من حياته بأوربا، ملابس داخلية طويلة، يحشو أطرافها في جوارب حريرية أنيقة مطرزة الحواشي وخالية من الألوان الزاهية، تشدّها أربطة إلى أعلى رَبْلَتيه المكسوتين بقماش قطني. في تلك الأيام، كان من شأن كشف جزء من

ذلك اللباس الداخلي الأبيض، عبر رفع البنطلون إلى الأعلى، أن يبدو خليعا، كأن يظهر أمام بعض النساء بلا ياقة أو ربطة عنق؛ حتى عندما كانت السيدة "رو" الفاسدة، بوابة العمارة الوضيعة بالمقاطعة السادسة عشرة بباريس حيث سيقضي "بْنين" خمسة عشر عاماً من عمره، بعد أن فرّ من روسيا اللينينية وأنهى دراسته في براغ، تصعد إلى غرفته لتتسلم ثمن الكراء، ولم يكن يملك ياقته، كان "بْنين" يحجب رباط عنقه بيد محتشمة. كل ذلك غيّره الجو المسكر في العالم الجديد. وها هو قد أصبح الآن، في سن الثانية والخمسين، مجنونا بحمامات الشمس، يلبس قمصان الرياضة وسراويلها، وعندما يشبك رجليه، يحرص على أن يكشف جزءاً كبيراً من قصبة ساقِه بصفاقة متعمدة. هكذا ربما بدا لراكب يجاوره؛ لكن لولا جندي نائم في زاوية وامرأتين منهمكتين في العناية بصبي في الزاوية الثانية، لكان "بْنين" سيّد نفسه.

الآن لا بد من البوح بسرّ. كان الأستاذ "بْنين" يركب القطار الخطأ. لم يدرك ذلك، ولا المراقب أيضاً، الذي كان يشقّ طريقه عبر القطار نحو عربة "بْنين". في الواقع، كان "بْنين" لحظتها راضيا للغاية عن نفسه. فعندما تلقى صاحبُنا دعوة لإلقاء محاضرة مساء الجمعة بكلية "كريمونا" ـ التي تقع على بعد نحو مائتي فرست[1] غرب "وايندبل"، حاضنة "بْنين" الأكاديمية منذ سنة ١٩٤٥ ـ نصحته الآنسة "جوديث كلايد"، نائبة رئيس نادي "كريمونا" النسائي، بأن أنسب قطار هو ذاك الذي ينطلق من "وايندبل" في الساعة الواحدة واثنتين وخمسين دقيقة بعد الزوال، ويصل إلى "كريمونا" في الساعة الرابعة وسبع عشرة دقيقة؛ لكن "بْنين" ـ الذي كان شغوفا للغاية، مثل كثيرين من الروس، بكل شيء في سلسلة جداول المواعيد والخرائط والفهارس، يجمعها

---

(١) مقياس روسي للطول يعادل ١١٠٠ متر تقريباً.

ويهتم بتوزيعها مجانا، تدفعه إلى ذلك متعة مثيرة غايتها الحصول على شيء مقابل لا شيء، ويتباهى بأن يجلو المسارات لنفسه ـ اكتشف، بعد بحث بسيط، علامة مبهمة تطابق قطارا مناسبا آخر (ينطلق من "وايندیل" في الساعة الثانية وتسع عشرة دقيقة بعد الزوال ويصل إلى "كريمونا" في الساعة الرابعة واثنتين وثلاثين دقيقة)، لكن العلامة تشير إلى أن هذا الموعد يكون أيام الجمعة، والجمعة فقط، حيث يتوقف قطار الساعة الثانية وتسع عشرة دقيقة في "كريمونا"، في طريقه إلى مدينة نائية أكبر، موسومة هي الأخرى باسم إيطالي رخيم. ومن سوء حظ "بْنين" أن جدول مواعيده قديم إلى حد ما، حيث يعود إلى خمس سنوات خلت.

كان "بْنين" يدرس اللغة الروسية بكلية "وايندیل"، وهي مؤسسة ريفية إلى حد كبير تتميز ببحيرة صناعية تقع وسط حرم جامعي طبيعي، وبأروقة مكسوة باللبلاب تصل بين القاعات المختلفة، وبجداريات تعرض صور أعضاء هيئة التدريس المنشغلين بنقل مشعل المعرفة من أرسطو وشكسبير وباستور إلى فتيان قرويين ذوي بنيات مخيفة وفتيات قرويات، وبشعبة ألمانية كبيرة ونشيطة زاهرة، يسمّيها رئيسها الدكتور "هاغن" بعجرفة بـ"الجامعة داخل الجامعة" (وهو ينطق كل لفظ على حدة).

في دورة الخريف من تلك السنة الاستثنائية (١٩٥٠)، ضمّت لائحة المسجلين في دروس اللغة الروسية طالبة واحدة في المستوى المتوسط، هي "بيتي بليس" الرصينة والمكتنزة؛ وطالبا ذا اسم مجرّد ("إيفان داب" الذي لم يحضر أبدا) في المستوى المتقدم؛ وثلاثة آخرين في المستوى الأولي، وهم: "جوزيفين مالكين" التي رأى أجدادها النور في مدينة مينسك، و"تشارلز ماكبيث" الذي باتت ذاكرته تختزن عشر لغات وما تزال مستعدة لحفظ عشر أخرى، والخاملة "أيلين لاين" التي اعتقدت حينها أن تعلم الأبجدية الروسية كافٍ عملياً لقراءة "أنا

كارامازوف" في لغتها الأصل. كان الأستاذ "بْنين" عاجزا عن مجاراة أولئك السيدات الروسيات العجيبات المنتشرات في كل جامعات أمريكا، اللواتي لم يتلقين أي تدريب منهجي أبدا، لكنهن استطعن، بفضل الحدس والثرثرة وبعض من حماسة الأمومة، أن يغرسْن معرفة ساحرة بلغتهن الصعبة والجميلة في مجموعة من الطلبة ذوي نظرات بريئة في جو مشحون بأغاني "الأم فولغا" والكافيار الأحمر والشاي. لم يتجرأ الأستاذ "بْنين" أبدا على الاقتراب من القاعات الشامخة الخاصة بعلم اللسانيات الحديثة، ذاك التآخي المتقشف بين الأصوات، والمعبد الذي لا يدرس فيه شباب جادّون اللغة في حد ذاتها، وإنما منهج تعليم الآخرين كيفية تدريس ذلك المنهج الذي يشبه شلال ماء منهمر من صخرة إلى أخرى، لكنه لم يعد قناة للإبحار العقلاني، وإنما قد يصير في مستقبل وهمي ما مفيدا في تطور لهجات سرّية ـ مثل الباسكية الأساسية وغيرها ـ لا يتحدث بها سوى بعض الآلات المتطورة. لاشك أن مقاربة "بْنين" لعمله كانت هاوية وغُفْلا، تعتمد كما كانت على تمارين نحوية نشرها رئيسٌ لشعبة اللغة السلافية في جامعة أهمّ من "وايندِيل" ـ وهو محتال محترم لغتُه الروسية مضحكة، لكنه يريد أن يسخوَ بإضفاء اسمه المبجل على نتاجات أعمال مجهولة. غير أن "بْنين"، وبصرف النظر عن عيوبه الكثيرة، يحيط نفسه بسحر خلاّب وعتيق، أصرّ عرّابه الوفي الدكتور "هاغن" على تشبيهه، أمام لجنة أمناء عابسين، بمادة مستوردة مرهفة يستحق ثمنها أن يؤدى بالعملة الوطنية. ورغم أن دكتوراه علم الاجتماع والاقتصاد السياسي التي حصل عليها "بْنين" ببعض الأبهة من جامعة براغ في نحو سنة ١٩٢٥ أصبحت شهادة في حكم البطلان مع منتصف القرن، لم ينقص ذلك من مكانته كأستاذ للغة الروسية. كان محبوبا لا بموهبة جوهرية، بل باستطراداته التي لا تنسى، حيث كان ينزع نظارتيه، ليبتسم ابتهاجا بالماضي، وهو يلمّع

عدسات الحاضر. يشرد في رحلات حنين بلغة إنجليزية ركيكة، ويسترسل في طرائف من سيرته الذاتية. كيف جاء "بْنين" إلى الولايات المتحدة، «فتّشوه على الباخرة قبل النزول. حسناً! "لا شيء تصرح به؟" "لا شيء". حسناً! ثم تطرح أسئلة السياسة. يسأل: "هل أنت فوضوي؟" أجيب» ـ هنا يستقطع السارد وقتاً ليتهلل فرحاً صامتاً دافئاً ـ «"أولا ما المقصود بمفهوم "الفوضوية"؟ هل هي الفوضوية التطبيقية، الميتافيزيقية، النظرية، الصوفية، التجريدية، الفردية، الاجتماعية؟ عندما كنت شابا، " أقول له، "كانت كل هذه الأمور تكتسي دلالات عندي". هكذا، تحدثنا حديثا مهما جداً، قضيت بعده أسبوعين كاملين في إيليس أيلند» ـ هنا بدأ جوفه يلهث، ثم يلهث، حيث اضطرب السارد.

لكن طريق الدعابة كان ما يزال يحتفظ بحصص أخرى أفضل. سيفتح "بْنين" العطوف، مصطنعا تكتما خجولاً، وهو يهيئ الأطفال للمتعة الرائعة التي استمتع بها ذات زمن، ويظهرها الآن بابتسامة منفلتة ترتسم على طُقم ناقص لكن مدهش لأسنان مصفرة، كتاباً روسياً مهترئاً حيث وضع علامة عبارة عن شريط جلديّ أنيق بعناية. سيفتح الكتاب، وتعتلي ملامحَ وجهه الطيّعة عندئذ، كما العادة، تعبيراتُ ضيقٍ بالغ، فيقلب صفحات الكتاب يمينا ويسارا، فاغرا فاه منفعلا بشدة، وقد تمضي دقائق عديدة قبل أن يعثر على الصفحة المطلوبة ـ أو يقنع نفسه في جميع الأحوال بأنه علّم الصفحة بشكل جيد. وعادة ما يكون المقطع الذي يختاره مقتبسا من كوميديا قديمة وساذجة ألّفها "أوستروفسكي" قبل نحو قرن عن عادات طبقة التجار، أو من مسرحية قديمة كذلك، لكنها أحدث منها، من مسرحيات "ليسكوف" التافهة والصاخبة القائمة على تحريفات لفظية. كان "بْنين" يلقي تلك السلعة البالية بتشدق رنّان، كأنه في مسرح "ألكسندرينكا" الكلاسيكي (بمدينة بيترسبورغ) بدل بساطة "فناني موسكو" الرشيقة. لكن بما أن إدراك متعة ما مازالت ربما مكنونة

في تلك النصوص، لا تلزمه معرفة راسخة بالعامّية فحسب، بل كذلك قدر جيّد من الفطنة الأدبية، وبما أن قِسْمَه الصغير والفقير لا يملك هذا ولا ذاك، فإن المحاضر سيستمتع وحده بخبايا النص المترابطة. سيتحول اللهاث الذي أشرت إليه في سياق آخر الآن إلى زلزال حقيقي. سيوجّه "بْنين" ذاكرته، بكل الأضواء المشتعلة وأقنعة العقل الكاذبة، نحو أيام الصبا المتوقدة والمتفتحة (في عالم مشرق أيْنَع أكثر، فمحاه التاريخ بضربة واحدة)، وسيسكر بنبيذ قنيناته الخاصة، وهو يقدّم مثالا بعد آخر مما يفترضه المنصتون إليه بأدب فكاهةً روسيةً. وسرعان ما ستصبح الدعابة أكبر منه، حيث ستسيل دموع إجاصيّة الشكل على خدّيه الملوّحين. لن تبرز فحسب أسنانه الفظيعة فجأة، بل أيضاً جزء مذهل من نسيج لثّته العليا الوردية، كأن شيطانا خرج من قمقمه، ثم ستطير يدُه إلى فمه، بينما كتفاه العريضان يرتجفان ويتمايلان. ورغم أن الخطاب المخنوق خلف يده الراقصة صار الآن ملتبسا على الطلبة على نحو مضاعف، سيتضح أن استسلامه الكامل لبهجته كان شديد الإغواء. وما أن أصبح مغلوبا على أمره، حتى غرق طلبته في ضحك لا يقاوم، حيث انخرط "تشارلز" في ضحك مفاجئ وصاخب أشبه بالنباح، وتدفقت ضحكةٌ حلوة وبريئة بشكل مبهر، مغيِّرة محيّا "جوزيفين" القبيحة، بينما ذابت "أيلين"، التي كانت فاتنة، في قهقهات هلامية بشعة.

ذلك كله لا يغير من أن "بْنين" كان يركب القطار الخطأ.

كيف ينبغي تشخيص حالته الكئيبة؟ يجب أن نؤكد على الخصوص أن "بْنين" لم يكن من صنف تلك التفاهة الألمانية اللطيفة التي كانت تسمى في القرن الماضي بـ: *الأستاذ الشارد*[1]. خلافا لذلك، كان حذرا

---

(١) ودرت هذه العبارة في النص الأصلي باللغة الألمانية: der zerstreute Professor.

جدّاً ربما، شديد الاحتراس دائما من الوقوع في حبائل شيطانية، يقظا حدّ الوجع المؤلم خشية أن يغريه محيطه الضالّ (وهو هنا أمريكا المستعصية على التنبؤات) بارتكاب فعل شنيع. فالعالم شارد، وتقع مهمة إصلاحه على عاتق "بْنين". حياته حرب دائمة ضد كائنات عديمة الإحساس تتداعى عليه، أو تهاجمه، أو ترفض أن تؤدي وظيفتها، أو تدور في حلقة مفرغة ما أن تدخل مجاله الوجودي. كان لا يبرع في استخدام يديه على نحو غريب، لكنه ظنّ نفسه صاحب مهارة يدوية وآلية، لأنه كان قادرا على أن يرتجل نوتة في طرفة عين باستخدام حبة بازلاء، وأن يدحرج حجرة مسطحة عشر مرات على سطح بركة، وأن يلتقط صورا لأرنب بحركة أصابعه (تنقبض عندما تطرف عيناه)، وأن يقوم بعدد من الخدع التافهة الأخرى مما يحتفظ به الروس في جعبتهم. كان مفتونا بأدوات وآلات ببهجة خرافية مدوخة. كانت الأجهزة الكهربائية تسحره، وتحبس اللدائنُ أنفاسَه. كما كان شديد الإعجاب بالسحّاب. لكن البندول الموصول بالكهرباء كان ينغص عليه صباحاته عندما تشلّ عاصفة ليلية محطة الكهرباء المحلية. سينكسر إطار نظارتيه عند جسرهما إلى جزأين متماثلين، فيحاول جمعهما بلا جدوى، آملا ربما في أن تساعده معجزة عضوية ما على ترميمهما. لكن السحّاب الذي يعول عليه رجل نبيل في الغالب سيظل مفتوحا بين يديه المرتبكتين في لحظة مرعبة من العجلة واليأس.

ومع ذلك، لم يعرف بعد أنه كان يركب القطار الخطأ.

في حالة "بْنين"، ثمة منطقة خطر استثنائي هي اللغة الإنجليزية. إذ لم يكن يتكلم اللغة الإنجليزية، عندما هاجر من فرنسا إلى الولايات المتحدة، ولم يكن يتهجى سوى بعض المفردات والعبارات غير المجدية، مثل "دو ريست إيز سايلنس"، "نيفرمور"، "ويكاند"، "هو إيز هو"؛ وبعض الكلمات العادية، مثل "إيت"، "ستريت"، "فاونتن

بين"، "غانغستر"، "تشارلستن"، "مارجينال يوتيليتي"[1]. بعناد عكف على تعلم لغة "فينيمور كوبر" و"إدغار بو" و"إديسون" والواحد والثلاثين رئيسا. في سنة ١٩٤١، أصبح حاذقا إلى حد كافٍ، عند نهاية الدراسة، في استخدام عبارات مرتجلة مثل "ويشفول ثينكين" و"أوكي - دوكي"[2]. وفي سنة ١٩٤٢، بات قادرا على أن يقطع حديثه بجملة مثل: «لنختصر القصة». وعندما استهل "ترومان" ولايته، كان بمقدور "بْنين" أن يعالج عمليا أي موضوع، لكن تحسّنه بدا متوقفا رغم كل جهوده المبذولة، حيث ظلت لغته الإنجليزية، حتى سنة ١٩٥٠، تكتنفها الشوائب والهفوات. وفي خريف ذلك العام، أضاف إلى دروسه في اللغة الروسية إلقاء محاضرة أسبوعية فيما يسمى بحلقة (أوربا غير المجنحة: مشهد الثقافة الأوربية المعاصرة) التي يديرها الدكتور "هاغن". وقد أشرف شابٌ من أعضاء الشعبة الألمانية على تحرير جميع محاضرات صاحبنا، بما في ذلك محاضراته العديدة التي ألقاها خارج المدينة. كانت العملية معقدة إلى حدّ ما، لأن الأستاذ "بْنين" كان يكدّ لترجمة فصاحة عبارته الروسية إلى إنجليزية مرقّعة تعجّ بأمثال مستغلقة. كل هذا كان يراجعه الشاب "ميلر"، ثم تطبعه الآنسة "آيزنبور"، سكرتيرة الدكتور "هاغن"، على الآلة الكاتبة. بعد ذلك، يحذف "بْنين" المقاطع المستعصية على فهمه، قبل أن يلقيها على جمهور محاضراته الأسبوعية. بدون هذا النص المعدّ سلفا، يصبح عاجزا تماماً عن كل شيء، ولا يستطيع قصد إخفاء عجزه استخدام الحيلة القديمة بالنظر إلى الأعلى تارة، وإلى الأسفل تارة أخرى - يتلفظ حفنة كلمات، يكورها ويرشق جمهوره بها، ثم يستلّ نهاية الجملة ويقفز إلى أخرى. كان "بْنين"

---

(1) The rest is silence, nevermore, week-end, who's who... eat, street, fountain pen, gangster, Charleston, marginal utility.

(2) Wishful thinking, okey-dokey.

يخشى أن تفقد عيناه القلقتين اتجاههما. لذلك كان يفضل قراءة محاضراته، وحدقتاه لا تفارقان نصّه، بصوت جهوري بطيء ورتيب يجعله يبدو كالخائف من المصاعد، الذي يصعد أدراجا لا تنتهي.

لم يبق أمام المراقب، الرجل العطوف ذي الرأس الأشيب الذي يضع نظارتين فولاذيتين أسفل أنفه البسيط والفعال وشريطا لاصقا متسخا على إبهامه، سوى أن يراقب تذاكر ركاب ثلاث عربات، قبل أن يصل إلى آخر عربة حيث يركب "بُنين".

وفي غضون ذلك، استسلم "بُنين" لإشباع حنين "بُنينيٍّ" خاص. إذ حلّت به حيرة "بُنينية". كانت حقيبته من نوع "غلادستون" تحتوي، إلى جانب أشياء أخرى ضرورية لقضاء ليلة "بُنينية" في مدينة غريبة، مثل قوالب أحذية وتفاحات وقواميس وغير ذلك، على بذلة سوداء جديدة نسيبا يعتزم أن يلبسها ليلة محاضرته الموسومة بـ"هل الشعب الروسي شيوعي؟"، التي سيلقيها أمام سيدات "كريمونا". كما كانت تحتوي على محاضرة ندوة الاثنين الموالي ("دونكيخوطي وفوست")، التي ينوي تنقيحها في طريقه عائداً إلى "وايندبل"، وكذا ورقة أعدتها طالبة السنة الثانية "بيتي بليس" بعنوان "دوستويفسكي وعلم النفس الجشطالت"، ينبغي أن يقرأها على الدكتور "هاغن"، المدير الرئيس لنشاطها الفكري. كانت حيرته تتجلى كما يلي: إذا احتفظ بمخطوطة "كريمونا" ـ وهي عبارة عن حزمة أوراق بحجم آلة كاتبة ـ عنده آمنة في دفء جسده، فإنه يخشى نظريا أن ينسى نقلها من البذلة التي يرتديها إلى الأخرى التي سيلبسها فيما بعد. من جانب آخر، إذا وضع المحاضرة، منذ الآن، في جيب السترة الموجودة داخل الحقيبة، فهو يعرف أنه سيتعذب بسبب احتمال سرقة أمتعته. ومن جانب ثالث (وكانت تلك الحالات العقلية تُنبت ذيولا أخرى دائما)، كان يحمل في الجيب الداخلي لسترته الحالية حافظة ثمينة بها ورقتان من فئة عشرة دولارات،

وقصاصة جريدة لرسالة كتبها، بمساعدتي، إلى صحيفة "نيويورك تايمز" سنة ١٩٤٥ حول مؤتمر يالطا، وشهادة تجنيسه، حيث قد يخرج الحافظة، عند الحاجة، بطريقة تزيح الأوراق المطوية عن مكانها. كان صاحبنا، خلال الدقائق العشرين التي قضاها على القطار، قد فتح حقيبته مرّتين ليلعب بأوراقه المختلفة. عندما وصل المراقب إلى عربته، كان "بْنين" المجتهد يتصفح بصعوبة جهد "بيتي" الأخير، الذي يبدأ بهذه الجملة: «عندما ننظر في المناخ العقلي الذي يعيش فيه كل واحد منا، لا يمكن إلا أن نلاحظ..».

دخل المراقب. لم يوقظ الجندي، ووعد المرأتين أنه سيخبرهما بمحطة وصولهما عند الاقتراب من وجهتهما، وها هو الآن يطأطئ رأسه محدقا في تذكرة "بْنين". حذفت محطة "كريمونا" منذ سنتين.

صرخ "بْنين": «إنها محاضرة مهمة. فما العمل؟ إنها كارثة!»

غاص المراقب الأشيب في المقعد المقابل بوقار وارتياح، وشرع يتصفح في صمت كتابا ممزقا مليئاً بأوراق مطوية الزوايا. في غضون بضع دقائق، وبالضبط في الساعة الثالثة وثماني دقائق، سيضطر "بْنين" للنزول بمحطة "ويتشورتش"، حتى يتمكن من اللحاق بحافلة الساعة الرابعة التي ستوصله إلى "كريمونا" في نحو الساعة السادسة.

قال "بْنين" بمرارة: «كنت أظن أنني ربحت اثنتي عشرة دقيقة، وها أنا أخسر الآن نحو ساعتين كاملتين.

تنحنح، متجاهلا مواساة الرجل الأشيب الطيب: «ستصل في الموعد المحدد». خلع نظارتي القراءة، حمل حقيبته الثقيلة، ثم يمّم نحو ردهة محطة الحافلة، حتى ينتظر هناك إلغاء الشاشة الخضراء المشوشة وتعويضها باسم المحطة النهائية التي في باله.

٢

تبدّت "ويتشتورتش" كما توقع. كانت مدى لشمس حارقة وإسمنت فاتر، يهجع خلف هندسات فارغة لظلال واضحة. كان الطقس المحلي في شهر أكتوبر صيفيا على نحو لا يصدق. دخل "بْنين"، محترسا، شِبْه حجرة انتظار، في وسطها موقد عديم الفائدة، ثم نظر حوله. في زاوية منعزلة منها، تبيّن النصف الأعلى من شابٍّ يتصبب عرقا، وهو يملأ استمارات فوق المنضدة الخشبية الكبيرة أمامه.

ـ «هلا أخبرتني، من فضلك، أين تتوقف حافلة الساعة الرابعة المتوجهة إلى "كريمونا"؟» سأل "بْنين".

أجاب الموظف بسرعة، دون أن يرفع رأسه:

ـ «في الجهة الأخرى من الشارع».

ـ «وأين يمكن أن أترك الحقيبة؟»

ـ «تلك الحقيبة؟ سأعتني بها».

دفع الشابّ الحقيبة إلى زاوية منعزلة من مكتبه، دون أن يعبر عن تلك العبارات الرسمية، التي ظل انعدامها لدى الأمريكيين يحير "بْنين".

ـ «كيتانس؟» سأل "بْنين"، مكيفا الكلمة الروسية (كفيتانتسيا)[1]، التي تعني "وصل الاستلام" مع النبرة الإنجليزية.

ـ «ما معنى ذلك؟»

ـ «رقم»، قال "بْنين" مرتجلا.

ـ «لا تحتاج إلى رقم،» قال الشاب، ثم استأنف كتابته.

غادر "بْنين" المحطة، بعد أن طمأن نفسه بموعد الحافلة، ثم دخل

---

(1) 'kvitantsiya.'

مقهى. تناول شطيرة لحم خنزير، ثم طلب ثانية، وأكلها أيضاً. في الساعة الرابعة إلا خمس دقائق، أدى "بْنين" ثمن ما أكل، لا ثمن عود أسنان جيد انتقاه بعناية من كوب أنيق صغير يشبه كوز صنوبر، موضوع قرب صندوق الأداء، قبل أن يخرج عائداً إلى المحطة لاستعادة حقيبته.

لم يعد الشابّ خلف المنضدة، بل حلّ رجل آخر في مكانه. كان الشاب قد استدعي على عجل، لينقل زوجته الحامل إلى مستشفى الولادة. لكنه سيعود بعد بضع دقائق.

ـ «لكن يجب أن أحصل على حقيبتي!» صرخ "بْنين".

تأسف البديل، لأنه لا يستطع أن يفعل شيئا.

ـ «إنها هناك! صرخ "بْنين"، وهو يشرئب ويشير بأصبعه إليها.

كانت تلك الحركة مشؤومة. كان ما يزال يشير بأصبعه، عندما أدرك أنه كان يطالب بالحقيبة الخطأ. ارتعش أصبعه. فأصبح ذلك التردد قاتلا.

ـ «حافلتي إلى "كريمونا"!» صرخ "بْنين".

ـ «هناك حافلة أخرى في الساعة الثامنة،» قال الرجل.

ما العمل أمام صاحبنا؟ لقد أصبح في وضع لا يحسد عليه! ألقى نظرة نحو الشارع. وصلت الحافلة للتو. كان التزامه يعني خمسين دولارا إضافيا. طارت يده إلى جانبه الأيمن. كانت المحاضرة هناك. "سلافا بوغي" (حمداً لله)! حسناً! لن يرتدي سترته السوداء ـ "فوت إ فسيو" (وانتهى الأمر)[1]. سيستعيد الحقيبة عند عودته. ألم يفقد ويُسْقِط ويضيّع عدة أشياء ثمينة في حياته؟ ركب "بْنين" الحافلة بهِمّة، يكاد باله يخلو من أي همّ.

---

(١) عبارتان روسيتان وردتا في النص الأصلي على النحو التالي: slava bogu, vot i vsyo.

لم يكد يكابد مشاق تلك المرحلة الجديدة من رحلته سوى لمسافة بضعة مبانٍ من المدينة، عندما استبدّ به شكٌّ مرعب. فمنذ أن انفصل عن حقيبته، ظل طرف سبّابته اليسرى يتناوب مع حدّ كوعه الأيمن في التأكد من وجود المحاضرة الثمينة في جيب سترته الداخلي. فجأة، أخرجها بخشونة. كانت ورقة "بيتي".

قفز "بُنين" من مقعده، يتطاير منه ما كان يحسبه صرخات قلق وتوسل دولية. ظل يترنح قبل أن يصل إلى باب النزول. بيدٍ واحدة تناول السائق المتجهم حفنة نقود من آلته الصغيرة. عوّضه عن ثمن التذكرة، ثم أوقف الحافلة. نزل المسكين "بُنين" وسط مدينة غريبة.

كان أضعف مما يظهره صدره المنتفخ للغاية. لم تكن موجة التعب العضال التي أغرقت جسده المثقل، عازلة إياه عن الواقع، كما تفعل دائما، سوى إحساس معروف عنده على نحو مطلق. وجد نفسه وسط حديقة رطبة خضراء وأرجوانية، أشبه بحديقة مقبرة رسمية، حيث تولى الأهمية لنباتات وردية كئيبة، وأشجار رند لامعة، وأشجار ظليلة مرشوشة بالمبيدات، وعشب مقصوص بدقة. ما كاد ينعطف في ممشى تحفّه أشجار كستناء وسنديان، ويقود إلى محطة السكك الحديدية، حسبما أخبره سائق الحافلة، حتى اجتاحه، كليا، ذلك الشعور المخيف، ذلك الوخز الوهمي. هل كان شيئاً مما أكل؟ هل هو مرق الشطيرتين؟ أم هو مرض غامض لم يكتشفه بعد أي طبيب من أطبائه؟ تساءل صاحبي، وأنا أتساءل أيضاً.

لا أدري ما إذا كان أحدهم لاحظ قبلي أن التكتم هو إحدى ميزات الحياة الأساسية. ولو لم نكن نتغطى بطبقة لحم، لهَلَكْنا. فالإنسان لا يوجد إلا بقدر انفصاله عن محيطه. والجمجمة خوذة مسافر في الفضاء، إما أن تبقى داخلها، أو تموت. الموت عُزْيٌ، الموت مشاركة. قد يكون

الامتزاج بالطبيعة أمرا رائعا، لكن أن تفعل ذلك هو نهاية الأنا المرهفة. كان الإحساس الذي يشعر به المسكين "بْنين" شبيها جدّاً بذلك العري، وبتلك المشاركة. فقد أحسّ بأنه مكشوف كثير الثقوب. كان يرشح عرقا جراء شعوره بالذعر. جنّبه مقعد حجري وسط أشجار الكستناء السقوط على رصيف الممشى. هل وقع بسبب نوبة قلبية؟ أشك في ذلك. بالمناسبة، فأنا طبيبه، ودعوني أكرر أنني أشك في ذلك. ذلك أن مريضي ينتبه، كما كثير من أولئك الأشخاص المتفردين غير المحظوظين، إلى قلبه (ذلك «العضو العضلي الأجوف،» حسب التعريف الشنيع الوارد في قاموس "ويبسترز نيو كوليجيات ديكشنري"[1]، الموجود في الحقيبة التي خلفها "بْنين" وراءه في المحطة)، بفزع موجع، ونفور مقلق، وكره شديد، كأنه وحش رهيب ولزج ومقزز على المرء أن يتحمل تطفله، للأسف. أحياناً، عندما يربكه نبضه المضطرب والمترنح، يعالجه الأطباء بشكل أعمق، حيث يكشف تخطيط القلب قمما جبلية خرافية، ويظهر عدة أمراض قاتلة يصدّ بعضها بعضا. كان يخشى أن يلمس معصمه. ولم يحاول أبدا أن ينام على جنبه الأيسر، حتى في تلك الساعات الليلية الكئيبة، عندما يتوق الأرق إلى جنبه الثالث بعد أن يستغرق جنبيه الآخرين.

ها هو "بْنين» يشعر، الآن داخل حديقة "ويتشورتش"، بذلك الشعور الذي انتابه يوم ١٠ غشت ١٩٤٢، وفي عيد ميلاده يوم ١٥ فبراير ١٩٣٧، ويوم ١٨ مايو ١٩٢٩، ويوم ٤ يوليوز ١٩٢٠ ـ بأن ذلك الإنسان الآلي البغيض، الكامن بين جوانحه، طوّر وعيا خاصا به، ولم يعد حيّاً على نحو فادح، بل كان يسبب له الألم والهلع. وضع "بْنين" رأسه الأصلع العاجز على مسند الكرسي الحجري، واستدعى المناسبات

---

(1) *Webster's New Collegiate Dictionary.*

السابقة التي شعر فيها بانزعاج ويأس مماثلين. ألا يكون التهابا رئويا هذه المرّة؟ قبل أيام قليلة، تجمدت مفاصله بسبب تلك التيارات الهوائية الأمريكية العنيفة التي يفاجئ بها المضيف ضيوفه بعد جولة شراب ثانية في ليلة عاصفة. فجأة، وجد "بْنين" نفسه ينزلق عائداً إلى طفولته. هل كان يحتضر؟ اكتسى هذا الإحساس حدَّةَ تفصيل قديم قيل إنه الامتياز المفجع الممنوح للغرقى، خاصة في الأسطول الروسي السابق ـ ظاهرة الاختناق تلك التي شرحها محلل نفساني متمرس، لا أتذكر اسمه، بأنها الصدمة التي يستدعيها المرء دون وعي لحظة المعمودية، فتفجر نهرا من الذكريات المتداخلة بين الغطس الأول والأخير. حدث ذلك كلّه في لمح البصر، لكن ما من طريقة للتعبير عن ذلك إلا بمتوالية كبيرة من الكلمات.

نشأ "بْنين" في أسرة محترمة وثرية جدّاً من أسر مدينة "سانت بيترسبورغ". كان لوالده الدكتور "بافيل بنين"، وهو طبيب عيون ذو سمعة حسنة، شرف معالجة "ليو تولستوي" من التهاب أصاب باطن جفنه. أما والدة "تيموفي"، المرأة القصيرة والضئيلة والمتوترة ذات الخصر الرقيق والشعر القصير، فهي ابنة الثوري الشهير "أوموف" وسيدة ألمانية من مدينة "ريغا". رأى عيني والدته خلال نصف إغماءته، تقتربان منه. حدث ذلك يوم أحد من آحاد منتصف فصل الشتاء. كان عمره أحد عشر عاما. كان يحضّر دروس يوم الاثنين، عندما اجتاحت قشعريرةٌ غريبةٌ جسدَه. قاست والدته حرارة جسمه. نظرت إلى ابنها نظرة ذهول، واتصلت على الفور بطبيب الأطفال "بيلوشكين"، صديق زوجها الوفي. كان رجلا قصيرا كثّ الحاجبين، خفيف اللحية، قصير الشعر. جلس على حافة سرير "تيموفي"، وهو يرفع كمّي معطفه الصوفي الطويل. جرى سباق بين دقات ساعة الطبيب الذهبية الضخمة ونبض "تيموفي" (المنتصر بسهولة). ثم كشف "بيلوشكين" عن جذع "تيموفي"، وضغط

عليه بسماعته المتجمدة، وعلى قحفة رأسه. كانت السماعة تتنقل فوق ظهر "تيموفي" وصدره، مثل قاعدة مونوبود[1] مسطحة، وهي تلتصق بهذه البقعة الجلدية أو تلك، ثم تعرج على أخرى. لم يكد الطبيب يغادر، حتى لفّت والدة "تيموفي" وخادمة قوية تحمل دبابيس أمان بين أسنانها المريضَ الصغير المكروب في كمادة أشبه بسترة مساجين، تتكون من طبقة كتّان منقوع، وطبقة كثيفة من القطن الماصّ، وثالثة من الفانيلا المضغوطة، وقماش زيتي لزج - يكتسي مسحة من البول والحمّى - يقع بين وخز الكتان النديّ المتاخم لبشرته وصرير القطن الموجع الذي تلفّه طبقة الفانيلا الخارجية. هجع "تيموشا" (تيم)، مثل يرقة ضعيفة في شرنقتها، تحت كتلة من البطانيات الإضافية، كانت عديمة النفع أمام القشعريرة المتشعبة التي تدبّ إلى أضلعه من جانبي عموده الفقري المتجمد. لم يستطع أن يغمض عينيه، لأن جفنيه يلسعانه. ولم تعد الرؤية سوى ألم بيضوي تخترقه صواعق ضوء مائلة، وتحولت أشكال مألوفة إلى أماكن تفقس أوهاما لعينة. بجانب سريره حاجز خشبي مصقول من أربع قطع، ذو زخارف منحوتة تمثل طريقَ جيّاد محفوفا بالأوراق المتساقطة، وبركةَ زنابق، وعجوزاً يجلس القرفصاء على مقعد، وسنجاباً يمسك شيئاً أحمر بين قائمتيه الأماميتين. لطالما تساءل "تيموشا"، الطفل المنظّم، عن ماهية ذلك الشيء (أهو جوز؟ أم كوز صنوبر؟)، وبما أنه عاطل الآن، فقد صمم على فكّ ذلك اللغز البائس، لكن الحمى التي تطنّ في رأسه أغرقت كل مجهود في الألم والهلع، حيث كانت وطأة صراعه مع ورق الجدران أثقل وأشدّ. لكنه ظل قادرا على أن يرى، على المستوى العمودي، رسماً مؤلفاً من ثلاث باقات مختلفة من أزهار الأرجوان وسبع أوراق سنديان مختلفة تكررت عدة

---

(١) Monopode هو حامل كاميرا ذو قدم واحدة.

مرات بدقة تبعث السكينة في النفس. وها هو ينزعج الآن من الحقيقة البديهية التي تفيد أنه عاجز عن تحديد طبيعة نظامي التضمين والإحاطة اللذين يحكمان تكرار الرسم أفقيا. وقد برهن على وجود ذلك التكرار بقدرته على أن يلتقط، هنا وهناك على طول الجدار، من السرير حتى خزانة الملابس، ومن الموقد حتى الباب، ظهور هذا العنصر أو ذاك من التشكيلة برمتها. لكن عندما حاول أن ينتقل يمينا أو يسارا، بين المزهريات الثلاثة والأوراق السبعة، انتابته على الفور حيرة تافهة تجاه الورديات والسنديان. تبين له أن الرسام الشرير ـ مخرّب العقول وصديق الحمّى ـ كان شديد الحرص على إخفاء مفتاح الرسم، حيث جعله ثمينا مثل الحياة نفسها؛ حتى إذا عثر عليه، أمكن لـ"تيموفي" أن يستعيد عافيته المعتادة وعالمه اليومي. أجبرته هذه الفكرة الجلية ـ الجلية جداً، للأسف ـ على المكابدة في صراعه.

وقد أضاف وقع التأخر عن موعد دقيق دقة مقيتة، مثل موعد الذهاب إلى المدرسة أو تناول العشاء أو الخلود للنوم، الانزعاجَ من تصرف متسرّع أخرق إلى صعوبات بحث كان يتحول تدريجيا إلى هذيان. بدت الأوراق والورود، من غير أن تَفسُد تعقيدات التواءاتها، تنفصل كأنها جسد متموج عن جذورها الزرقاء الباهتة التي فقدت، هي الأخرى، لمعانها الناعم، لتتمدد أعمق فأعمق، حتى يكاد قلب المشاهد ينفجر استجابة لتمددها. لكنه مازال قادرا على أن يتبين من خلال تلك الأكاليل المستقلة بعض مكونات غرفة الأطفال، تعاند الحياة أكثر من المكونات الأخرى، مثل الشاشة اللامعة، والقدح المصقول، ومقابض سريره النحاسية، لكن تلك المكونات لم تتداخل كثيراً مع أوراق السنديان وباقات الأزهار المنمقة، مثلما يتداخل انعكاس شيء داخلي على زجاج النافذة مع المشهد الخارجي الذي يُرى عبر النافذة ذاتها. ورغم أن ضحية تلك الخيالات والشاهد عليها في الآن ذاته كان يتدثر بأغطية سريره، إلا

أنه كان يجلس في الآن ذاته، وفق طبيعة محيطه المزدوجة، على مقعد في حديقة خضراء وأرجوانية. تملّكه الإحساس، خلال لحظة الانصهار تلك، بأنه حاز أخيراً المفتاح الذي ظل يبحث عنه؛ لكن هفيف نسيم قادم من بعيد، وحفيفه الناعم الذي كان يتزايد وهو يحرك تلك الورديات ـ التي صارت الآن عمياء، بلا أزهار ـ شوّش على ذلك الحد المعقول من المظهر الذي تعرف عليه محيط "تيموفي بنين" ذات مرة. كان حيّاً يرزق، وكان ذلك كافيا. بدت خلفية المقعد، الذي كان ما يزال يسترخي فوقه، حقيقيا مثل ملابسه، أو محفظة نقوده، أو مثل تاريخ حريق موسكو الهائل سنة ١٨١٢.

كان سنجاب رمادي اللون يقرفص أمامه على وركيه بارتياح، يجرب كسر نواة خوخ. توقف النسيم لحظة، ثم صار يهز الآن الأوراق ثانية.

غادرته النوبة، تاركة إياه مرعوبا ومترنحا، لكنه قال في نفسه إنه لو كانت تلك النازلة نوبة قلبية حقيقية، لشعر فعلا بالاضطراب والقلق. غير أن هذه الطريقة الملتوية في التفكير بددت مخاوفه. كانت الساعة حينها الرابعة وعشرين دقيقة. استنثر أنفَه، ثم سار بمشقة إلى المحطة.

كان الموظف الأول قد عاد. «ها هي حقيبتك»، قال بمرح، «أنا آسف لأنك فوّتت حافلة كريمونا».

«على الأقل» ـ ويا لها من سخرية فخمة حاول صاحبنا سيء الحظ أن يحقنها في عبارة "على الأقل" ـ «آمل أن تكون الأمور على ما يرام بالنسبة لزوجتك».

«ستكون بخير. أظن أنها ستنتظر حتى الغد».

«والآن،» قال "بْنين"، «أين يوجد الهاتف العمومي؟»

أشار الرجل بقلمه، موجها إياه بشكل مائل، إلى مكان بعيد في الخارج، دون أن يترك عرينه. شرع "بْنين" يسير، حاملا حقيبته بيده. لكن الموظف ناداه. صار القلم موجها حينها إلى الشارع.

«هل ترى ذينك الشابّين اللذين يشحنان تلك الشاحنة؟ إنهما ذاهبان إلى كريمونا الآن. قل لهما إن "بوب هورن" أرسلك إليهما. سيأخذانك».

٣

يمقت بعض الناس ـ وأنا واحد منهم ـ النهايات السعيدة. نشعر بأننا خُدعنا. فالأذى هو العرف الشائع. ولا ينبغي للقدر أن يتعطل. فكرة الثلج التي تتوقف في مسارها على بعد بضعة أقدام عن القرية الخائفة لا تعارض الطبيعة فحسب، بل هي ضد الأخلاق أيضاً. لو كنت أقرأ عن هذا العجوز الدمث، بدل أن أكتب عنه، لفضلت أن أجعله يكتشف، عند وصوله إلى "كريمونا"، أن موعد محاضرته لم يكن محددا في يوم الجمعة ذاك، بل في الجمعة الموالية. في الواقع، لم يصل بسلام فحسب، بل كان في الموعد المحدد للعشاء ـ سلطة فواكه في البداية، ثم حلوى بنكهة النعناع مع وجبة لحم مجهول، ومثلج فانيلا محلى بسائل الشوكلاتة. بعدئذ مباشرة، جلس على كرسي قرب منصة القراءة، متخما بالحلوى. كان يرتدي بدلته السوداء، ويتلاعب بالأوراق الثلاث التي حشاها من قبل في جيب معطفه بطريقة تسمح له بإخراج الورقة المطلوبة من بين الورقتين الأخريين (محبطا بذلك سوء الطالع بفضل الضرورة الرياضية). بينما وقفت أمام المنصة "جوديث كلايد"، المرأة الشقراء الدائمة الشباب الرافلة في ثوب حريري كالماء، بخدّيها الواسعين والمفلطحين المصبوغين بلون وردي جميل مثل حلوى، وعينيها الزاهيتين اللتين تنعمان بخبل أزرق خلف نظارتين بلا إطار، وهي تقدم المحاضر. قالت:

«الليلة، المتحدث في هذه الأمسية ـ وهي بالمناسبة الأمسية الثالثة

من أماسي الجمعة؛ في المرة الفائتة، كما تتذكرون جميعا، استمتعنا كلّنا بالإنصات إلى ما قاله الأستاذ "مور" عن الفلاحة في الصين. يحضر معنا هنا الليلة، وأنا فخورة بأن أقول هذا، ابن هذا البلد، الذي رأى النور في روسيا، الأستاذ ـ وها هي اللحظة الصعبة التي أخشى ـ الأستاذ "بونـ نيين". آمل ألا أكون قد أخطأت الاسم. وهو غنيّ عن التعريف بالطبع، ونحن سعداء باستقباله. أمامنا أمسية طويلة، أمسية طويلة ومثمرة. وأنا متأكدة من أنكم سترغبون جميعا في طرح أسئلة عليه بعد المحاضرة. بالصدفة، قيل لي إن والده كان هو طبيب عائلة دوستويفسكي، وقد سافر كثيراً على ضفتي *الستار الحديدي*. هكذا، لن آخذ أكثر من وقتكم الثمين، ولن أضيف سوى بضع كلمات حول برنامج محاضرتنا خلال الجمعة المقبلة. أنا متأكدة أنكم ستبتهجون بأن هناك مفاجأة كبيرة لنا جميعا. إن محاضرتنا المقبلة هي الشاعرة والكاتبة البارزة الآنسة "ليندا لايسفيلد". وأنتم تعرفون جميعا أنها كتبت الشعر والنثر وبعض القصص القصيرة. فقد رأت الآنسة "لايسفيلد" النور في مدينة نيويورك. شارك أسلافها من جهة والديها معا في الحرب الثورية. كتبت قصيدتها الأولى قبل تخرجها من الجامعة، حيث نشرت العديد من قصائدها ـ ثلاث على الأقل ـ في ملف لمجلة "*ريسبانس*"، بعنوان *مائة أنشودة حب لكاتبات أمريكيات*. وفي سنة ١٩٣٢، حصلت على الجائزة النقدية التي تمنحها..».

لكن "بْنين" لم يكن ينصت إليها. كان انتباهه المأسور مشدودا إلى ذبذبات باهتة ناجمة عن نوبته الأخيرة. دامت بضع نبضات فقط، مع حصول انقباضات إضافية هنا وهناك ـ وأصداء غير ضارة في النهاية ـ ثم تبددت في وقت وجيز ما أن دعته مضيفته الجليلة إلى المنصة، لكن كم صارت الرؤية واضحة طيلة المحاضرة! رأى وسط صف المقاعد الأمامية إحدى عماته البلطيقيات، تتزين باللآلئ والخُرَم والشعَر الأشقر المستعار

الذي كانت تضعه في جميع عروض الفنان المتكلف "خودوتوف" الشهير، الذي هامت به عن بعد قبل أن ينجرف نحو حافة الجنون. إلى جانبها، جلست فتاة كانت معشوقة قلبه فيما مضى، تروح عن نفسها بواسطة ورقة البرنامج، وهي تبتسم بخجل، مطأطئة رأسها ذا الشعر الأسود الناعم. كانت عيناها البنيتان الوديعتان تتفرسان في "بنين" من تحت حاجبين مخمليين. تبعثر العديد من الأصدقاء القدامى، المقتولين منهم والمنسيين والمستقيمين والخالدين غير المنتقَم لهم، في صالة خافتة إنارتها، بين أشخاص حديثي العهد بالعالم، مثل الآنسة "كلايد"، التي عادت بتواضع لتجلس على مقعد في الصف الأمامي. كانت "فانيا بيدنياشكين"، التي أطلق عليها الجيش الأحمر النار سنة ١٩١٩ في مدينة أوديسا لأن والدها كان ليبراليا، تلوّح بيدها مرِحةً إلى زميلها أيام الدراسة من خلف الصالة. وفي ذاك الظرف شبه المعتم، كان الدكتور "بافيل بنين" وزوجته القلقة، كلاهما مشوشا البصر، لكنهما استردا على العموم عافيتهما من ظُلمة تحللهما على نحو رائع، ينظران إلى ابنهما بنفس الشغف والفخر المتوهجين اللذين كانا ينظران بهما إليه في تلك الأمسية من أماسي سنة ١٩١٢، عندما قرأ (الطفل ذو النظارتين الواقف وحيدا على المنصة) قصيدة لبوشكين في مهرجان المدرسة، احتفالا بهزيمة نابوليون.

تبددت الرؤية المشوشة. كانت الآنسة "هيرينغ" العجوز، أستاذة التاريخ المتقاعدة ومؤلفة كتاب "*روسيا تنهض*" (١٩٢٢)، تنحني بين اثنين من الحضور على أذن الآنسة "كلايد"، تطري على خطابها، بينما كانت هناك، خلف تلك السيدة، آنسة عجوز أخرى مرِحة، تمد إلى مجال رؤيتها يديها الذابلتين اللتين تصفقان دون أن يصدر عنهما أي صوت.

الفصل الثاني

١

بلغ جرس كلية "وايندِيل" الشهير نصف عدد رناته الصباحية.

انفصل "لورنس ج. كليمانتس"، وهو باحث بكلية "وايندِيل" درسه الناجح الوحيد هو فلسفة الإيماء، وزوجته "جوان"، عن ابنتهما "إيزابيل"، التي كانت أفضل طالبات والدها. تزوجت "إيزابيل" خلال سنة تخرجها من كلية "وايندِيل"، بعد أن حصلت على شهادة خولت لها أن تشغل منصب مهندسة بولاية غربية بعيدة.

كانت الأجراس ترنّ رنينا موسيقيا تحت أشعة الشمس الفضية. كانت مدينة "وايندِيل" الصغيرة ـ ذات الصباغة البيضاء والنقوش العُضْنية السوداء ـ تظهر، عبر مشهد النافذة، كأنها رسم طفلٍ ذو مشهد بدائي خالٍ من أي عمق خيالي، ممتدة إلى التلال الرمادية الداكنة. كل شيء يكسوه صقيع بلوري على نحو جميل.. كانت الأجزاء اللامعة من السيارات المتوقفة تتلألأ تحت أشعة الشمس. كان كلب الآنسة "دينغوول" الاسكتلندي، وهو من فصيلة أسطوانية الخيشوم شبيهة بالخنزير البري، قد بدأ جولاته صعودا ونزولا، ذهابا وإيابا بين شارعي "وارين" و"سبيلمان". لكن لا المحيط، ولا المناظر الطبيعية أو رنين الأجراس كان قادرا على تلطيف الجو. إذ ستدخل السنة الجامعية، في

غضون أسبوعين، وبعد وقفة تأمل، مرحلتها الأكثر برودة، تلك التي تتزامن مع الدورة الربيعية، حيث يشعر آل "كليمانتس" بالكآبة والخوف والعزلة في بيتهما العتيق والأنيق المشرَع على التيارات الهوائية، والذي يبدو لهما الآن مثل جلد مترهل أو ملابس صارت عريضة عن جسم أبله فقد فجأة ثلث وزنه. في جميع الأحوال، كانت "إيزابيل" شابة، غامضة جداً، حيث لم يعرفا فعلا أي شيء عن أقارب زوجها، أكثر من تلك النخبة من الوجوه المرزبانية التي حضرت حفل الزفاف داخل صالة مؤجّرة رفقة العروس المتبجحة التي تصير تائهة تماماً كلما فقدت نظارتها.

كان رنين الأجراس، في عهد الإدارة المتحمسة للدكتور "روبرت تريبلر"، العضو النشيط في شعبة الموسيقى، ما يزال يتردد بقوة في السماء الملائكية. على مائدة فطور متقشف يتكون من عصير برتقال وليمون حامض، كان "لورنس"، الرجل الأشقر والأصلع والسمين على نحو كريه، ينتقد رئيس شعبة اللغة الفرنسية، وهو واحد من الضيوف الذين دعتهم "جوان" بغية اللقاء بالبروفيسور "إنتويستل" من جامعة "غولدوين" في بيتهما ذلك المساء. استشاط غضبا:

«لماذا بحق السماء دعوتِ "بلورينج"، تلك المومياء المضجرة، التي تبدو كأنها عمود جصّ في مجال التربية؟»

«أحبّ "آن بلورينج"»، قالت "جوان"، مشددة على قولها وحبّها بإيماءات رأسها.

«إنها قطة عجوز بذيئة!» صرخ "لورنس".

«هرة عجوز مثيرة للشفقة!» دمدمت "جوان".

حينها كفّ الدكتور "تريبلر" عن الصراخ، لينطلق رنين هاتف المدخل مدوياً.

من الناحية التقنية، مازال فن إدماج المكالمات الهاتفية في النص من

طرف السارد، يتخلف عن فن نقل الحوارات الجارية بين غرفة وأخرى، وبين نافذة وأخرى في زقاق أزرق ضيق بمدينة قديمة حيث الماء ثمين جداً، وحيث بؤس الحمير، والسُّجُد معروضة للبيع، والمآذن، والأجانب والبطيخ، وأصداء الصباح المدوّية. عندما سارعت "جوان"، بمشيتها الرشيقة وحركة قدميها الطويلتين، إلى الهاتف قبل أن يتوقف رنينه القاهر، وقالت "آلو" (وحاجباها منتصبان وعيناها جاحظتان في الفراغ)، استقبلها سكونٌ أجوف. لم تكن تسمع سوى أنفاس منتظمة لأحدهم. بعد ذلك، جاء الصوت بنبرة غريبة متأنية:

«لحظة، من فضلك» ـ قال ذلك على نحو عرَضي تماماً، ثم أخذ يتنفس، وربما تنحنح، أو تنهد بالأحرى تنهداً مصحوبا بخشخشة قلْب أوراق مذكرة صغيرة.

«آلو!» كررت.

«هل أنت السيدة "فاير"؟» قال الصوت بارتياب.

«لا»، قالت "جوان"، ثم وضعت سماعة الهاتف. «علاوة على ذلك»، استرسلت، وهي عائدة إلى المطبخ، مخاطبة زوجها المنكب على تذوق لحم الخنزير المقدد الذي أعدّته لنفسها، «لا يمكنك أن تنكر أن "جاك كوكريل" يعتبر "بلورينج" إداريا من الطراز الأول».

«من كان المتصل عبر الهاتف؟»

«شخص ما يريد السيد "فويّر" أو "فاير". اسمعني، ليتك تعمّدت إهمال كل ما أراد "جورج"..». [الدكتور "أ. ج. هيلم" هو طبيب عائلتهما].

«يا "جوان"»، قال "لورنس" الذي شعر بحال أفضل بعد تلك الشريحة المتلألئة، «"جوان"، يا عزيزتي، أنت مدركة، أليس كذلك، أنك أخبرت "مارغريت ثاير" البارحة أنك تبحثين عمن يستأجر غرفة؟»

«آه، يا إلهي»، قالت "جوان" ـ ثم رنّ الهاتف ثانية.

«من الواضح»، قال الصوت، مستأنفا المكالمة بارتياح، «أنني أخطأت في نطق اسم من أعطاني المعلومات. هل أتحدث مع السيدة "كليمانت"؟»

«أجل، هذه السيدة "كليمانتس"»، قالت "جوان".

«هنا البورفيسور..». تلا ذلك انفجار صغير لكلمات سخيفة. «ألقي دروسا في اللغة الروسية. السيدة "فاير" التي تقوم الآن بعمل جزئي في المكتبة..».

«أجل ـ السيدة "ثاير"، أعرف. حسناً، هل تريد أن تعاين الغرفة؟»

وافق على ذلك. هل بمقدوره أن يأتي قصد معاينتها بعد نحو نصف ساعة؟ نعم، ستكون هي في البيت. قطعت الخط بجفاء على المتحدث.

«من كان المتحدث، هذه المرة؟» سأل زوجها، وهو ينظر إلى الخلف، ويده المنمشة البدينة تمسك بدرابزين الدرج، متجها للاطمئنان على مكتب عمله في الطابق الفوقي.

«نوع أشبه بكرة "بينغ بونغ" متشققة. إنه روسي».

«يا إلهي، إنه "بنين"! صرخ "لورنس". «أعرفه جيّدا، إنه الدبوس المزخرف. حسناً، إنني أرفض رفضا قاطعا أن يستقر ذلك الشخص الغريب ببيتي».

صعد الأدراج بخطوات متثاقلة. لكنها صاحت به قائلة:

«"لور"، هل انتهيت من كتابة تلك المقالة ليلة أمس؟»

«تقريباً». كان قد انعطف عند زاوية الأدراج. سمعت صرير يده على الدرابزين، قبل أن تنتهي إلى مسامعها نقراته عليه. «سأنهيها اليوم. لكن يجب أن أحضر ذلك الامتحان اللعين في مادة "ت. م»..

يحيل الحرفان على "تطور المعنى"، وهو أهم درس من بين دروسه

كلها (إذ يحضره اثنا عشر طالبا، ولا يلوح ألا أحد منهم سيصبح من مريديه في الأفق البعيد)، حيث كان يستهله، وينبغي أن ينهيه بهذه العبارة التي يريدها أن تصبح مقولة تُقتبَس ذات يوم: «تطور المعنى هو، بمعنى ما، تطور اللامعنى».

٢

بعد نصف ساعة، ألقت "جوان" نظرة على الصبار المحتضر عبر نافذة الشرفة، ولمحت رجلا يرتدي معطفا شتويا، حاسر الرأس، ذا جمجمة تبدو أشبه بكرة نحاسية صقيلة، وهو يدق بحماس جرس الباب الخارجي لبيت الجيران الآجُرّي الأنيق. كان الكلب الاسكتلندي الطاعن في السنّ يقف بجانبه، مخلصا في تقليد وقفته حد التفاني. ظهرت الآنسة "دينغوال" تحمل مكنسة، فسحت المجال لكي يدخل الكلب الجليل البطيء، ثم وجهت "بْنين" نحو البيت الخشبي الذي يسكنه آل "كليمانتس".

استقر "تيموفي بْنين" بغرفة الجلوس، وضع ساقا فوق الثانية على الطريقة الأمريكية، ثم شرع يسرد بعض التفاصيل غير الضرورية. باختصار، هي تفاصيل سيرته التي تشبه قوقعة جوز الهند. قال إنه ولد في "سانت بيترسبورغ" سنة ١٨٩٨. مات والداه بسبب التيفوس سنة ١٩١٧. غادر كييف سنة ١٩١٨. التحق بالجيش الأبيض لمدة خمسة أشهر، حيث اشتغل في البداية "عامل هاتف في ساحة الحرب"، وبعد ذلك بمكتب المعلومات العسكرية. فرّ من شبه جزيرة القرم التي احتلها الجيش الأحمر إلى القسطنطينية سنة ١٩١٩. أكمل دراساته الجامعية...

«لنقل إنني كنت هناك، عندما كنت طفلة، خلال السنة نفسها تماما»، قالت "جوان" بسرور. «سافر والدي إلى تركيا في مهمة

حكومية، وأخذنا معه. ربما كنا التقينا! أذكر معنى كلمة "ماء". وكانت هناك حديقة ورود..».

«الماء في اللغة التركية هو "سو"»، قال "بْنين"، الذي أصبح لغويا بالضرورة، ثم استأنف سرد أحداث ماضيه الآسر: أكمل دراساته الجامعية في براغ. ارتبط بمؤسسات علمية مختلفة. بعد ذلك، «حسنا لأختصر هذه الحكاية الطويلة: سكنت في باريس ابتداء من سنة ١٩٢٥، وهاجرت من فرنسا في بداية حرب هتلر. وها أنا هنا. ها أنا مواطن أمريكي. أدرس اللغة الروسية ومواد من صنفها في معهد "فاندال". أحصل على جميع المعلومات من الدكتور "هاغن"، رئيس شعبة اللغة الألمانية، أو من الحي الجامعي التابع للمعهد المخصص للأساتذة العزّاب».

ألم يكن مرتاحا هناك؟

«هناك أشخاص كثيرون»، قال "بْنين". «أشخاص فضوليون. فيما صارت الآن الحميمية الخاصة ضرورة مطلقة بالنسبة لي». سعل في يده، فتأوّه فجأة بصوت غائر (ذكّر "جوان" بطريقة ما بالمحترف "دون كوساك" الذي التقت به ذات مرة)، ثم قال فجأة: «يجب أن أنبه إلى أنني سأخلع جميع أسناني. إنها عملية مثيرة للاشمئزاز».

«حسنا، تعالَ إلى الطابق العلوي»، قالت "جوان" بمرح.

تفحص "بْنين" غرفة "إيزابيل" ذات الجدران الوردية والحواشي البيضاء. فجأة، شرعت ندف الثلج تتساقط، رغم أن السماء كانت صافية متلألئة. كان سقوطها المتلألئ البطيء ينعكس على المرآة الصامتة. عاين "بْنين" لوحة "هاوكر" *"الفتاة والقط"* المعلقة فوق السرير، ولوحة "هانت" *"الطفلة المتأخرة"* الموضوعة فوق رفّ الكتب. ثم أخرج يده من النافذة على مسافة صغيرة.

«هل الحرارة متماثلة؟»

هرعت "جوان" نحو المدفأة الكهربائية.

«إنها تصدر الحرارة»، ردّت بحسْم.

«أنا أسأل عما إذا كانت هناك تيارات هوائية؟»

«آه، أجل. ستنعم بهواء كثير هنا. ها هو الحمام. إنه صغير، لكنه لك كلّه».

«لا دوش؟» سأل "بْنين"، وهو ينظر إلى الأعلى. «ربما يكون الأمر أفضل بدونه. ذات مرة، كسر صديقي "شاتو" البروفيسور بجامعة كولومبيا، ساقه كسرا مزدوجا. عليّ الآن أن أفكر. ما هو السعر الذي تقترحينه؟ أسأل، لأنني لن أدفع أكثر من دولار في اليوم، دون أن يتضمن ذلك الأكل طبعا».

«حسنا»، قالت "جوان" بابتسامتها المعهودة المرحة والسريعة.

في الظهيرة ذاتها، حمل أحد طلبة "بْنين"، وهو "تشارلز ماكبيث" («أعتقد من خلال إنشاءاته أنه رجل مجنون»، كما كان يقول "بْنين")، أمتعة "بْنين" بهِمّة في سيارة لونها أرجواني غامق على نحو مَرَضي، بلا رفارف على الجانب الأيسر. وبعد عشاء مبكر في "دي إيغ أند وي"[1]، ذاك المطعم الصغير الذي دُشِّن مؤخرا دون أن يحقق نجاحا كبيراً، والذي يرتاده "بْنين" من باب التعاطف المحض مع الفشل، أقبل صاحبنا على المهمّة الممتعة الرامية إلى "أبْنَنَة" حيّه الجديد. ورغم أن مراهَقة "إيزابيل" تبخرت مع رحيلها، إن لم تكن استأصلتها والدتها، إلا أن آثار طفولة الفتاة سُمِح لها بأن تظل قائمة بطريقة ما. وقبل أن يعثر على الوضعيات الأنسب لمصباحه الكهربائي المتطور، ولآلته الكاتبة ذات الحروف الروسية، الموضوعة في تابوت مكسور مجبَّر بشريط لاصق،

---

(١) The Egg and We (البيضة ونحن) (هامش المترجم).

وخمسة أزواج أحذية أنيقة وصغيرة على نحو غريب مع قوالبها العشرة موضوعة داخلها، وآلته الخاصة بطحن وغلي القهوة التي لم تكن أفضل من تلك التي انفجرت العام الماضي، ومنبِّهَيْن يقطعان الأشواط ذاتها كل ليلة، وأربعة وسبعين كتابا مستعارا من المكتبة، وخصوصا بعض المجلات الروسية القديمة المحزومة ببعضها، وضع "بْنين" بكياسة على كرسيّ قريب من الأدراج نصف دزينة من كتب بائسة مثل ***طيور بالبيت وأيام سعيدة في هولندا وقاموسي الأول*** (مع أكثر من ٦٠٠ رسم توضيحي تصور حدائق الحيوانات والجسد البشري والمزارع والنيران ـ اختيرت جميعها بطريقة علمية)، وكذا خرزة خشبية وحيدة ذات فجوة في الوسط.

أعلنت "جوان"، التي تستعمل عبارة "مثير للشفقة" في غالب الأحيان، أنها ستدعو ذلك العالم المثير للشفقة لتناول شراب رفقة ضيوفهما، مما جعل زوجها يردّ بأنه هو أيضاً عالم مثير للشفقة، وأنه سيذهب لمشاهدة فيلم إذا نفذت وعيدها. غير أن "بْنين" رفض دعوتها، قائلاً ببساطة إنه أقلع نهائيا عن شرب الكحول. وصل ثلاثة أزواج و"إنتويستل" في نحو الساعة التاسعة. وفي الساعة العاشرة، كان الحفل قد بلغ ذروته، عندما لمحت "جوان" فجأة، فيما كانت تحدث الجميلة "غوين كوكريل"، "بْنين" مرتديا سترة خضراء، وهو واقف بالبوابة المؤدية إلى الأدراج، يرفع عاليا قدحا ممتلئا، حتى تتمكن من رؤيته. تقدمت إليه ـ وفي الوقت ذاته كاد زوجها يصطدم بها، وهو يهرول عبر الحجرة لكي يوقف ويخنق ويمنع "جاك كوكريل"، رئيس شعبة اللغة الإنجليزية، الذي كان يدير ظهره لـ"بْنين"، فيما كان منكبا على تسلية السيدة "هاغن" والسيدة "بلورينج" بحركاته المعروفة، بوصفه أحد أكبر، إن لم يكن أعظم مقلّدي "بْنين" في الجامعة. وفي الوقت نفسه، كان "بْنين" يخاطب "جوان قائلاً: «صفحة مرآة الحمام غير صافية، وهناك مشاكل أخرى. إذ ينبعث البرد من الأرضية والجدران..». لكن

الدكتور "هاغن"، ذاك العجوز المرح ذا القدّ المربوع، لمح "بْنين" هو الآخر، وحيّاه بسرور. بعد ذلك، تعرّف "بْنين"، الذي عوّض قدحه بكأس نبيذ، على البروفيسور "إنتويستل".

«Zdrastvuyte kak pozhivaete horosho spasibo» (أهلا، كيف الحال؟ شكرا جزيلا)، استظهر "إنتويستل"، مقلدا النبرة الروسية بإتقان، حيث بدا شبيها فعلا بعقيد قيصري ودود بلباس مدني. ثم تابع كلامه، وعيناه تطرفان: «ذات ليلة في باريس، في حانة "أوغولوك"، أقنعت جماعة من المعربدين الروس وأنا أردد هذه العبارة بأنني ابن بلدهم، متظاهرا بأنني أمريكي، كما تعلم».

«في غضون سنتين أو ثلاث»، قال "بْنين" الذي لم يلحق بالحافلة الأولى، لكنه ركب الموالية، «سيحسبونني أمريكيا». انفجر الجميع بالضحك، إلا البروفيسور "بلورينج".

«سنجلب لك سخانا كهربائيا»، أسرّت "جوان"، وهي تقدم له بعض الزيتون.

«أي نوع؟» سأل "بْنين" بارتياب.

«سننظر في الأمر. هل من شكاوى أخرى؟»

«نعم، هناك أصوات مزعجة»، قال "بْنين". «أسمع جميع الأصوات المنبعثة من الطابق السفلي، لكن الآن ليس المكان المناسب لمناقشة الأمر، كما أظن».

٣

بدأ الضيوف يغادرون. صعد "بْنين" الأدراج بتؤدة، حاملا كأسا نظيفة في يده. كان "إنتويستل" ومضيفه آخر من خرج إلى الشرفة. كانت ندف الثلج البليلة تهمي في الليل البهيم.

قال "إنتويستل" : «إنه لمن دواعي الأسف أننا لا نستطيع أن نغريك بالقدوم إلى "غولدوين" لما لذلك من نفع. عندنا "شفارز" والعجوز "كرايتس"، وهما من بين المعجبين الكبار بك. نمتلك بحيرة حقيقية. عندنا كل شيء. بل إن البروفيسور "بْنين" واحد من طاقمنا».

«أعرف، أعرف»، قال "كليمانتس"، «لكن هذه الاقتراحات التي أتوصل بها على الدوام تأتي متأخرة جداً. أخطط للتقاعد في وقت قريب، وإلى أن يحين ذلك، أفضل أن أبقى داخل حفرتي المتعفنة، لكن المألوفة». ثم سأل، وهو يخفض صوته: «كيف وجدت السيد "بلورينج"؟»

«آه، لقد لفت انتباهي كأنه رفيق عزيز. لكن يجب أن أقول، بطريقة أو بأخرى، إنه ذكرني برئيس شعبة اللغة الفرنسية، ذلك الوجه الأسطوري ربما، الذي ظنّ أن "شاتوبريان" كان طباخا شهيرا».

«احذر»، قال "كليمانتس". «تلك القصة قيلت أول الأمر عن "بلورينج"، وهي صحيحة».

٤

في الصباح التالي، سار "بْنين" البطل إلى المدينة، حيث كان يمشي متوكئاً على عكّاز على الطريقة الأوربية (صعودا ونزولا)، ويتفرس في أشياء مختلفة بجهد فلسفيٍّ، ساعيا إلى أن يتخيّل ما ستكون عليه، عندما سيراها مرّة ثانية بعد أن تعيش محنة ما، ثم أن يتذكر ما كان عليه إدراكها على غير حقيقة توقعها. بعد ساعتين، كان عائداً يحثّ الخطى، يتوكأ على عكّازه، ولا ينظر إلى أي شيء. كان وجع حارق يتدفق ويحلّ شيئاً فشيئاً محلّ برودة الخدر وتخشّبه داخل فَمِه الذائب، لكن شبه الميّت،

الذي يعاني آلاما قاسية. بعد ذلك، وطوال بضعة أيام، صار حزينا على جزء حميمي من ذاته. إذ اندهش عندما أدرك كم كان مولعا بأسنانه. كان لسانه، فقمته الناعمة الضخمة، يتخبط وينزلق بسعادة بالغة بين هذه الصخور المألوفة، راصدا تقاطيع مملكة مقصوفة، لكنها مازالت آمنة، متنقلا بين كهف وغار، متسلقا هذا الجبل، مقتحما ذاك الشِّعْب، مكتشفا طحلبا بحريا ساحرا داخل الصدع القديم ذاته؛ لكن لم يعد هناك الآن أي معلم، وكل ما كان موجودا هو جرح داكن غائر، أرض مجهولة من لثّات يحول الخوف والنفور دون استقصائها. عندما أقحم طقم الأسنان في فمه، بدا الأمر كأن جمجمة أحفورية بالية كُيِّفت داخل فكّين عريضين لغريب بالغ.

كما كان مخططا، لم يلق أي محاضرات، ولم يحضر الامتحانات التي سهرت عليها "ميلر" نيابة عنه. مضت عشرة أيام ـ ثم بدأ فجأة يستمتع بطقمه الجديد. كان ذلك اكتشافا، إشراقا، ونكهة قوية لأمريكا إنسانية ومرمرية مؤثرة. في الليل، كان يضع كنزه في كأس خاصة مليئة بسائل خاص، حيث يظل مبتسما، ووورديا، وبراقا مثل لؤلؤة، وخالصا مثل تشكيلة نباتية جميلة في أعماق البحر. أما الآن، فيبدو أن عمله الكبير حول روسيا القديمة، ذلك الحلم الجميل الذي يمزج بين الفولكلور والشعر والتاريخ الاجتماعي والتاريخ الصغير، والذي ظل "بْنين" مولعا بمداعبته خلال عشر سنوات أو أكثر، صار سهل المنال أخيراً، بعد أن تلاشت آلام الرأس، وصار ذلك المدرّج الجديد ذو الواجهات البلاستيكية شبه الشفافة يدلّ، كما كان، على مسرح وتمثيل معيّنين. وفي مستهل الدورة الربيعية، لم يتمكن طلبة فصله من ملاحظة ذلك التغير الجذري، عندما جلس ينقر بغنج بممحاة قلم الرصاص على تلك القواطع والأنياب المتماثلة، نعم المتماثلة جداً، بينما يترجم طالب جملةً من كتاب *"الروسية الأولية"* للبروفيسور العجوز ذي الوجه الأحمر

"أوليفر برادستريت مان" (الذي كتبه في الواقع من أوله إلى آخره كادحان هزيلان هما "جون" و"أولغا كروتكي"، وكلاهما صارا اليوم في عداد الموتى)، مثل: «يلعب الولد مع مربّيته وعمّه». ذات مساء، باغت "لورنس كليمانتس"، الذي كان يحث الخطى في الأدراج، مهرولا نحو مكتبه، وشرع يبيّن جمال الطقم بهتافات انتصار مفككة، والسهولة التي يُنْزَع بها ويوضع مجددا، ثم حرّض "لورنس"، المندهش لكن الودود، على أن يقتلع أسنانه كلّها صباح اليوم الموالي.

«ستصبح رجلا مختلفاً مثلي»، هتف "بْنين".

لا بد من القول إن "لورنس" و"جوان" سرعان ما بدآ بالأحرى يعجبان بـ"بْنين" لقيمته "البْنينية" الفريدة، رغم أنه بدا روحا شريرة أكثر منه مستأجرا. لقد حقق إنجازا مصيريا عندما أصلح السخان، لكنه قال بحزن شديد إن الأمر لا يكتسي أي أهمية، لأن الربيع صار على الأبواب الآن. كانت طريقة وقوفه أعلى الدرج مزعجة، وهو يكد في فرْك ملابسه هناك، والفرشاة تحتكّ بالأزرار، طيلة خمس دقائق على الأقل كل صباح سعيد. كان يحبك مؤامرة شغوفة ضد غسّالة "جوان". إذ رغم أنه ممنوع من الاقتراب منها، إلا أنهما ضبطاه ينتهك حرمتها مرات عديدة. كان يلقي فيها، بعد أن يتخلى عن اللباقة والحذر، بكل ما يقع بين يديه، بمنديله، ومناشف المطبخ، وكومة سراويل قصيرة وقمصان يهرّبها من غرفته، فقط من أجل أن يُمتّع ناظره، عبر تلك الكوة بما بدا أشبه بلفّات لا نهائية لدلافين أصابها الدوار. ذات أحد، عندما تأكد أنه صار وحيدا، لم يقوَ، بدافع فضول علمي صرف، على مقاومة رغبته في أن يمدّ الآلة الجبّارة بزوج حذاء قماشي ذي نعلٍ مطاطي ملطخ بالوحل والعشب كي تلعب به. شرع الحذاء يدور حول نفسه، مصدرا صوتا نشازا مروعا، يشبه جيشا يعبر جسرا، كان عائداً بدون نعال، ثم خرجت "جوان" من غرفة الجلوس خلف المخزن، وقالت بحزن: «من جديد، يا

"تيموفي"؟» لكنها صفحت عنه، وأحبت أن تجالسه على مائدة المطبخ، كانا معا يكسران الجوز أو يشربان الشاي. كان يحدث أن تلمح "ديسديمونا"، تلك الخادمة الزنجية العجوز التي تأتي أيام الجمعة، والتي كان الرب يردد معها يوميا («"ديسديمونا"»، سيقول لي الرب، «إن ذلك الرجل "جورج" ليس طيبا»)، "بْنين" وهو ينعم بالنور الأرجواني الخارق المنبعث من مصباحه الشمسي، عاريا إلا من سروال قصير ونظارة سوداء وصليب كاثوليكي إغريقي مبهر وسط صدره العريض، صارت بعد ذلك تعتبره قدّيسا. اغتاظ "لورنس"، وهو يصعد ذات يوم إلى مكتبه، أو عرينه السري والمقدس المنحوت ببراعة داخل العُلّيّة، عندما اكتشف الأنوار المبهجة مشتعلة، بينما "بْنين" ذو القفا السمين جاثم على ساقيه النحيلتين، يتمعن بهدوء في زاوية: «معذرة، إنني أسرح فقط»، قال المتطفل النبيل (الذي تغتني لغته الإنجليزية أكثر فأكثر بسرعة مدهشة)، عندما لمحه في الخلف. غير أن إشارة عَرَضية قادت، في ذلك الصباح، إلى كاتب نادر، وتلميح عابر ورد ضمنيا في خضمّ فكرة ما، ومغامرة بحرية جسورة لاحت في الأفق، تدريجيا إلى وئام ذهني لطيف بين الرجلين اللذين كانا لا يرتاحان، في الواقع، إلا داخل عالمهما الثقافي الطبيعي الدافئ. إذ ثمة فئة بشرية "جامدة" وفئة بشرية "صامتة"، حيث ينتمي "كليمانتس" و"بْنين" إلى النوع الثاني. ومن ذلك الحين فصاعدا، سيتسامران، عندما يلتقيان ويتوقفان عند العتبات، أو أسفل الأدراج، أو على دُرْجَين متفاوتين (ينزل الأول ويصعد الثاني، ويتبادلان الطول بينهما، ثم يلتفتان إلى بعضهما)، أو عندما يسيران في اتجاهين متعاكسين داخل غرفة لم تكن تمثل لهما في تلك اللحظة سوى *فضاء مؤثث*، كما يقول "بْنين". وسرعان ما تبين أن "تيموفي" كان موسوعة حقيقية في أشكال التعبير الروسية الخاصة بالاستهجان والترنح، التي صنفها في جدول، وأصبح بمقدوره أن يغني

ملفات "لورنس" حول التأويل الفلسفي للإيماءات التصويرية والتجريدية، الوطنية والبيئية. كان الفضول يثيرني لأرى الرجلين يناقشان أسطورة ما أو ديانة، حيث ينشرح "بْنين" مثل خابية أمفورة، ويماحكه "لورنس" بحركة يده. بل صور "لورنس" فيلما عما يعتبره "تيموفي" أصول "الإيماءات" الروسية، بينما يشرح "بْنين"، الذي كان يرتدي قميص "بولو" وترتسم ابتسامة "جوكاندا" على شفتيه، الحركات التي تسند بعض الأفعال في اللغة الروسية ـ التي تشير إلى حركات اليدين ـ مثل "mahnut" و"vsplesnut" و"razvesti": تشير الكلمة الأولى إلى اليد الواحدة ذات الحركة المرتخية نحو الأسفل وتعني هجرا شاقا، وتدل الكلمة الثانية على صفق اليدين بشكل مفاجئ علامة على أسى محيّر، بينما تحيل الكلمة الثالثة على انفصال اليدين عن بعضهما دلالة على سلبية مزمنة. وفي الختام، يبيّن "بْنين"، بتأنٍّ شديد، من خلال الإيماءة العالمية "للأصبع المرتجف"، كيف تُحَوِّلُ نصفُ دورةٍ رشيقة رشاقة حركة المعصم في لعبة المسايفة الرمزَ الروسي الجليل الدالَّ على الإشارة إلى الأعلى، والذي يفيد أن «الحَكَم الذي في السماء يراك!»، إلى صورة جوية ألمانية للعصا، مفادها أن «شيئاً ما سيأتيك!» غير أن "بْنين" يضيف بموضوعية أن «الشرطة الميتافيزيقية الروسية قد تحسن أيضاً كسر العظام الجسدية».

بعد أن اعتذر "بْنين" عن "مظهره المهمل"، عرض الفيلم على جماعة من الطلبة ـ ثم أعلنت "بيتي بليس"، وهي خريجة درس الأدب المقارن، الذي كان يحضره "بْنين" لمساعدة الدكتور "هاغن"، أن "تيموفي بافلوفيتش" بدا تماماً مثل بوذا في فيلم شرقي شاهدته في الشعبة الآسيوية. كانت "بيتي بليس"، هذه الفتاة الأمومية المكتنزة ذات التسعة والعشرين صيفا، شوكة ناعمة في جلد "بْنين" الآخذ في الشيخوخة. قبل عشرة أعوام، جنحت لقصة حب جميلة مع عاشق نبذها

من أجل مومس تافهة. وبعد ذلك، انخرطت في علاقة طويلة ومعقدة على نحو ميؤوس منها، علاقة تشيخوفية أكثر منها دوستويفسكية، مع معتوه تزوج بعدها بممرضته الجميلة والوضيعة. كان "بُنين" المسكين مترددا. من حيث المبدأ، لم يكن الزواج مستبعدا. فمع مجده الضّرسي الجديد، ذهب أبعد من ذلك، ذات حصة، بعد أن غادر جميع الطلبة، حيث وضع يدها في راحته وراح يداعبها، وهما جالسان معا يناقشان قصيدة "تورجينيف" النثرية: «كم كان الورد جميلا وناضرا». بالكاد أنهت القراءة، كان صدرها يعلو بالتنهدات، بينما يدها المحضونة ترتعش. قال "بُنين"، وهو يضع يده مجددا على الطاولة، إن «المغنية القبيحة "بولين فياردو"، التي عشقها "تورجينيف"، جعلت هذا الأخير يؤدي دور الأحمق في التمثيليات واللوحات الحية. قالت السيدة "بوشكين": إنك تزعجني بأبياتك، يا "بوشكين" ـ وفي سن متقدمة ـ الأمر يدعو للتفكير فقط! ـ أحبت زوجة هذا العظيم، تولستوي العظيم، أكثر منه، موسيقيا غبيا ذا أنف أحمر!»

لم يكن "بُنين" يعترض على الآنسة "بليس". تخيّلها بوضوح شفاف، وهو يحاول أن يتصور شيخوخة صافية على محياها، تأتيه بردائه الصوفي أو تملأ قلمه بالمداد من جديد. أحبّها حقا ـ لكن قلبه كان يخفق لامرأة أخرى.

لا يستطيع القط الاختباء في سلّة، كما كان "بُنين" يقول. ولأشرح الهياج الدنيء لصاحبي المسكين ذات مساء في منتصف الدورة الربيعية ـ عندما تلقى برقية وشرع يذرع غرفته جيئة وذهابا طيلة أربعين دقيقة ـ لا بد من التصريح أن "بُنين" لم يكن أعزب على الدوام. كان الزوجان "كليمانتس" يلعبان الشطرنج الصيني على ضوء نار هادئة، عندما نزل "بُنين" الأدراج محدثا قعقعة، بعدما انزلق وكاد يسقط على أقدامهما مثلما يفعل متضرع في مدينة قديمة مليئة بالظلم، لكنه استعاد توازنه ـ ليكسر المِسْعَر وملقط النار.

قال لاهثا: «أتيت لأخبركما، أو على الأصح، لأطلب منكما ما إذا كان بإمكاني أن أستقبل زائرة يوم السبت ـ خلال النهار بالطبع. إنها زوجتي السابقة، الدكتورة "ليزا ويند" حاليا ـ ربما سمعتما عنها في دوائر الطب العقلي».

٥

هناك بعض النساء المحبوبات اللواتي تؤثر عيونهن فينا، عبر مزيج عرَضي بين الألق والمظهر، لا بطريقة مباشرة، ولا لحظة إدراكٍ خجول، بل أثناء انفجار شرارة ضوئية متأخرة ومتراكمة، عندما يغيب الشخص المتحجر القلب، ويقيم الألم السحري، وتنتصب العدسات والمصابيح في الظلام. مهما كانت عينا "ليزا بُنين"، أو "ويند" الآن، بدا أنهما لا تكشفان عن جوهرهما ومائهما الماسي النفيس إلا عندما تستحضرهما في ذهنك. حينها، تشظت شعلة زبرجد بيضاء باهرة وندية، وتهلّلت كأنّ لطخة شمس وبحر سقطت بين جفنيك. كانت عيناها فعلا بزرقة فاتحة شفافة، تعلوهما أهداب سود ومآقٍ متورّدة وضاءة، وهما ممدودتان قليلاً نحو الصدغ حيث نهايةُ خطوطٍ صغيرةٍ ناعمةٍ. شعرها البنّي الداكن منساب فوق جبين لامع ووجه وردي ذي بشرة زنبقية. وعلى شفتيها أحمر شفاه خفيف جداً. ليس هناك عيب يشوب جمالها الناضج والحيّ والجذاب والطبيعي على الخصوص، عدا بعض السمك عند الكاحل والمعصم.

كان "بُنين"، الباحث الشاب الصاعد حينها، وهي، الحورية التي حافظت على شخصيتها ذاتها رغم أنها كانت أروع مما هي عليه اليوم، قد التقيا في نحو سنة ١٩٢٥ بباريس. كان صاحب لحية كستنائية متناثرة (أما اليوم، فلا ينبت منها إلا زغيبات بيضاء إذا لم يحلق وجهه ـ مسكين

"بْنين"، مسكين الشيهم الأمهق!)، حيث كان هذا النبت المتقشف المشطور، الذي يعلوه أنف ضخم لامع وعينان بريئتان، يلخص ببراعة بنية روسيا الثقافية القديمة. كان زاده من الحياة وظيفة صغيرة بمعهد "أكساكوف" بشارع "فير ـ فير"، وعملاً ثانياً بمكتبة "سول باغروف" الروسية بشارع "غريسي". بينما كانت "ليزا بوغوليبوف"، وهي طالبة في كلية الطب قد بلغت سنتها العشرين حينها، فاتنة جدّاً بسترتها الحريرية السوداء وتنورتها الأنيقة. كانت قد شرعت تعمل في مصحة "مودون" تحت إدارة تلك السيدة العجوز المتميزة والرائعة، الدكتورة "روزيتا ستون"، التي كانت تعتبر إحدى أكثر الأطباء تجديدا في مجال الطب العقلي وقتها. زد على ذلك، كانت "ليزا" تقرض الشعر ـ خاصة على وزن "الأنابيست"[1]. في الواقع، رآها "بْنين" أول مرة في إحدى تلك الأمسيات الأدبية حيث يغنّي الشعراء المهاجرون الشباب، الذين غادروا روسيا في مراهقتهم الشاحبة والشقية، قصائد حنين مهداة إلى بلد قد لا يعني لهم أكثر من دمية حزينة منمقة، وحلية وجدت في العلية، وكرة بلورية تحركها لتفرز عاصفة ثلجية ناعمة مضيئة وسط شجرة تنّوب صغيرة، وكوخ مصنوع من الورق المعجّن. كتب لها "بْنين" رسالة غرام رائعة ـ هي الآن في مأمن بين ثنايا مجموعة خاصة ـ حيث قرأتها وهي تبكي إشفاقا على نفسها، بينما تتلقى العلاج من آثار محاولة انتحار باستعمال الأدوية نتيجة علاقة سخيفة، بالأحرى مع أديب هو اليوم... لكن أمره لا يهم. قال لها خمسة محللين وأصدقاء حميميون كلهم قالوا: «"بْنين ـ وصبي بعد ذلك».

ما عدا انتقالها للعيش رفقة "بْنين" في شقته الحقيرة، لم يكد الزواج

---

(١) الأنابيست تفعيلة يونانية الأصل تتألف من مقطعين شعريين قصيرين، يليهما مقطع طويل.

يغيّر أي شيء في نمط حياتهما. إذ واصل دراساته السلافية، بينما تابعت هي هذياناتها في مجال علم النفس وإبداعاتها الغنائية، واضعة بُيوضها في كل مكان مثل أرنب عيد الفصح، وفي قصائدها الخضراء والبنفسجية ـ حول الطفل الذي أرادت أن تحبل به، والعشاق الذين رغبت فيهم، وسانت بيترسبورغ (مجاملة لـ"أنا أخماتوفا") ـ حيث وظفت كل نغم، وكل صورة، وكل استعارة من قبْل في قوافي أخرى. وقد اختار أحد المعجبين بها، وهو بنكي وراع أمين للفنون، من بين الروس المقيمين بباريس ناقدا أدبيا مؤثرا، هو "جورجيك أورانسكي"؛ من أجل عشاء بالشامبانيا بمطعم "أوغولوك"، ليخصص الفتى الساذج زاويته الموالية في إحدى الجرائد الناطقة بالروسية احتفاء بعروس "ليزا" الشعرية، التي وضع "جورجيك" على عقصاتها الكستنائية إكليلَ "أنا أخماتوفا" بهدوء. عندئذ، انهمرت دموع "ليزا" فرحا ـ تماماً مثل ملكة جمال ولاية ميتشيغان أو ملكة الورود لولاية أوريغون. كان "بْنين"، الذي لم يكن يعلم بتلك الضجة، يحمل داخل محفظته المتواضعة قصاصةً مطويةً تحتوي على ذلك الإطراء المخزي، يقرأ منها بسذاجة مقاطع على هذا الصديق المستمتع أو ذاك، حتى اتسخت وانمحت. لم يكن "بْنين" مطلعا كذلك على أمور أهمّ. ففي الواقع، كان يلصق بالفعل بقايا مقالة نقدية في ألبوم، عندما هاتفته "ليزا من "مودون"، ذات يوم من شهر دجنبر ١٩٣٨، قائلة إنها ستذهب إلى مونبوليي رفقة رجل يفهم "أناها العضوية"، هو الدكتور "إريك ويند"، وإنها لن ترى "تيموفي" ثانية أبدا. وقد جاءت امرأة فرنسية مجهولة ذات شعر أحمر، لتأخذ أغراض "ليزا"، حيث قالت له: «حسنا، أيها الجرد الحقير، لم تعد هناك أي معشوقة مسكينة لتلطمها». وبعد شهر أو شهرين، وصلت رسالة بالألمانية من الدكتور "ويند"، تعبر عن التعاطف والاعتذار، وتطمئن السيد العزيز "بْنين" أنه، أي الدكتور "ويند"، كان متلهفا للزواج من «المرأة التي

خرجت من حياتك، لتدخل حياتي». بالطبع، كان "بْنين" مستعدا ليطلقها، مثلما سيطلق حياته، على أن يمنحها بعض الجذور المبللة وقليلا من السرخس، ويقدم لها هدية الطلاق ملفوفة مثل بائع الزهور الذي تعبق منه رائحة الأرض، عندما يحوّل المطر عيد الفصح إلى مرايا رمادية وخضراء. لكن تبين أن للدكتور "ويند" في الجنوب زوجة ذات عقل مختلّ وصاحبة جواز سفر مزيف، تأمل ألا يزعجها أحد حتى تتخذ بعض مخططاتها هيئة معينة. وفي الآن ذاته، أخذ العالم الجديد يغري "بْنين" أيضاً، حيث قدم له صديق كبير من مدينة نيويورك، هو البروفيسور "كونستانتين شاتو"، يد العون لينفذ رحلة الهجرة. أطلع "بْنين" الدكتور "ويند" على مخططاته، وأرسل إلى "ليزا" العدد الأخير من مجلة "المهاجر" حيث يرد اسمها في الصفحة ٢٠٢. كان قد قطع شوطا كبيراً عبر ذلك الجحيم الكئيب الذي اخترعه البيروقراطيون الأوربيون (قصد تسلية السوفيتيين)، لصالح حَمَلَة ذلك الشيء البئيس، الذي يسمى جواز سفر "نانسن" (وهو عبارة عن بطاقة للمفرج عنهم بشروط أصدرت لفائدة المهاجرين الروس)، عندما سمع قرعا قويا على بابه ذات يوم رطب من شهر أبريل ١٩٤٠، دلفت "ليزا"، تلهث وتدفع أمامها حَمْلاً من سبعة أشهر أشبه بصُوّان، وأعلنت بعد أن نزعت قبعتها وخلعت حذاءها، أنها اقترفت خطأ، وأنها ستعود من الآن فصاعدا زوجة "بْنين" الوفية والشرعية، وأنها ستكون مستعدة لتتبعه حيثما حلّ وارتحل ـ إلى ما وراء المحيط إن اقتضى الأمر. كانت تلك الأيام أسعد ما في حياة "بْنين" ـ كانت تتوهج دائما بسعادة غامرة وموجعة ـ كان كل شيء يتضمن مسحة من حكاية خيالية؛ تجهيز التأشيرات، والاستعدادات، والفحص الطبي عند طبيب أصم وأبكم يضع سماعته المقلّدة على قلب "بْنين" المسحوق من فوق ملابسه، والسيدة الروسية (قريبتي) التي قدمت مساعدة كبيرة داخل القنصلية الأمريكية، والرحلة

إلى بوردو، والسفينة الأنيقة الجميلة. لم يكن مستعدا فحسب ليتبنى الطفل عندما وصل، بل كان متحمسا في تَوْقه لفعل ذلك، بينما استمعت هي، يختلجها شعور بالرضا ممزوج بالخوف، إلى الخطط البيداغوجية التي كان يبسطها أمامها، لأنه بدا فعلا مترقبا صراخ الوليد وكلمته الأولى في المستقبل القريب. لطالما أحبّت اللوز المحلى بالسكر، لكنها صارت اليوم تستهلك كميات هائلة منه (رطلين بين باريس وبوردو)، فيما ظل "بْنين" الزاهد يتأمل نَهَمَها، تنتابه رجّات واستخفاف يشوبه رعب مبهج، وشيء ما عن النعومة الحريرية لتلك الحلويات التي ظلت ممزوجة، في ذهنه إلى الأبد، بذكرى بشرتها الناعمة وسحنتها وأسنانها الخالية من العيوب.

شعرت بخيبة أمل ما أن حطت قدميها على السفينة. ألقت نظرة على البحر الهائج، ثم قالت: «للأسف، لا يمكن القيام بأي شيء»، وتراجعت فورا إلى بطن السفينة، حيث ظلت، طوال رحلة العبور، مستلقية على ظهرها داخل المقصورة التي كانت تتشاركهما مع زوجات ثرثارات لثلاثة بولنديين ـ مصارع وبستاني وحلاق ـ يتحدثون بإيجاز شديد، هم رفاق "بْنين" في مقصورته. في المساء الثالث من الرحلة، وبعد أن مكث طويلا في غرفة الاستراحة بعد أن ذهبت "ليزا" لتنام، قَبِل بابتهاج خوض جولة في لعبة الشطرنج، اقترحها رئيس التحرير السابق لجريدة فرنكفورتية، وهو بطريرك مكتئب ذو أكياس أسفل العينين، يرتدي كنزة ذات ياقة ضيقة وبنطلونا رياضيا قصيرا. لا أحد منهما كان لاعبا ماهرا، كلاهما كانا يضحيان بالبيادق بطريقة عجيبة، لكنها خاطئة إلى حد كبير، وكلاهما كانا يفرطان في رغبتهما في الفوز. وكانت كل خطوة يخطوانها في اللعبة تزداد حيوية، علاوة على ذلك، بفضل تلك اللكنة الألمانية العجيبة لدى "بْنين" («Wenn Sie so, dann ich so, und Pferd fliegt»). بعد ذلك، اقترب منهما مسافر آخر، واعتذر لهما بالألمانية، وسألهما إن كانا يسمحان له بمشاهدتهما يلعبان. جلس

قربهما. كان شعره أصهب وأهدابه طويلة شاحبة أشبه بحشرة السمك الفضي. كان يرتدي سترة رثة أزرارها مزدوجة. سرعان ما بدأ يقرقر بنَفَسَه ويحرك رأسه كلما تمايل البطريرك إلى الأمام، ليقوم بحركة طائشة، بعد تفكير طويل. في آخر المطاف، لم يقو هذا المشاهد المفيد، الذي يبدو خبيرا باللعبة، على مقاومة الرغبة في إرجاع البيدق إلى حيث كان قبل أن يحركه مواطنه، ثم أشار بسبابته المرتجفة إلى الرخّ الذي ينبغي أن يتقدم به ـ والذي نقله العجوز الفرنكفورتي على الفور إلى خلف دفاعات "بْنين". خسر صاحبنا بالطبع، وكاد يغادر غرفة الاستراحة عندما لحق به الخبير، معتذرا وملتمسا الحديث مع السيد "بْنين" لبضع لحظات. («ها أنت ترى أنني أعرف اسمك»، قال معترضا، وهو يرفع سبابته مرة أخرى) ـ واقترح أن يشربا كأسي جعة في الحانة. قبل "بْنين" الاقتراح. عندما وضع النادل القدحين أمامهما، تابع الغريب المهذب كلامه: «في الحياة، كما في لعبة الشطرنج، من الأفضل أن يحلل المرء حوافزه ونواياه. يوم ركبنا هذه السفينة، كنت مثل طفل مرِح. غير أنني بدأت، في صباح اليوم الموالي، أخشى أن يفحص زوج ماكر لائحة المسافرين عاجلا أو آجلا ـ ليس الأمر مجاملة، وإنما فرضية استذكارية. أما اليوم، فقد حاكمني ضميري، وتوصل إلى أنني مذنب. لم أعد قادرا على تحمل هذه الصدمة. بصحتك. هذه الجعة لا تشبه البتة شرابنا الألماني، لكنها أفضل من كوكا كولا. اسمي الدكتور "إريك ويند". للأسف، إنك لا تجهل هذا الاسم».

كان "بْنين" الصامت، ذو الوجه المضطرب، ما يزال يضع يده فوق البار المبلل، عندما شرع ينزلق بطريقة خرقاء من فوق مقعده المزعج الذي يشبه الفُطْر. لكن "ويند" وضع أصابعه الخمسة الطويلة والحساسة على كُمّه.

«اسمح لي، اسمح لي»، عوى "بْنين"، وهو يسعى جاهدا إلى إبعاد اليد المتملقة الرخوة من على يده.

«من فضلك!» قال "ويند". «كن عادلا. فالأسير يملك الكلمة الفصل على الدوام، ذاك حقّه. حتى النازيون اعترفوا به. أولا، أريدك أن تسمح لي بأن أؤدي نصف تكاليف سفر السيدة على الأقل».

«آه لا، لا، لا»، قال "بْنين". «دعنا ننهي هذا الحديث الكابوسي».

«كما تشاء»، قال الدكتور "ويند"، ثم شرع يدمغ ذهن "بْنين" المتسمر في مكانه بالعبارات التالية: إن الفكرة من وحي "ليزا" ـ «من أجل تيسير الأمور، كما تعلم، لصالح طفلنا» ("نون" الضمير تحيل هنا على ثلاثة أشخاص)، وأن "ليزا" ينبغي أن تعامل كامرأة مريضة جدّاً (لأن الحمل هو في الواقع تَسَام بأمنية الموت)، وأنه (الدكتور "ويند") سيتزوجها في أمريكا ـ «حيث أنا ذاهب أيضا». وأضاف الدكتور "ويند" بغية التوضيح: أنه (الدكتور "ويند") ينبغي أن يُسمح له بأداء ثمن الجعة. منذ ذلك الحين حتى نهاية رحلة العبور، التي تحولت من الأخضر والفضي إلى رمادي موحّد، صار "بْنين" منشغلا، بصورة واضحة، بكتيبات تعلّم اللغة الإنجليزية. كان ليّن العريكة تجاه "ليزا" على نحو ثابت، لكنه حاول ألا يراها إلا نادرا حسب استطاعته، دون أن يوقظ بعض الشكوك في نفسها. بين حين وآخر، كان الدكتور "ويند" ينبثق من لامكان، ويرسل من بعيد إشارات اعتراف وطمأنة. عند نهاية الرحلة، عندما انجلى التمثال العظيم من ضباب الصباح حيث تنتصب بنايات شاحبة ومدوخة، مستعدة لأن تلهبها الشمس، تبدو أشبه بتلك المستطيلات المبهمة ذات الارتفاعات المتفاوتة في الجداول البيانية الخاصة بمقارنة النسب المائوية (الموارد الطبيعية، تردد السراب في الصحاري المختلفة)، عقد الدكتور "ويند" العزم على أن يتوجه إلى آل "بْنين"، ثم عرّف بنفسه ـ «لأننا نحن الثلاثة يجب أن نطأ أرض الحرية بقلوب صافية». وبعد إقامة سخيفة في جزيرة "إيليس"، انفصل "تيموفي" و"ليزا".

حصلت بعض التعقيدات، لكن "ويند" تزوجها في النهاية. طيلة السنوات الخمس الأولى بأمريكا، لمحها "بْنين" عدة مرات بمدينة نيويورك. وحصل هو وآل "ويند" على الجنسية الأمريكية في اليوم نفسه. ثم انصرمت ست سنوات، بعد انتقاله إلى "وايندیل" سنة ١٩٤٥، دون أن يحصل أي لقاء بينهما، أو يتبادلا الرسائل. غير أنه كان يسمع بعض أخبارها من حين لآخر. في الآونة الأخيرة (في دجنبر ١٩٥١)، أرسل له صديقه "شاتو" عددا من مجلة حول الطب العقلي، بين دفتيها مقالة كتبتها الدكتورة "ألبينا دانكلبورغ" والدكتور "إريك ويند" والدكتورة "ليزا ويند" حول «العلاج النفسي الجماعي المطبق على نصائح الزواج». اعتاد "بْنين" على أن يشعر دائما بالحرج من اهتمامات "ليزا" النفسية، وحتى اليوم، عندما صار يتعين عليه ألا يبالي بالأمر، مازال يخزه شعور ممزوج بالاشمئزاز والشفقة. أما هي و"إريك"، فكان يعملان في مكتب للبحث التابع لمركز التخطيط الأسري تحت إشراف العظيم "برنارد مايوود"، وهو رجل عملاق وعبقري ـ يدعوه "إريك" المفرط في التكيف بـ"الرئيس". إذ بلور "إريك"، بعد أن شجعه عراب زوجته، الفكرة المبتكرة (ربما ليست من بنات أفكاره) التي تقتضي لفت نظر بعض زبناء المركز الأغبياء ليِّني العريكة إلى فخ العلاج النفسي ـ وهو عبارة عن دائرة "تخفيف التوتر" على غرار جماعات طرز اللُّحُف، حيث تسترخي زوجات شابات في جماعات تتألف من ثماني نساء داخل غرفة مريحة وسط جو تشوبه ألفة مرحة تنبني على ذكر الأسماء الشخصية فقط، كما يجلس أطباء إلى الطاولة نفسها في الجهة المقابلة لتلك الجماعة، وسكرتيرة تدون بعض الملاحظات خلسةً، لتطفو إلى السطح حلقات صادمة من جوف طفولة الجميع مثل الجثث. في تلك الحصص، دفعت النساء إلى أن يناقشن، بكل صراحة، اختلالات علاقاتهن الزوجية فيما بينهن، مما استلزم بالطبع مقارنة الملاحظات مع مشكلات أزواجهن الذين استجوبوا فيما بعد، أيضاً، في إطار "جماعات خاصة بالأزواج"،

جرت هي الأخرى في جو من الألفة، مع تبادل السيجار وفحوص التشريح. قفز "بْنين" على تقارير حالته وسجلاتها، حيث لم يكن في حاجة، هنا، إلى الاطلاع على تلك التفاصيل المضحكة. يكفي القول إنه في الحصة الثالثة الخاصة بجماعة الإناث، وبعد أن ذهبت هذه السيدة أو تلك إلى البيت، ورأت النور، ثم عادت لتصف لأخواتها المحبطات، لكن المتحمسات، الشعورَ الجديد الذي خبرته، اصطبغت الجلسات، على نحو سارّ، بملاحظة مدوية حول الانبعاث العاطفي («حسنا، يا بنات، عندما كان "جورج" البارحة..»). لم يكن هذا كل شيء، حيث كان الدكتور "إريك" يأمل أن يستخرج تقنية تسمح بجمع أولئك الأزواج والزوجات في جماعة واحدة. وعلى نحو طارئ، كان من المروع أن يسمعه هو و"ليزا" يتلمظان بكلمة "جماعة". ففي رسالة طويلة إلى "بْنين" المفجوع، أكد البوفيسور "شاتو" أن الدكتور "ويند" أطلق اسم "الجماعة" على التوأمين السياميين. في الواقع، رأى "ويند" التقدمي والمثالي في المنام عالما سعيدا يتكون من مائة توأم سيامي وجماعات موحدة وأوطان كاملة بنيت على كَبِد لساني واحد. دمدم "بْنين"، ردا على "شاتو": «كل هذا الطب العقلي ليس سوى عالم شيوعي مصغر. لِمَ لا يتركون للناس أحزانهم الشخصية؟ أليس الحزن، كما قد يسأل أحدهم، هو الشيء الوحيد في العالم الذي يمتلكه الناس فعلا؟

٦

قالت "جوان" لزوجها صباح يوم السبت: «اسمع، لقد قررت أن أخبر "تيموفي" أننا سنترك لهما البيت اليوم من الساعة الثانية إلى الساعة الخامسة. يجب أن نمنح ذينك المخلوقين المثيرين للشفقة كل فرصة ممكنة. هناك أشياء سأقوم بها في المدينة، وأنت ستذهب إلى المكتبة».

أجاب "لورنس" قائلاً: «الحقيقة أنه لا نية لي للذهاب إلى المكتبة

أو التحرك إلى أي مكان آخر اليوم. فضلا عن ذلك، من غير الوارد بتاتا أنهما سيحتاجان إلى ثماني غرف لاجتماعهما».

ارتدى "بْنين" سترته البنّية الجديدة (التي اشتراها بفضل محاضرته في كلية "كريمونا")، وبعد غذاء سريع بمطعم "إيغ أند وي"، توجه إلى محطة حافلات "وايندِيل" عبر المنتزه الذي غطاه الثلج، حيث وصل إلى هناك قبل نحو ساعة من الموعد. لم يكلف نفسه عناء أن يعرف بالضبط لِمَ شعرت "ليزا" بالحاجة الملحة إلى رؤيته، وهي عائدة من زيارتها المدرسة الإعدادية بـ"سانت بارثولوميو"، القريبة من بوستن، والتي سيدرس بها ابنها ابتداء من الخريف المقبل. كل ما يعرفه هو أن فيضا من السعادة أزبد وفاض عن الحاجز الخفي الذي قد ينفتح الآن بين لحظة وأخرى. شهد وصول خمس حافلات. وفي كل حافلة كان يميز "ليزا" بوضوح، وهي تلوح له بيدها عبر النافذة، بينما تصطف، هي والمسافرون الآخرون، استعدادا للنزول، ثم فرغت الحافلات، الواحدة تلو الأخرى، دون أن يظهر لها أثر. فجأة، سمع صوتها الجهوري خلفه («صباح الخير، يا تيموفي»)، ثم وهو يدور حول نفسه، رآها تنزل من الحافلة الوحيدة التي ظن أنها لا تقلّها. فأي تغيّر فيها سيدركه صاحبنا؟ وما التغيّر الذي أصابها، يا إلهي! ها هي هناك. لطالما شعرت بالدفء والحيوية، مهما كانت البرودة، وها قد صار معطفها المصنوع من جلد الفقمة مفتوحاً الآن على مصراعيه فوق بلوزتها المزركشة. ما إن عانقت رأس "بْنين"، حتى استنشق العبير الليموني الذي يتضوع من عنقها، وظل يتمتم بعض العبارات القلبية البسيطة: «حسنا، حسناً، هذا أمر جيد، جيد»[1]. ثم صرخت: «آه، إنه يملك أسنانا ساطعة جديدة!»

---

(١) وردت هذه العبارة باللغة الروسية في النص الأصلي كما يلي (Nu, nu, vot i horosho, nu vot). تجدر الإشارة هنا إلى أن الكاتب استعمل في هذه الرواية عبارات عديدة باللغتين الألمانية والروسية (المترجم).

ساعدها على ركوب تاكسي. علق وشاحها الشفاف اللامع بشيء ما. انزلق "بْنين" على الرصيف. قال السائق: «هوّن عليك»، ثم تناول عنه حقيبتها. حدث ذلك كله من قبل بذلك التسلسل تماماً.

لا. رفضت أن تأكل شيئاً، لأنها تناولت غذاءً باذخا بمدينة "ألباني". قالت له، بينما السيارة تقطع شارع "بارك ستريت"، إنها أصبحت بمثابة مَدْرَسة في التقليد الإنجليزي. كانت مدرسة «خيالية جدا» ـ قالت ذلك باللغة الإنجليزية ـ حيث يلعب الأولاد بأيديهم نوعا من كرة المضرب الداخلية، بين الجدران، وسيكون هناك... (هنا أقحمت بنبرة خاطئة تنم عن عدم اكتراث اسما أمريكيا معروفا لم يعنِ أي شيء لـ"بْنين" لأنه لم يكن اسم شاعر أو رئيس). «بالمناسبة»، قاطعها "بْنين"، وهو ينحني ويشير بأصبعه: «يمكنك أن تري زاوية الجامعة من هنا». كل ذلك («أجل، أرى. أرى الحرم الجامعي[1]: إنها بناية عادية») كل ذلك، بما في ذلك المنحة، كان بفضل نفوذ الدكتور "مايوود" («كما تعلم يا "تيموفي"، يجب أن تكتب له رسالة، من باب المجاملة فقط»). لقد أطلعها الناظر، الذي يعمل كاهنا أيضاً، على الجوائز التي فاز بها "برنارد" هناك عندما كان طفلا. بالطبع، أراد "إريك" أن يلتحق "فكتور" بمدرسة عمومية، لكنه لم يُقبل. ذلك أن زوجة الموقر "هوبر" هي ابنة أخ كونت إنجليزي.

«ها قد وصلنا. ها هو قصري»، قال "بْنين" المرِح، الذي لم ينجح في متابعة حديث "ليزا" السريع.

دخلا إلى المنزل. شعر فجأة أن ذلك اليوم الذي ظل يهفو إليه بشوق جارف كان يمضي بسرعة كبيرة، وأنه كان يمضي، وينقضي، وسينفد

---

(١) وردت هذه العبارة باللغة الروسية أيضاً.

بعد بضع دقائق. قال في قرارة نفسه إنها لو باحت بما تريده منه، لربما تباطأ اليوم في مضيّه، ولاستمتعا فعلا.

«يا له من مكان مخيف»، قالت، بعد أن جلست على الكرسي القريب من الهاتف، وهمت بنزع حذائها ـ بحركاتها المألوفة! «انظر إلى لوحة المآذن تلك. لا شك أن هؤلاء الأشخاص مريعون».

«لا. إنهم أصدقائي»، قال "بْنين".

«عزيزي "بْنين"»، قالت، وهو يرافقها إلى الطابق الأعلى. «لقد شهدت في حياتك بعض الأصدقاء البشعين».

«ها هي غرفتي»، قال "بْنين".

«أظن أنني سأستلقي على سريرك العذري الطاهر، يا "تيموفي". وسأقرأ عليك بعض الأبيات بعد حين. ها هو ذلك الصداع الفظيع يعاودني مرة ثانية، بعد أن شعرت بحال أفضل طيلة النهار».

«عندي بعض أقراص الأسبرين».

«أون ـ أون»، قالت. بدا هذا النفي الجديد يخالف طريقة حديثها الفطري على نحو غريب.

انصرف ما إن شرعت تنزع حذاءها، حيث ذكّره صوت ارتطامه على أرض الغرفة بالأيام الخوالي.

استلقت على السرير، بعد أن ارتدت تنورة سوداء وبلوزة بيضاء، وسرحت شعرها البني، ووضعت يدها الوردية على عينيها.

«كيف حالك؟» سأل "بْنين" (لتفصح عما تريده مني، بسرعة!) وهو يغرق في الكرسي الأبيض القريب من المدفأة.

«عملنا مثير للاهتمام»، قالت وهي ما تزال تخفي عينيها، «لكن يجب أن أخبرك أنني لم أعد أحب "إريك". لقد تحطمت علاقتنا. وعلى

نحو طارئ، أصبح "إريك" يكره ابنه. يقول إنه الأب الترابي، وإنك أنت، يا "تيموفي"، الأب المائي».

انفجر "بْنين" ضاحكا. كان يهتز من كثرة الضحك، حتى إن كرسي الأطفال كان يتصدع تحته بوضوح. كانت عيناه مبللتين تماماً، حيث بدتا مثل نجمتين متلألتين.

نظرت إليه بفضول للحظة من تحت يدها اللحيمة. ثم استأنفت كلامها:

«أصبح سلوك "إريك" يمثل حاجزا عاطفيا شاقا تجاه "فكتور". لا أدري كم مرة سعى الابن إلى قتله في أحلامه. لطالما لاحظت أن الحوار مع "إريك" يزيد من تعقيد المشكلات بدل تفسيرها. إنه شخص صعب المراس. كم يبلغ أجرك، يا "تيموفي"؟»

أخبرها بأجره.

«حسنا»، قالت. «إنه ليس كبيرا. لكني أفترض أنك تستطيع أن تدخر جزءاً منه. إنه يفوق حاجاتك بما يكفي، يفوق حاجاتك الصغيرة، يا "تيموفي"».

اهتز بطنها، المحزوم على نحو وثيق تحت التنورة السوداء، مرتين أو ثلاث تحت تأثير سخرية صامتة وحذرة وحافلة بذكريات بهيجة. تمخط "بْنين"، وحرّك رأسه في الآن ذاته، منتشيا بفرح شهواني عارم.

«اسمع قصيدتي الأخيرة»، قالت، وهي تمدّ يديها على طول جسدها، بعد أن استلقت على ظهرها، ثم أخذت تنشد بصوت جهوري متواصل وإيقاع متوازن:

لبست فستانا أسود

أبدو أكثر تواضعا من راهبة؛

وصليب عاجي

فوق سريري البارد
لكن أنوار عربدات خرافية
تحترق في نسياني
وأهمس اسم "جورج"
اسمك الذهبي!

«إنه رجل مهم»، واصلت كلامها دون أن تتوقف. «إنجليزي من الناحية العملية، في الواقع. كان ربان قاذفة قنابل خلال الحرب، وهو يعمل الآن في شركة سماسرة لا يفهمونه ولا يبدون أي تعاطف معه. ينحدر من عائلة عريقة. كان والده حالما. كان يملك كازينوها عائما، كما تعلم، وكل ذلك، لكن عصابة يهودية خربته في فلوريدا، ثم ذهب إلى السجن طواعية بدل رجل آخر.. إنها عائلة أبطال».

توقفت. ران الصمت في الغرفة الصغيرة، تتخلله، بدل أن تكسره الطَّرَقات والأصوات المجلجلة داخل تلك الأنابيب البيضاء.

تابعت "ليزا" وهي تتنهد: «قدمت لـ"إريك" تقريرا كاملا. وهو مازال يطمئنني، إلى اليوم، أنه قادر على معالجتي إذا تعاونت معه. للأسف، أنا أتعاون كذلك مع "جورج"».

لفظت "جورج" بالطريقة الروسية، وهي تشدد على حرف "ج" وتمططه: "جورجي".

«حسنا، إنها الحياة، كما يقول "إريك" على نحو أصيل. كيف يمكنك أن تنام مع وجود ذلك النسيج العنكبوتي المتدلي من السقف؟» نظرت إلى ساعة معصمها. «يا إلهي، يجب أن ألحق بحافلة الساعة الرابعة والنصف. يجب أن تتصل بسيارة أجرة بعد دقيقة. سأخبرك بشيء ذي أهمية قصوى».

ها هي تصل أخيراً إلى الموضوع الصميم ـ بشكل متأخر.

كانت تريد من "تيموفي" أن يوفر بعض المال شهريا لفائدة الطفل ـ لأنها لم تتجرأ على أن تطلب ذلك من "برنارد مايوود" الآن ـ قد تموت بسبب ذلك ـ فيما لم يأبه "إريك" بما حدث ـ وعلى أحدهم أن يبعث مبلغا ماليا صغيراً الآن ولاحقا، كأنما والدته من ترسله ـ مصروف الجيب، كما تعلم ـ فهو سيصبح زميلا لأولاد الأغنياء. ستكتب إلى "تيموفي"، لتعطيه العنوان وبعض التفاصيل الأخرى. أجل ـ لم تشك أبدا أن "تيموفي" حبيب. والآن أين هو الحمام؟ هلا اتصلت بالتاكسي، من فضلك؟

«بالصدفة»، قالت له، بينما كان يساعدها على ارتداء معطفها، وهي تبحث بعبوس، كما هي عادتها، عن الكمّ، وتجسّ وتتلمس الطريق إليه، «كما تعلم، يا "تيموفي"، بدلتك البنية هذه خطأ؛ فالرجل المحترم لا يرتدي ملابس بنّية».

ودعها في المحطة، ثم قفل عائداً عبر المنتزه. هل كان سيبقيها، ويحملها على المكوث ـ كما هي تماماً ـ بقسوتها، وسوقيتها، وعينيها الزرقاوين الضريرتين، وشعرها البائس، وقدميها السمينتين، وروحها الصبيانية النجسة والجافة والدنيئة؟ فجأة، أخذ يفكر: ماذا لو اجتمعنا في الجنّة (لا أظن ذلك، لكنني أفترض)، كيف سأحول إذاك دون أن تزحف عليّ روحها الذابلة والبائسة والكسيحة؟ لكن هنا الأرض، ومن الغريب أنني ما زلت حيّاً، حيث هناك شيء ما فيّ وفي الحياة...

بدا "بْنين" فجأة على وشك إيجاد حلّ بسيط للكون (لأن يأس الإنسان نادرا ما يقود إلى اكتشاف حقائق عظيمة)، لكن ملتمسا عاجلا حال دون ذلك. عندما رآه سنجابٌ أسفل شجرة، وهو يشق طريقه، تسلّق الحيوان الذكي، بحركة ملتوية مثل نبات الحالق، نافورة ماء شروب، ثم مدّ وجهه البيضوي نحو "بْنين"، عندما اقترب منه، ودمدم

بصوت خشن وانتفخ خدّاه. أدرك "بْنين" الأمر، وبعد بضع مناورات فاشلة، توصل إلى حيث ينبغي الضغط للحصول على النتائج المرجوة. فورا، بدأ الحيوان القارض العطشان، وهو يحدق فيه بازدراء، يشرب من الماء المتلألئ المخزّن فوق نصب تذكاري. استغرق وقتاً طويلا في الشرب. «تعاني الحمى، ربما»، ظنّ "بْنين"، الذي كان يبكي في صمت وبحرية، بينما ظل طيلة الوقت يضغط على المكبس، وهو يحاول ألا ينظر إلى عين الحيوان البغيضة المثبتة عليه. رحل السنجاب، بعد أن روى ظمأه، دون أن يبدي أدنى إشارة امتنان.

واصل الساقي مسيره. انتهى إلى آخر الطريق، ثم انعطف إلى شارع جانبي حيث توجد حانة صغيرة ذات تصميم خشبي، يحف عقيق زجاجي إطارات نوافذها.

٧

عندما عادت "جوان" إلى البيت في الساعة الخامسة والربع، تحمل كيساً مليئاً بالمؤن، بها مجلتين وثلاث رزم، عثرت في علبة البريد المنصوبة في الرواق على رسالة خاصة وردت من ابنتها. لقد انقضى أكثر من ثلاثة أسابيع منذ أن كتبت "إيزابيل" إلى والديها، لتخبرهما أنها وصلت إلى بيت زوجها بأمان، بعد شهر عسل في أريزونا. مزقت "جوان" الظرف، وهي تتلاعب بالرزم. كانت رسالة تعبر عن سعادة غامرة. تجرعت كلماتها، حيث كان كل شيء يسبح في بهاء راحتها. على الجانب الخارجي لباب المدخل، شعرت بمفاتيح "بْنين"، ثم اندهشت عندما رأتها، كانت كأنها جزء من أحشائه، تتدلى مع غمدها الجلدي من القفل. استعملتها لفتح الباب. وما أن دخلت، حتى سمعت طرقا فوضويا

قويا آتيا من المكتب ـ كان صوت رفوف الخزانة تفتح وتغلق الواحدة تلو الأخرى.

وضعت كيسها ورزمها فوق نضد المطبخ، ثم سألت وهي توجه كلامها نحو المكتب: «عمَّ تبحث، يا "تيموفي"؟»

خرج من هناك، مجفلا هائجا شاحب اللون. صُدمت عندما رأت آثار الدموع المنهمرة على وجهه.

«أبحث، يا "جون"، عن مشروب "فيسكوس أند ساوداست"»، قال بنبرة مفجعة.

«أخشى ألا تكون هناك أي صودا»، أجابت مبدية تحفظها الأنغلوساكسوني الواضح. «لكن هناك الكثير من الويسكي في خزانة غرفة العشاء. غير أني أقترح أن نشرب معا بعض الشاي الساخن عوضا عن ذلك».

أشار إشارة الروس التي تفيد التنازل والتخلي.

«لا، لا أريد أي شيء بتاتا»، قال، ثم جلس إلى مائدة المطبخ، وتنهد تنهيدة شنيعة.

جلست إلى جانبه، ثم فتحت مجلة من المجلتين.

«سنشاهد بعض الصور، يا "تيموفي"».

«لا أريد ذلك، يا "جون". أنت تعلمين أنني لا أعرف ما الإعلان وما ليس كذلك».

«كن هادئاً فحسب، يا "تيموفي"، سأقوم بالشرح. آه، انظر ـ أحب هذه. آه، هذه ذكية جداً. لدينا هنا مزج بين فكرتين ـ الجزيرة المهجورة والفتاة داخل الفقاعة. الآن، انظر، يا "تيموفي" ـ من فضلك» ـ وضع نظارة القراءة على مضض ـ «هذه جزيرة مهجورة بها نخلة وحيدة، وهذا

حطام عوامة، وهذا بحار غريق، وهذا قط السفينة الذي أنقذه من الغرق، وهذا هنا، فوق تلك الصخرة..».

«مستحيل»، قال "بْنين". «لا يمكن أن توجد جزيرة صغيرة جداً، ونخلة علاوة على ذلك، وسط بحر هائل كهذا».

«حسنا، إنه موجود هنا».

«إنها عزلة مستحيلة».

«نعم، لكن ـ في الواقع، أنت لست منصفا، يا "تيموفي". كما تعلم جيدا، فأنت تتفق مع "لور" على أن عالم العقل يقوم على تسوية ما مع المنطق».

«لدي تحفظات»، قال "بْنين". «أولا، المنطق نفسه..».

«حسنا، أخشى أن نبتعد عن موضوعنا. الآن، انظر إلى الصور. إذا ها هو البحار، وها هو الهرّ، وها هي بالأحرى حورية البحر الحزينة المتسكعة، والآن انظر إلى الفقاعات فوق البحار والهرّ».

«انفجار قنبلة ذرية»، قال "بْنين" متأسفا.

«لا، أبدا. إنه شيء مضحك. أنت ترى أن هذه الفقاعات المستديرة يفترض أنها إسقاطات لأفكارهما. وها نحن نصل الآن إلى الجزء المسلّي. يتخيل البحار أن حورية البحر تمتلك ساقين، بينما يتخيلها القط سمكة مكتملة».

قال "بْنين" وهو يرفع أصبعين إلى الأعلى:

«أحاط "ليرمونتوف" بكل شيء عن حوريات البحر في قصيدتين فقط. لا أستطيع أن أفهم الفكاهة الأمريكية، حتى عندما أكون سعيدا، ويجب أن أقول..». نزع نظاراته بيدين مرتجفتين. دفع المجلة بمرفقه جانبا. ثم وضع رأسه على ذراعه، وانطلق في نشيج مكظوم.

تناهى إلى سمعها انفتاح الباب الخارجي وانغلاقه. بعد هنيهة، أطلّ "لورنس" برأسه على المطبخ، وعلى وجهه مكر طريف. لوحت "جوان" بيدها اليمنى، مشيرة إليه بالابتعاد. ووجهته بيدها اليسرى إلى الظرف الموضوع فوق الرزم، الذي تتزين حوافه بألوان قوس القزح. افترّ ثغرها عن ابتسامة واثقة كانت توجز رسالة "إيزابيل". اختطفها، وسار على أصابع قدميه بعد أن اتشح بالجدية.

ظل كتِفا "بْنين" القويّان بلا فائدة يهتزان. أغلقت المجلة. تأملت غلافها لثوان: كانت تفكر في أطفال مدرسة نجباء يشبهون الدمى، و"إيزابيل" وابنة "هاغن"، وأشجار وارفة الظل لكن بلا وظيفة، وبرج أبيض، وأجراس "واينديل".

«ألا ترغب في العودة؟» سألت "جوان" في هدوء.

بدأ "بْنين"، الذي كان يسند رأسه بذراعه، يضرب الطاولة بقبضة يده المرتخية.

«لم يبقَ لي أي شيء»، انتحب "بْنين" نحيبا حادا وكئيبا، «لم يبقَ لي أي شيء. لا شيء، لا شيء!»

الفصل الثالث

١

خلال الأعوام الثمانية التي قضاها "بْنين" مدرسا بكلية "وايندِيل"، غيّر مقر إقامته ـ لهذا السبب أو ذاك، وخاصة بسبب الأصوات المزعجة ـ نحو مرة كل ستة أشهر. صار تراكم الغرف المتعاقبة في ذاكرته الآن أشبه بتلك المعارض الخاصة بالأرائك والأسرّة والمصابيح والمواقد المجمّعة، التي تتجاهل فوارق الزمان والمكان كلها، وتمتزج على ضوء خافت لمتجر أثاث في محيطه يتساقط الثلج، ويتكثف الغسق، ولا أحد يحب أحدا فعلا. بدت غرفه خلال إقامته بـ"وايندِيل" خصوصا أنيقة مقارنة بالغرفة التي كان يسكنها بنيويورك، في منتصف الطريق إلى "سانترال بارك" و"ريفرسايد"، بمبنى معروف بالأوراق المهملة المتدحرجة على رصيفه، وأثر ظاهر لبراز كلب انزلق فوقه أحدهم، وفتى لا يتعب من قذف كرة إلى الشرفة البنية العالية. وحتى تلك الغرفة أصبحت مرتبطة، على نحو إيجابي، في ذهن "بْنين"، (الذي مازال يتصور كرة صغيرة تُقذَف) بأناقتها عندما تقارن بشققه القديمة المغبرة في فترة إقامته الطويلة بأوربا الوسطى، أيام كان يمتلك جواز "نانسن".

غير أن "بْنين" أصبح، مع تقدمه في السن، دقيقا في اختياراته. لم تعد التجهيزات الجميلة تفي بالغرض. كانت "وايندِيل" مدينة صغيرة

هادئة، وكانت "وايندیلفيل"، ذلك الشِّعْب القابع بين التلال، أكثر هدوءا. لكن "بْنين" يرى ألا شيء يتمتع بالهدوء الكافي. كان ثمة، في بداية حياته هناك، ذلك الاستوديو داخل المسكن الجامعي الخاص بالأساتذة العزّاب، المفروش بعناية، الذي ظل مكانا جميلا جدّاً رغم بعض العيوب الاجتماعية («كرة الطاولة، يا "بْنين"؟» «لم أعد ألعب هذه الألعاب الصبيانية»)، إلى أن جاء العمال وبدؤوا يثقبون ثقوبا في الشارع ـ شارع الدماغ، أو "بْنينغراد" ـ ويردمونها ثانية. استمر ذلك لأسابيع طويلة، أحياناً في خطوط متعرجة، تتخللها راحة طائشة أحياناً أخرى، دون أمل في أنهم سيعثرون مجددا على الآلة الثمينة التي دفنوها بالخطأ. كانت هناك (حتى لا ننتقي من هنا وهناك سوى آثمين محددين) تلك الغرفة في بيت الدوق ذي المظهر الساحر على نحو بارز بـ"وايندیلفيل". كانت غرفة بهيجة، لكن ينتصب فوقها، إلى جانب انهمار شلالات الحمام واصطفاق الأبواب كل مساء، تمثالان شنيعان متجهمان منصوبان على أقدام صخرية بدائية، في مظهر يصعب التوفيق بينه وبين البنية النحيلة لجاريه في الطابق الأعلى، اللذين تبين أنهما نجمان من نجوم شعبة الفنون الجميلة («أنا "كريستوفر" وهذه "لويز"»)، وهما زوجان وديعان كملاكين، مهتمان غاية الاهتمام بدوستويفسكي و"شوستاكوفيتش". كان هناك ـ في نزل آخر ـ غرفة مفروشة أكثر حميمية، لا يقتحم خلوته فيها أحد بحثا عن درس مجاني في اللغة الروسية، لكن ما إن يبدأ شتاء "وايندیل" في اختراق تلك الحميمية عبر تيارات هوائية صغيرة حادة، لا تتسرب عبر النوافذ فحسب، بل أيضاً عبر المرحاض والمقابس الكهربائية، حتى تتشح الغرفة بمسحة أشبه بالجنون أو الوهم الصوفي ـ أعني طنينا موسيقيا متواصلا، كلاسيكيا إلى هذا الحد أو ذاك، ينبعث على نحو غريب من مدفأة "بْنين" الفضية. حاول أن يدثرها ببطانية، كأنها طائر مغرد في

قفص، لكن طنينه تواصل بعناد إلى أن نقلت والدة السيدة "ثاير" العجوز إلى المستشفى حيث ماتت، فتحوّلت المدفأة بعدها إلى حوزة فرنسية كندية.

جرّب السكن في منازل من نوع آخر؛ في شقق مأجورة ببيوت خاصة تجمع بينها ميزة عامة، رغم اختلاف كل بيت عن الآخر في أشياء متعددة (ليست كلّها لوحية مثلا، وبعضها مرصع بالجص، أو جزء منها على الأقل مزخرف بالجص)، إذ توجد حتما في خزانات الكتب بصالاتها أو على الأدراج أعمال الكاتب "هندريك فيليم فان لون" والدكتور "كرونين"، وقد تفصل بينها مجموعة من المجلات، أو بعض روايات قصص الحب التاريخية الجذابة والمثيرة، أو حتى صورة السيدة "غارنيت" وهي تجسد أحدهم (وفي بيت كهذا لا بد أن تكون هناك لوحة من لوحات "تولوز لوتريك" معلقة في مكان ما)، لكنك تجد الزوجين حتما، يتبادلان نظرات اعتراف حنون، مثل صديقين قديمين في حفلة حاشدة.

٢

عاد لفترة إلى الحي الجامعي، لكن أعمال ثقب الرصيف كانت ما تزال جارية، ثم ظهرت أعمال مزعجة أخرى إلى جانب ذلك. حينذاك، كان "بْنين" ما يزال يكتري الغرفة ذات الجدران الوردية والحواشي البيضاء بالطابق الثاني ببيت آل "كليمانتس"، وهو أول بيت أحبه فعلا، وأول غرفة يقطن بها أكثر من عام. وقد نجح حتى ذلك الحين في التخلص من جميع آثار ساكنته السابقة، أو هكذا اعتقد، لأنه لم يلاحظ، وربما لن يلاحظ أبدا، وجها عجيبا مرسوما على الحائط خلف اللوح الأمامي للسرير وبعض خربشات رسمت بقلم الرصاص سنة

١٩٤٠ على ارتفاع أربعة أقدام فوق رتاج الباب، وقد انمحى نصفها الآن.

منذ ما يزيد عن أسبوع، صار "بْنين" سيد البيت، بعد أن سافرت "جوان كليمانتس" بالطائرة إلى ولاية غربية لزيارة ابنتها المتزوجة؛ وبعد بضعة أيام، طار البروفيسور "كليمانتس" إلى الغرب أيضاً، في بداية دروسه الربيعية المبكرة حول الفلسفة، استجابة لبرقية عاجلة.

تمهل صاحبنا في تناول فطور يتكون أساساً من الحليب الذي لم تتوقف عملية تسليمه للبيت رغم سفر آل "كليمانتس". في الساعة التاسعة والنصف، تأهب للذهاب مشيا إلى الجامعة كما جرت عادته.

أثلجت صدري طريقته في ارتداء معطفه، كأنه واحد من الإنتلجنسيا الروسية، حيث يظهر رأسه المحني صلعته المثالية، ويحتشد ذقنه العريض، الذي يشبه "دوقة بلاد العجائب"، بقوة بين طرفي شالِهِ الأخضر، اللذين يخالفهما حتى يبقى الشال ثابتا فوق صدره، فيما يحتال، بحركة كتفيه العريضين، ليدخل الكمّين دفعة واحدة؛ ثم بهزة أخرى، ينساب المعطف على جسده.

تناول محفظته. تفحص محتواها. وخرج.

كان ما يزال في الرواق القريب من الباب، عندما تذكر كتابا التمست منه الكلية أن يعيده في القريب العاجل، حتى تسلمه لقارئ آخر. تنازع للحظة مع نفسه، لأنه مازال في حاجة إلى الكتاب، لكن "بْنين" أبدى بكرمٍ تعاطفا كبيراً مع تلك الرغبة الشغوف لدى باحث آخر (مجهول) حتىَ لا يعود إلى ذلك الجزء السميك والثقيل؛ إنه الجزء الثامن عشر ـ المخصص أساساً لـ"تولستويانا" ـ *من الرصيد الأدبي الذهبي السوفييتي، موسكو ـ لينينغراد، ١٩٤٠.*

٣

الأعضاء التي تنتج الأصوات في اللغة الإنجليزية هي الحنجرة، واللهاة، والشفتان، واللسان، (ذلك المهرج الأحدب القصير في الفرقة)، وأخيرا وليس آخرا، الفك الأسفل، حيث كان "بْنين" يعتمد على حركته النشيطة جدّاً والاجترارية إلى حد ما، عندما يترجم مقاطع من النحو الروسي أو بعض قصائد بوشكين داخل القسم. كانت لغته الروسية موسيقى، بينما كانت لغته الإنجليزية اغتيالا. إذ ظل يعاني صعوبات جمّة في تحريك حنكه أثناء النطق، حيث لم يفلح أبدا في نزع النداوة الروسية الزائدة عن حرفي التاء والدال كلما وجدا قبل الحروف المتحركة التي يخففها بطريقة غريبة. لم تكن طريقته في نطق كلمة "هات" (قبعة) تختلف عن الطريقة الأمريكية لدى أهل مدينة "وايندبل" في نطق كلمة "هوت" (ساخن)، إلا بمدّها القصير، بما يجعلها أشبه بفعل "هات" في اللغة الألمانية، الذي يعني "امتلك". ويصبح عنده حرف الواو الممدود قصيراً على نحو حتمي، إذ تتخذ "نو" النافية نبرة إيطالية إيجابية، فيبرز النفي عندما يكرره ثلاث مرات («هل أُقلّك، يا سيد "بْنين"» «نو ـ نو ـ نو، أسكن على بعد خطوتين من هنا») لم يكن ينطق أي "واو" ممدودة (ولم يكن واعيا بهذا النقص)، وكل ما كان يحشده عندما يجد نفسه مضطرا لنطق كلمة noon (زوال) هو حرف مهلهل أشبه بالكلمة الألمانية nun. («ليس لدي أي دروس زوال الثلاثاء. واليوم هو الثلاثاء»)[١].

صحيح، إنه يوم الثلاثاء، لكننا نتساءل: أي يوم من الشهر؟ فعلى سبيل المثال، يتزامن عيد ميلاد "بْنين" مع اليوم الثالث من شهر فبراير،

---

(١) يورد الكاتب هنا باللغة الإنجليزية هذا المثال على الطريقة التالية: I have no classes in **afternun** on Tuesday. Today is Tuesday.

حسب التقويم اليولياني، الذي رأى فيه النور بمدينة سانت بيترسبورغ سنة ١٨٩٨. لم يحتفل به أبدا خلال السنوات الماضية، لأنه يتقنع، من جهة، بقناع غريغوري (إذ يتأخر عن موعده ثلاثة عشر يوما، لا اثني عشر)، ولأنه يتزامن من جهة ثانية مع أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس من السنة الأكاديمية.

على السبورة المسربلة بالطباشير، التي يسميها بالسبورة الرمادية، حرّر تاريخا على الفور. كان ما يزال يشعر في جوف ذراعه بثقل كتاب *الرصيد الأدبي الذهبي السوفييتي*. لم يكن لذلك التاريخ أي علاقة بذلك اليوم بمدينة "وايندبل":

٢٦ دجنبر ١٨٢٩

نحت بعناية نقطة بيضاء كبيرة، ثم كتب في الأسفل:

٣,٠٣ بعد الزوال بمدينة سانت بيترسبورغ

نقل ذلك بإخلاص كل من "فرنك باكمان"، و"روز بالسامو"، و"فرنك كارول"، و"إرفينغ د. هورز"، والجميلة الذكية "ماريلين هون"، و"جون ميد جونيور"، و"بيتر فولكوف"، و"ألن برادبوري والش".

جلس "بْنين"، الذي كان يفيض مرحا صامتا، خلف مكتبه. كانت لديه حكاية يريد أن يحكيها. ذلك السطر في النحو الروسي السخيف (أكنت أهيم في شوارع صاخبة) كان في الواقع مطلع قصيدة شهيرة. ورغم أنه كان يفترض بـ"بْنين" في ذلك القسم الروسي الابتدائي أن يلتزم بتمارين اللغة، فإنه ينتهز كل فرصة ليقود طلابه في جولات أدبية وتاريخية.

لقد وصف بوشكين، في أبيات رباعية، عادته الكئيبة الدائمة ـ أينما كان، وأيّما كان يفعل ـ في أن يسهب في التفكير في الموت، وفي أن يمعن النظر في كل يوم عابر، وهو يسعى جاهدا إلى أن يعثر في ألغازه

على «ذكرى مستقبلية» ما؛ على يوم وشهر سيظهران على شاهدة قبره يوما ما، في مكان ما.

«"أين سيطوح بي القدر"، المستقبل الناقص، "الموت"»، تكلم "بْنين" بنبرة خطابية ملهبة، وهو يرمي برأسه إلى الخلف، ويترجم كلامه بحرفية جريئة: «إلى القتال، إلى السفر، أم إلى الأمواج؟ أم أن الوادي المجاور سيقبل برمادي المبرّد»، «غباري البارد» على النحو الأصحّ ربما، «رغم أنه لن يبالي بالجسد الجامد..».

تابع "بْنين" حتى النهاية، ثم لاحظ، وهو يشير بصورة مفاجئة بقطعة الطباشير التي مازال يمسك بها، كيف أن بوشكين دوّن بعناية اليومَ، بل الدقيقةَ التي كتب فيها تلك القصيدة.

هتف "بْنين" منتشيا بنصره: «لكنه لم يمت في ذلك اليوم، بل في يوم مختلف تماما! مات...!» انبعثت من ظهر الكرسي الذي كان "بْنين" يتمايل عليه بنشاط فرقعة مشؤومة، وتبدّد التوتر الواضح داخل القسم إلى قهقهات غرّة صاخبة.

(في زمن ما، في مكان ما ـ في بيترسبورغ؟ أو براغ؟ ـ سحب أحد المهرجيْن الموسيقيين كرسي البيانو من تحت الآخر الذي ظل، مع ذلك، يعزف في وضعية الجالس، وإن لم يكن جالسا، دون أن يختلّ لحنه. أين؟ بسيرك "بوش"، في برلين!)

٤

لم يزعج "بْنين" نفسه بمغادرة قاعة الدرس بين حصتي القسم الابتدائي المنصرف والقسم المتقدم المقبل. كان المكتب، حيث كتاب *الرصيد الأدبي الذهبي السوفييتي* موضوع فوق خزانة الإضبارات يكاد

يغلفه شال "بْنين" الأخضر كليا، في طابق آخر، في نهاية ممر رنّان، على مقربة من مراحيض الكلية. فإلى غاية سنة ١٩٥٠ (نحن الآن في سنة ١٩٥٣ ـ عجبا كيف ينقضي الوقت!)، ظل يشترك مكتبا بشعبة اللغة الألمانية مع "ميلر"، وهو واحد من المدرسين الشباب، ثم منح حينها، من أجل استعماله الخاص، المكتب "ر"، الذي كان عبارة عن غرفة للمتلاشيات، لكن تم تجديده الآن كلية. وخلال الربيع، أضفى عليه طابعا "بْنينيا" بمحبة غامرة. إذ جهزه بكرسيين وضيعين، ولوحة إعلانات فلّينية، وعلبة مادة خاصة بتلميع الأرضية تركها البواب، ومكتب وضيع ذي خشب غير معروف. احتال على الإدارة لينتزع منها خزانة فولاذية صغيرة ذات قُفْلٍ ساحر. قبل الشاب "ميلر"، الذي كان يحظى بإشراف "بْنين"، بسرور بأن يجلب الجزء الخاص بـ"بْنين" من مكتبة قابلة للتفكيك. كما اشترى "بْنين" من العجوز السيدة "ماكريستال" التي قضى في بيتها الخشبي الأبيض شتاء سيئاً (١٩٤٩ ـ ١٩٥٠) سجادا تركيا باهتا. وثبّت على جانب المكتب، بمساعدة البواب، مبراة لأقلام الرصاص ـ تلك الأداة المُرْضية جداً، والهادئة جدّاً ذات الصوت الرتيب، التي تتغذى على الخشب اللذيذ ذي اللون الأصفر، ثم ينتهي عملها بدوران صامت في فراغ أثيري، مثلما نفعل جميعا. كان يرسم خططا أخرى، أكثر طموحا، كأن يمتلك أريكة وفانوسا طويلا. عندما عاد "بْنين" إلى مكتبه، بعدما قضى صيفا كاملا يدرس بواشنطن، كان كلب سمين ينام متمددا على سجاده، بينما نُقِل أثاثه إلى ركن مظلم من المكتب، حتى يُفسَح المجال لمكتب حديدي مقاوم للصدأ وكرسي دوار حيث كان الباحث النمساوي الجديد الدكتور "بودو فون فالترنفيلس" جالسا يكتب ويبتسم لنفسه؛ ومنذ ذلك الحين، لم يعد المكتب يزدهر، بل بدأ يبلى، بالنسبة لـ"بْنين" على الأقل.

٥

عند الظهيرة، غسل "بُنين" يديه وجبينه، كما جرت العادة.

في المكتب "ر"، التقط معطفه والشال والكتاب والمحفظة. كان الدكتور "فالترنفيلس" يكتب ويتبسم. شطيرته نصف ملفوفة، وكلبه غارق في النوم حدّ الموت. نزل "بُنين" الأدراج المعتمة، وعبر رواق متحف المنحوتات. كانت قاعة شعبة العلوم الإنسانية، التي تضم على نحو غريب علوم الطيور والأنثروبولوجيا، تتصل ببناية آجُرّية أخرى، هي صالة "فريز" التي تشتمل على غرف العشاء ونادي الكلية، عبر رواق مفتوح ذي أسلوب زخرفي يحيل على فنون الروكوكو؛ يصعد ملتويا، ثم ينزل في انحدار شديد، قبل أن يتعرج نحو رائحة مألوفة تنبعث من رقائق البطاطس وكآبة وجبات متوازنة. في الصيف، تنتعش تعريشاتها بورود مرتعشة، لكن ريحا جليدية كانت تهبّ حينها عبر عُرْيها. وضع أحدهم قفازا أحمر على صنبور النافورة الجافة التي تنتصب حيث طريق فرعي للرواق المؤدي إلى بيت الرئيس.

بدأ الرئيس "بور"، ذلك العجوز الطويل والبطيء الذي يضع نظارات سوداء، يفقد بصره منذ بضع سنوات مضت، حيث صار حينها شبه أعمى. غير أن ابنة أخيه وكاتبته كانت تقوده كل يوم إلى صالة "فريز" بانتظام دائم. كان يأتي بوجه يتشح بكرامة قديمة، وهو يتقدم في عتمته الخاصة نحو مأدبة غير مرئية. ورغم أن الجميع اعتادوا منذ زمن طويل على دخوله المأساوي، كان ظل سكوني ثابت يسود المكان، عندما يُقاد إلى مقعده المنحوت، وعندما يتلمس حافة المائدة. كان من الغريب أن يُرى، خلفه على الجدار مباشرة، مظهره المنمق بسترة صدرية مزدوجة لونها بنفسجي وحذاء بنّي ضارب إلى الحمرة. كان يحدق بعينيه الأرجوانيتين المشعتين في المخطوطات التي تسلمها من ريتشارد فاغنر

ودوستويفسكي وكونفوشيوس، وهي مجموعة رسمها "أوليغ كوماروف"، من شعبة الفنون الجميلة، منذ عشر سنوات على الجدارية الشهيرة التي رسمها "لانغ" سنة ١٩٣٨، والتي تعكس على طول غرفة العشاء موكبا من الشخصيات التاريخية وأعضاء كلية "وايندبل".

أراد "بْنين" أن يسأل مواطنه عن شيء ما، فجلس بجانبه. "كوماروف" ذاك، وهو ابن قوزاقي، كان رجلا قصيرا ذا شعر مقصوص ومنخري الجمجمة التي ترمز إلى الموت. كان هو و"سيرافيما"، زوجته البدينة المرحة، ابنة موسكو التي وضعت تميمة تِبتيّة ضمن سلسلة فضية طويلة تنزل إلى بطنها الكبير الناعم، ينظمان حفلات روسية بين حين وآخر، بمقبّلات روسية وأنغام قيثارة وأغانٍ شعبية زائفة إلى حدّ كبير، وهي مناسبات تعلّم المتخرجين من الطلاب الخجولين طقوس شرب الفودكا وبعض العادات الروسية القديمة الأخرى. عقب تلك الحفلات، وبعد أن يلتقي "سيرافيما" و"أوليغ" بـ"بْنين"، (هي ترفع عينيها إلى السماء، بينما هو يحجب عينيه بيد واحدة)، كانا يهمسان بكلمات امتنان ذاتي مهيب: «يا رب، يا للنصيب الذي نمنحهم!» ـ يعود ضمير "هم" على الشعب الأمريكي الجاهل. وحده روسي آخر كان يفهم ذلك الخليط الرجعي الميّال إلى النزعة السوفييتية الذي يميز آل "كوماروف" النابضين بالحياة، اللذين كانا يعتبران أن المثال الروسي يتكون من الجيش الأحمر، وعاهل مسيح، ومزارع جماعية، وعلم طبائع البشر، والكنيسة الروسية، وسدود الطاقة الكهرومائية. كان "بْنين" و"أوليغ" في حالة حرب باردة على الدوام، لكن اللقاءات كانت محتومة، فيما كان زملاؤهما الأمريكيون، الذين كانوا يحسبون آل "كوماروف" "شخصين جليلين" ويسخرون من "بْنين" المضحك، متأكدين أن الرسّام و"بْنين" كانا صديقين رائعين.

يصعب الزعم، من دون إجراء بعض الاختبارات الخاصة، أيهما،

"بْنين" أو "كوماروف"، يتحدث الإنجليزية بشكل أسوأ، ربما الأسوأ هو "بْنين"، لكنه كان يرى، لأسباب تتعلق بالسنّ والتعليم العام والتدرب الأطول نسبيا على المواطنة الأمريكية، أن بإمكانه تصحيح تحريفات "كوماروف" العديدة في استعمال اللغة الإنجليزية، فيما استاء "كوماروف" من ذلك الأمر أكثر من امتعاضه من ليبرالية "بْنين" العتيقة.

«اسمع، يا "كوماروف"»، قال "بْنين" مخاطبا صاحبه بطريقة فظة. «لا أعرف أي شخص آخر هنا يمكن أن يرغب في هذا الكتاب؛ لا أحد من طلابي بالتأكيد، وإذا كنت أنت، فإنني لا أفهم لِمَ تريده على أي حال».

«لا أريده»، قال "كوماروف"، وهو يلقي نظرة عجلى على الكتاب. ثم أضاف باللغة الإنجليزية: «لست مهتما به».

حرّك "بْنين" شفتيه وفكّه الأسفل مرة أو مرتين بطريقة خرساء. أراد أن يقول شيئاً ما، لكنه لم يفعل، ثم استمر يأكل سلطته.

٦

بما أنه كان يوم ثلاثاء، كان بمقدوره أن يتمشى حتى عرينه المفضل مباشرة بعد الغذاء، ويبقى هناك حتى موعد العشاء. لا وجود لأي رواق يصل مكتبة كلية "وايندیل" بأي مبنى آخر، لكنها كانت موصولة بقلب "بْنين" على نحو حميمي وآمن. مرّ بـ"ألفوس فريز"، الوجه البرونزي العظيم لرئيس الكلية الأول، صاحب القبعة الرياضية والسروال القصير الواسع، وهو يمسك بقرني الدراجة البرونزية التي كان يوشك أن يمتطيها، بالنظر إلى وضع قدمه اليسرى الملتصقة بالدواسة اليسرى إلى الأبد. تكوّم الثلج على المقعد، وفي السلّة السخيفة التي ثبّتها ظرفاء عند

المقود. «هوليغاني»، صرخ "بْنين"، وهو يهز رأسه ـ وانزلق انزلاقا خفيفا على حجر الطريق التي تتعرج على منحدر معشوشب بين أشجار دردار عارية. كان يحمل، إلى جانب الكتاب الكبير تحت إبطه الأيمن، بيده اليسرى محفظته القديمة السوداء، التي تبدو أشبه بمحفظات أوربا الوسطى، والتي كان يؤرجحها بشكل إيقاعي عبر مقبضها الجلدي، وهو يتقدم نحو كتبه، نحو حجرته المكدسة، نحو جنة أساطيره الروسية.

حلّقت حمامات، في سرب دائري، رمادية في ارتفاعها، وبيضاء أثناء رفرفة أجنحتها، ثم رمادية ثانية، مخترقة السماء الشاحبة والشفافة فوق مكتبة الكلية. كان قطار يصفّر في البعيد، ويتفجع كما يفعل في السهوب. اندفع سنجاب هزيل فوق بقعة ثلجية تقع تحت ضوء الشمس، وحيث ظلّ جذع شجرة، يبدو أخضر زيتونيا فوق العشب، يتحول إلى أزرق رمادي وهو يتمدد، بينما الشجرة ذاتها ترتفع، وسط حفيف خفيف وسريع، عارية تعانق عنان السماء حيث اندفعت الحمامات للمرة الثالثة والأخيرة. هذر السنجاب، الذي احتجب الآن بين فروع الأغصان، موبخا الجانحين الذين قد يطردونه من شجرته. انزلق "بْنين" مجددا على الجليد الأسود المتسخ على الطريق المرصوفة، منتفضا في حركة مضطربة مفاجئة، ثم استعاد توازنه؛ وبابتسامة فريدة، انحنى ليلتقط كتاب *الرصيد الأدبي الذهبي السوفييتي*، الذي انفتح على صورة مرعى روسي يجتازه ليون تولستوي متجها نحو الكاميرا، وخلفه خيول ذات شعر طويل، رؤوسها البريئة مشرئبة نحو المصور أيضاً.

إلى القتال، أو إلى السفر، أو إلى الأمواج؟[1] أو إلى حرم كلية

(١) وردت هذه العبارة في النص الأصل باللغة الروسية. كما أنها وردت في سياق سابق من الرواية (المترجم).

"وايندیل"؟ صعد "بْنين" أدراج المكتبة المزلّقة. كان يلحس بهدوء طقم أسنانه الذي التصقت به طبقة لزجة من الجبن الأبيض.

كفّ "بْنين"، شأنه شأن العديد من أساتذة الكلية المتقدمين في السن، منذ زمن طويل عن الانتباه إلى وجود الطلبة في الحرم الجامعي، في الممرات، في المكتبة ـ باختصار، في أي مكان، ما عدا في تجمعات القسم التطبيقية. في البداية، شعر بانزعاج كبير، وهو ينظر إلى بعض منهم، إلى رؤوسهم الصغيرة البائسة المستندة على سواعدهم، التي سرعان ما تغرق في النوم وسط خراب معرفي، لكنه لم يعد يرى أحدا الآن في حجرة القراءة، ما عدا قفا فتاة جميلة هنا وهناك.

كان السيدة "ثاير" تجلس خلف مكتب الإعارة. كانت والدتها ابنة خال والدة "كليمانتس".

«كيف حالك اليوم، الأستاذ "بْنين"؟»

«أنا بخير، السيدة "فاير"».

«لم يعد "لورنس" و"جوان" بعد، أليس كذلك؟»

«لا. لقد أعدت هذا الكتاب، لأنني تلقيت هذه البطاقة..».

«أتساءل عما إذا كانت المسكينة "إيزابيل" ستطلّق فعلا».

«لم أسمع أي شيء عن ذلك. السيدة "فاير"، اسمحي لي بأن أسأل..».

«أفترض أننا سنجد لك غرفة أخرى، إذا أحضراها معهما».

«السيدة "فاير"، اسمحي لي بأن أسألك شيئاً آخر. هذه البطاقة التي تلقيتها البارحة، هل يمكن أن تخبريني من هو القارئ الآخر؟»

«دعني أبحث».

بحثت. تبين أن القارئ الآخر هو "تيموفي بْنين". كان قد طلب

الجزء الثامن عشر يوم الجمعة الماضية. صحيح أن ذلك الجزء الثامن عشر سبق أن استعاره "بْنين"، حيث ظل بحوزته منذ عيد الميلاد، وها هو يقف الآن، والكتاب بين يديه، مثل صورة قاضٍ عريقة.

«لا يمكن»، صرخ "بْنين". «لقد طلبت يوم الجمعة الجزء التاسع عشر، سنة ١٩٤٧، لا الجزء الثامن عشر، سنة ١٩٤٠».

«لكن انظر... لقد كتبت الجزء الثامن عشر. وفي كل الأحوال، مازال الجزء التاسع عشر في حوزة قارئ آخر. هل ستحتفظ بالجزء الآخر؟»

«١٨، ١٩»، دمدم "بْنين"، «ليس هناك فارق كبير! كتبت السنة بشكل صحيح، وذلك هو الأهم! نعم، مازلت في حاجة إلى الجزء الثامن عشر... ابعثي لي بطاقة صحيحة عندما يصبح الجزء التاسع عشر في المتناول».

ظل يدمدم لبعض الوقت. أخذ الكتاب الثقيل، ملفوفا في شاله، إلى مقصورته المفضلة، ثم وضعه هناك.

هؤلاء النسوة.. لا يقرأن. كان ذلك واضحا جدّاً طيلة السنة.

توجه على جري عادته نحو قاعة الدوريات. هناك ألقى نظرة على الأخبار في آخر عدد من اليومية الناطقة بالروسية (ليوم السبت ١٢ فبراير ـ واليوم هو الثلاثاء، أيها القارئ المستهتر!) التي تنشرها جماعة من المهاجرين في شيكاغو منذ سنة ١٩١٨. اطلع كما العادة على الإعلانات بإمعان. كان الدكتور "بوبوف"، الظاهر في الصورة بوزرته البيضاء الجديدة، يعد الأشخاص المسنّين بحيوية وفرح جديدين. بينما تضع شركة موسيقية قائمة بالسجلات الفونوغرافية الروسية المعروضة للبيع، مثل "حياة منكسرة، رقصة فالس" و"أغنية سائق الخطوط الأمامية". ويمتدح متعهد بدفن الموتى، أشبه بـ"غوغول" إلى حد ما، عرباته الخاصة بنقل الموتى، التي يتيحها كذلك للنزهات. ويعرض شخص

"غوغولي" آخر بميامي «شقة من غرفتين لغير شاربي الكحول، تقع بين الأشجار والورود»، بينما تعرض بمدينة "هاموند" غرفة أحلام «وسط عائلة هادئة» ـ ثم رأى القارئ فجأة، لا لسبب خاص، بوضوح حماسي وتافه، والديه الدكتور "بافيل بْنين" و"فاليريا بْنين"، هو يحمل مجلة طبية، بينما تحمل هي مجلة سياسية، وهما جالسان على مقعدين متقابلين، داخل صالون مضاء بنور خافت مبهج، ببيتهما بشارع "غاليرنايا" في مدينة سانت بيترسبورغ، قبل أربعين سنة.

كما قرأ بتمعن الخبر المتداول حول سجال طويل جدّاً ومضجر بين ثلاث فصائل من المهاجرين. انطلق هذا السجال باتهام الفصيل "أ" الفصيل "ب" بالعطالة وبكونه يجسد المثال القائل: «يتمنى أن يتسلق شجرة التنوب، لكنه يخشى أن يخدش ساقيه». استفزه ذلك لكتابة رسالة لاذعة إلى رئيس التحرير من "متفائل قديم"، عنوانها "أشجار التنوب والعطالة"، جاء مطلعها كما يلي: «ثمة مقولة أمريكية قديمة، مفادها أن "من يعيش ببيت زجاجي، يجب ألا يسعى إلى قتل عصفرين بحجر واحد"». وتضمن العدد الراهن ورقة من ألفي كلمة، تحمل توقيع ممثل عن الفصل "ت"، عنوانها "في أشجار التنوب والبيوت الزجاجية والتفاؤل"، حيث قرأها "بْنين" باهتمام وتعاطف بالغين.

بعد ذلك، عاد إلى مقصورته بين رفوف الكتب من أجل البحث.

ارتأى أن يكتب مختصرا في تاريخ الثقافة الروسية، يقدم فيه اختيار الأطوار الغريبة والعادات والنوادر الأدبية الروسية وغيرها بطريقة تعكس بشكل مصغر التاريخ الأكبر؛ أي التسلسل العام للأحداث. كان ما يزال في مرحلة جمع المادة، حيث رأى شباب طيبون كثيرون في الأمر متعة وفخرا، وهم يتابعون "بْنين" يسحب جارور الفهارس من قلب خزانة البطائق الكبيرة، ويحمله، مثل حبة جوز ضخمة، إلى ركن منزوٍ،

ويحوّله هناك إلى وجبة ذهنية هادئة، تارة ينبس بتعليق صامت، أو نقد، أو رضا، أو حيرة؛ وتارة يرفع حاجبيه البدائيين ويتركهما على حالهما في أعلى جبينه العريض وقتاً طويلا قبل أن تنمحي جميع آثار الاستياء أو الشك. كان محظوظا بوجوده في كلية "وايندبل". في زمن ما من التسعينيات، زار جامع الكتب المرموق "جون ثورستن تود"، العالم باللغات السلافية، (صاحب التمثال الملتحي المطل على نافورة مياه الشرب) روسيا المضيافة. وبعد موته، سُرّبت الكتب التي جمعها عبر قناة ضيقة تدريجيا نحو قعر سحيق. سيرتدي "بْنين" قفازات مطاطية حتى يجنب نفسه صعقات الكهرباء الأمريكية المتسربة عبر الرفوف الحديدية، وسيبحث عن تلك الكتب ويتأمل فيها بحبور؛ من بينها مجلات مجهولة ذات أغلفة معرّقة تعود إلى زمن الستينيات الصاخب، ورسائل تاريخية يزيد عمرها عن قرن، صفحاتها المخدرة ملطخة ببقع فطرية، وكلاسيكيات روسية أغلفتها ذات نقوش مزرية وبئيسة، تُذكّر لمحاتُها الموجزة عن الشعراء "بْنين" الساذج بطفولته، عندما كان يتلمس عابثا غلاف الكتاب، مداعبا سبلة بوشكين البالية أو أنف "زوكوفسكي" الملطخ.

واليوم، شرع "بْنين" يستنسخ من كتابِ "كوسترومسكوي" الضخم (موسكو، ١٨٥٥) حول الأساطير الروسية ـ وهو كتاب نادر لا يمكن أن ينقل خارج المكتبة ـ بأنّة حزينة، مقتطفا يحيل على ألعاب وثنية قديمة كانت ما تزال تمارس آنذاك في أحراش الفولغا العليا، على هامش الطقوس المسيحية. إذ كانت المزارِعات الشابات يصنعن، خلال أسبوع الاحتفالات من شهر ماي ـ الذي عرف باسم "الأسبوع الأخضر" قبل أن يتحول إلى أسبوع العنصرة ـ، أكاليل من زهور الحوذان والأوركيد، ثم يغنّين نُتَفاً من أغاني الحب القديمة، ويعلقن تلك الأكاليل على أغصان الصفصافات على ضفة النهر؛ وفي يوم الأحد من أسبوع العنصرة،

تُحرّك الصفصافات حتى تسقط الأكاليل في النهر، حيث تتفكك وتطفو فوق الماء كأنها ثعابين كثيرة، بينما تعوم الشابات ويغنّين بين الأكاليل السابحة.

ثمة ربط غريب بين الكلمات لفت انتباه "بْنين" في تلك اللحظة، لم ينجح في الإمساك برأس خيطه الناعم، لكنه دوّن ملحوظة في بطاقة مذكرته، ثم غاص ثانية في "كوسترومسكوي".

عندما رفع "بْنين" عينيه مجددا، كان وقت العشاء قد حان.

نزع نظاراته. فرك بمفاصل اليد التي تحملها عينيه العاريتين والمتعبتين. بينما كان ما يزال غارقا في التفكير، ألقى نظرة باردة على النافذة في الأعلى، حيث تظهر له تدريجيا، من خلال تأمله المتلاشي، زرقة الغسق المتشحة بمسحة بنفسجية، وهي تتخذ لونا فضيا بفضل انعكاس الأضواء المشعّة في السقف، كما يظهر من بين الأغصان السوداء المتشابكة انعكاس رفّ أغلفة كتب ساطعة.

قبل أن يغادر المكتبة، قرر أن يبحث عن النطق السليم لكلمة "إنتريستيد"[1]. اكتشف أن قاموس "ويبستر"، أو على الأقل النسخة المهلهلة من طبعة سنة ١٩٣٠ المبسوطة فوق الطاولة في قاعة التصفح، لا يفخّم النبر في المقطع اللفظي الثالث، كما يفعل هو. بحث عن قائمة الأخطاء في آخر الكتاب، فلم يجد أي شيء. لكنه أدرك، وهو يغلق القاموس الضخم، بنوع من الذعر، أنه دفن بين دفتيه بطاقة مذكرته التي ظل يحملها بيديه طيلة الوقت. كان عليه أن يبحث عنها حينها، أن يبحث بين الصفحات الرقيقة الألفين وخمسمائة، الممزق بعضها! اقترب منه السيد "كايس" اللطيف، المكتبي النحيل ذو الوجه الوردي والشعر

---

(1) Interested.

الأشيب الناعم وربطة الفراشة، عندما سمع تعجبه. حرّك القاموس حركة خفيفة، سقط على إثرها مشط صغير، وبطاقة لعيد الميلاد، ومذكرة "بْنين"، وطيف ورقة شفافة، تهاوى بتراخٍ متناهٍ حتى قدمي "بْنين"، ليعيدها السيد "كايس" إلى صفحة الأختامٍ الكبرى للولايات والأقاليم المتحدة.

وضع "بْنين" بطاقة مذكرته في جيبه. أثناء ذلك، تذكر من دون أي إغراء، ما كان يجب أن يتذكره قبيل لحظات:

... plīla i pela, pela i plīla...

... طفت وغنّت، غنّت وطفت...

طبعاً! إنه موت "أوفيليا"! *هامليت*! في ترجمتها الروسية القديمة لـ"أندري كرونبورغ"، الصادرة سنة ١٨٤٤ ـ مبعث السعادة في صبا "بْنين" وأيام شباب والده وجدّه! هنا، كما في مقتطف "كوسترومسكوي"، ثمة أيضاً، كما نتذكر، صفصاف وأكاليل. لكن أين يمكن البحث عنها بالضبط؟ للأسف، لم يحصل السيد "تود" على «"غامليت" فيلياما شكسبيرا»[1]، وهي غير متوفرة بمكتبة كلية "وايدنيل". كلما وجدت نفسك مضطرا للبحث عن شيء ما من هذا القبيل في النسخة الإنجليزية، لن تعثر على هذا أو ذاك البيت الرائع والفخم والرنان الذي ستظل تتذكره طيلة حياتك، والوارد في ترجمة "كرونبورغ" في طبعة "فانجيروف" الأنيقة. يا له من أمر محزن!

بدأ الليل يرخي سدوله على الكلية الحزينة. في الأفق البعيد، هناك

(١) «"هامليت" لوليم شكسبير»، ويبدو أنه العنوان الذي يقترحه السارد للترجمة الروسية المفترضة للمسرحية المذكورة (المترجم).

في التلال الحزنى البعيدة، كان قعرُ سماءٍ أشبه بقوقعة سلحفاة يتلكأ خلف كتلة سحاب. كانت أنوار مدينة و"ايندیلفيل" المفجعة، التي تخفق بين ثنايا تلك التلال الداكنة، ترسل سحرها المعتاد، رغم أن المكان، كما يعلم "بُنين" جيدا، يتحول، عندما يصل الزائر إلى هناك، إلى مجرّد صفّ من البيوت الآجرية، ومحطة خدمات، وحلبة تزلج، وسوق ممتاز. ما إن انتقل "بُنين" إلى الحانة الصغيرة الواقعة في زقاق المكتبة، ليتناول شريحة كبيرة من لحم الخنزير ويشرب قنينة جعة جيدة، حتى شعر فجأة بتعب شديد. لم يعد كتاب *الرصيد الأدبي الذهبي السوفييتي* أثقل فحسب بعد زيارته التافهة إلى المكتبة، لكن شيئاً ما، تناهى إلى سمعه خلال النهار، ولم يرغب في متابعته، صار يضايقه حينها ويعذبه، مثلما يفعل في وقت لاحق خطأ فادح ارتكبناه، أو زلة لسان انفلتت منا، أو تهديد اخترنا أن نتجاهله.

٧

بينما كان "بُنين" يحتسي قنينة ثانية بتمهل، كان يناقش مع نفسه خطوته الموالية، أو بالأحرى، يتوسط بين "بُنين" ذي العقل المتعب الذي لم يكن ينام بشكل جيد خلال الليالي الأخيرة، و"بُنين" النهِم الذي يأمل مواصلة القراءة في البيت، كما جرت عادته، إلى غاية الساعة الثانية بعد منتصف الليل، عندما يعوي قطار البضائع بأنينه شاقا طريقه عبر التلال. قرر أن يأوي إلى سريره مباشرة بعد أن يحضر البرنامج الذي يقدمه العاطفيان "كريستوفر" و"لويز ستار" الثلاثاء الثاني من كل شهر بـ"نيو هال"، حيث يستمع الجمهور إلى موسيقى طليعية ويشاهد أفلاما غير مألوفة، قال عنها الرئيس "بور"، ردّاً على بعض الانتقادات السخيفة

العام الماضي، إنها «ربما تكون المغامرة الأكثر إلهاما في المجتمع الأكاديمي برمته».

كتاب *الرصيد الأدبي الذهبي السوفييتي* ساكن الآن في حضن "بْنين". على يساره جلس طالبان هندوسيان. وعلى يمينه جلست ابنة البروفيسور "هاغن"، الطالبة المستهترة التي تدرس الفنون الدرامية. فيما كان "كوماروف"، من حسن الحظ، يجلس بعيدا جدّاً في الصفوف الخلفية، إلا أن ملاحظاته التي نادرا ما اكتست أهمية ما كانت تفوق طاقته على التحمّل.

ضجر صاحبُنا من الجزء الأول من البرنامج، الذي ضم ثلاثة أفلام قصيرة؛ لم يَعْنِ له أي شيء ذلك العكاز، وتلك القبعة، وذلك الوجه الأبيض، وذانك الحاجبان المقوسان الأسودان، وذانك المنخران المتوتران. ظل "بْنين" المحافظ، الذي يفتقد حس الدعابة، فاترا غير مبالٍ، سواء رقص الممثل اللايقارن مع حوريات مصطفّات قرب صبّار مترقّب، أو أصبح رجلا من عصر ما قبل التاريخ (وصار العكاز الليّن هراوة طيّعة)، أو ألقى عليه الممثل "ماك سواين" نظرة فظّة داخل نادٍ ليليّ صاخب. «مهرج»، دمدم "بْنين" في نفسه، «حتى "غلوبيشكين" و"ماكس ليندر" كانا أكثر إتقانا للهزل والإضحاك».

كان الجزء الثاني من البرنامج عبارة عن فيلم وثائقي سوفييتي مؤثر أُخْرِج في أواخر الأربعينات. كان يفترض ألا يتضمن مثقال ذرة من الدعاية، وأن يكون فنّاً خالصا برمته، وعملا ممتعا، وانتشاء بعمل باعث على الفخر. كان هناك فتيات جميلات ومبهدلات يتابعن استعراضَ مهرجان ربيعي قديم، وهن يحملن لافتات تعكس نُتَفاً من أغانٍ روسية قديمة، مثل: «ارفعوا أياديكم أمام كوريا»[1]، «السلام ينتصر على

(1) Ruki proc hot Korei, Bas les mains devant la Corée.

الحرب»[1]. وطائرة إسعاف تظهر، وهي تعبر جبالا تكسوها الثلوج في تاجيكيستان. وممثلون قرغيزيون يزورون مصحة منجميين، تقع وسط أشجار النخيل، حيث قدموا هناك مسرحية مرتجلة. وفي مرعى جبلي في مكان ما من أوسيتيا الأسطورية، ينبئ راعٍ وزارة الفلاحة المحلية التابعة للجمهورية، عبر جهاز الراديو المحمول، بميلاد حَمَل. وميترو موسكو يتلألأ، بأعمدته وتماثيله، بينما يجلس ستة مسافرين على ثلاثة مقاعد رخامية. وعائلة عمال مصنع تقضي مساء هادئاً بالبيت، جميعهم يرتدون ملابس رسمية، وهو جالسون في ردهة مكدسة بنباتات التزيين، أسفل أباجورة حريرية كبيرة. وثمانية آلاف من جمهور كرة القدم يتابعون أطوار مقابلة تجمع بين "توربيدو" و"دينامو". وثمانية آلاف مواطن بمصنع التجهيزات الكهربائية بموسكو يجمعون على اختيار ستالين مرشحا للانتخابات التي ستجري بمقاطعة ستالين بموسكو. وآخر مسافر على متن رحلات "زيم" ينطلق رفقة عائلة عمال المصنع وبعض الأشخاص الآخرين في نزهة في البلد. وثم...

«لا ينبغي، لا ينبغي... آه، إنه أمر سخيف»، قال "بْنين" في قرارة نفسه، عندما شعر ـ لأسباب مجهولة، وسخيفة، ومهينة ـ أن مآقيه تذرف دموعا طفولية حارقة، دون أن يقوى على كبحها.

في ضباب تخترقه أشعة الشمس ـ كانت الشمس تسلط أشعتها في خيوط ضبابية بين الجذوع البيضاء لأشجار البتولا، فتبلل أوراقها المتدلية، وترتجف القطرات فوق ثقوب لحائها، وتتقطر فوق العشب الطويل، ثم تتلألأ وتتبخر وسط ظلال أشجار الكرز المزهرة ـ كانت الغابة الروسية تحجب صاحبنا الهائم. تخترقها طريق غابوية قديمة ذات

---

(1) La paz vencera a la guerra, Der Friede besiegt den Krieg.

أخدودين منخفضين يشهدان على حركة مرور دؤوبة، ويحفهما الفطر والأقحوان. كان صاحبنا الهائم مازال يتابع في ذهنه السير عبر ذلك الطريق، وهو عائد إلى مسكنه العتيق، بعدما أصبح من جديد ذلك الشاب الذي كان يقطع تلك الغابة حاملا كتابا ضخما تحت إبطه. تفرعت الطريق إلى ذلك البهاء الرومانسي الحر والمحبوب المتجسد في برّية عظيمة لم يجعلها الزمن جرداء (حيث الخيول تعدو وتحرك شعرها الفضي وسط الورود الباسقة)، عندما بدأ النعاس يغالب "بْنين"، الذي صار الآن دافئاً تماماً في سريره، وبجانبه منبهان يتكتكان فوق منضدته، أحدهما مضبوط على الساعة السابعة والنصف، والثاني على الثامنة.

انحنى "كوماروف"، الذي كان يرتدي قميصا أزرق سماويا، على قيثارته، وشرع يضبط أنغامها. كانت حفلة عيد ميلاد جارية، بينما أدلى "ستالين" الهادئ بورقته، دون أن يصدر عنها أي صوت، أثناء انتخاب من سيحملون نعشه من أعضاء الحكومة. في القتال، أثناء السفر... الأمواج أو "وايندبل"... «رائع!» قال الدكتور "بودو فون فالترنفيلس"، وهو يرفع رأسه عما كان يكتبه.

كاد "بْنين" يغرق في نسيان مخملي عندما وقعت حادثة مخيفة في الخارج. كان تمثال يصدر ضجيجا هادرا حول عجلة برونزية مكسورة، وهو يئن ويمسك بجبينه ـ حينها استفاق "بْنين"، ثم شرعت قافلة أضواء وخيالات حدباء تتقدم عبر النافذة. اصطفق باب سيارة قبل أن تنطلق. فتح مفتاح باب البيت الهش الشفاف. ارتفعت ثلاثة أصوات مدوية. أضيئت أنوار المنزل، وظهر الضوء عبر الشق أسفل باب غرفة "بْنين"، فسرت قشعريرة في عروقه. كانت حمى، بل عدوى. وفي غمرة الخوف والعجز، سمع "بْنين" الأدرد، الذي كان يرتدي قميص النوم، حقيبة

ذات رجل واحد تجرّ على الأدراج بخفة، وقدمين شابتين تصعدانها بطريقة مألوفة. كان بمقدوره أن يسمع أنفاسها المتشوقة... في الواقع، كان من شأن العودة السعيدة إلى الديار من مخيمات صيفية كئيبة أن تجعل "إيزابيل" تفتح باب غرفة "بْنين" بركلة، لو لم تحذرها والدتها في اللحظة المناسبة.

الفصل الرابع

١

جلس الملك، والده، الذي كان يرتدي قميصا رياضيا أبيض ناصعا مفتوحا على العنق وسترة شديدة السواد، خلف مكتب كبير، على سطحه الصقيل انعكس نصفه العلوي، حيث بدا كأنه ورقة لعب. بدت جدران الاجتماعات الفسيحة قاتمة بصور الأجداد. من ناحية أخرى، لم يكن مكتبه مختلفاً عن مكتب المدير بمدرسة "سانت بارت" المطل على ضفة المحيط الأطلسي، الواقع غرب القصر المتخيل على بعد نحو ثلاثة آلاف ميل. ظل مطر ربيعي غزير ينهمر على النوافذ العريضة، التي تظهر خلفها، لكل عين، خضرة فتية مبللة ومرتعشة. ولا شيء يفصل ويحمي القصر من الثورة التي تهز المدينة سوى هذه الصفحة من المطر... في الواقع، كان والد "فيكتور" طبيباً لاجئاً مخبولا، لم يحبّه الفتى أبدا، ولم يرَه منذ نحو سنتين.

قرر الملك، والده الأكثر جدارة بالتصديق، ألا يتنازل عن العرش. لم تعد أي جريدة تصدر. أوقف قطار الشرق السريع، بجميع ركّابه العابرين، في محطة بالضاحية، على رصيفها يقف ريفيون رائعون، تنعكس صورهم على صفحات البِرَك، أفواههم مفغورة في نوافذ العربات الطويلة والغامضة ذات الستائر. فالقصر، والحدائق المبثوثة بمحاذاة شرفاته، والمدينة الممتدة على سفح التلّ الذي شيّد عليه

القصر، وساحة المدينة الرئيسية، حيث انطلق ضرب الأعناق والرقصات الشعبية، رغم الطقس الرديء ـ كل هذا كان يقع في قلب صليب ينتهي ذراعاه في "تريستي"، "غراتس"، "بودابيست" و"زاغرب"، كما يحددها *"أطلس العالم"*. وفي قلب ذلك القلب، جلس الملك، شاحبا وهادئا، حيث بدا على العموم أشبه لابنه، حتى تخيل ذلك التلميذ أن هذا الأخير سيصير الملك نفسه في سن الأربعين. كان شاحبا وهادئا، يحمل بيده فنجان قهوة، ويسند ظهره إلى النافذة الزمردية الرمادية. جلس الملك ينصت إلى رسول مقنّع، وهو نبيل عجوز بدين ذو عباءة مبللة، نجح في أن يشق طريقه وسط الثورة والمطر، من مبنى مجلس المدينة المحاصر إلى القصر المعزول.

«التنازل! إنه ثلث حروف الأبجدية!» سخر الملك ببرود، لكن بنبرة توكيد. «الجواب هو الرفض. إنني أفضل المنفى المجهول».

كان الملك الأرمل، وهو يتلفظ بهذا الكلام، يحدق في صورة امرأة ميتة جميلة موضوعة على المكتب، في عينيها الزرقاوين الواسعتين وشفتيها القرمزيتين (كانت صورة ملونة لا تناسب الملك، لكن ذلك لا يهم). كانت الزنابق، التي أزهرت قبل الأوان بشكل مفاجئ، ترتطم بالنوافذ المبللة بقوة، تبدو أشبه بملثمين أوصدت الأبواب في وجوههم. انحنى الرسول وتراجع خطوات إلى الوراء، سالكاً دهاليز ذلك المكتب المقفر، متسائلا في قرارة نفسه عما إذا كان خروجه من التاريخ بمفرده، والإسراع إلى فيينا حيث بعض أملاكه لن يكونا قرارا حكيما... في الواقع، لم تمت والدة "فيكتور" فعلا، بل هجرت والده الدائم الدكتور "ويند" (الذي يوجد حاليا في جنوب أمريكا)، وكانت على وشك أن تتزوج في "بوفالو" من رجل يدعى "تشورتش".

انغمس "فيكتور"، ليلة بعد أخرى، في تلك النزوات العذبة،

محاولا أن يستحث النوم في مهجعه الذي كان معرّضا لجميع أشكال الضجيج داخل غرفة النوم الهائجة. على العموم، لم يصل بعد إلى حلقة الفرار الأساسية تلك، عندما انطلق الملك وحيدا (كما تسمى عزلة الملك عند من يجيدون إثارة المشاكل في لعبة الشطرنج) بسرعة على شاطئ البحر البوهيمي، إلى رأس العواصف حيث وعده "بيرسيفال بلايك"، المغامر الأمريكي السعيد، أن يقابله بزورقه ذي المحرك القوي. بالفعل، كان فعلُ تأجيل تلك الحلقة المثيرة والمسكّنة في حد ذاتها، وتمديد غوايتها في حد ذاتها، التي تأتي في مقدمة تلك النزوة المتكررة، بمثابة النابض المحرك لأثرها المنوّم.

كانت مصادر أوهام "فيكتور" واضحة، منها فيلم إيطالي صُوِّر في برلين من أجل الاستهلاك الأمريكي، بطله شاب ذو عينين برّيتين وسروال منكمش يطارده عميل متعدد بين الأحياء الفقيرة والخرائب وماخور أو ماخورين؛ ونسخة من مسرحية «زهرة كزبرة الثعلب القرموزية»[1] التي قدمت مؤخرا على مسرح مدرسة البنات "سانت مارثا" القريبة؛ وقصة كافكاوية مجهولة منشورة في مجلة طليعية سابقا كان يقرأها السيد "بينانت"، وهو إنجليزي مكتئب صاحب سوابق، بصوت مرتفع في القسم؛ أخيراً وليس آخرا، بقايا أوهام عائلية متنوعة قديمة العهد حول فرار المثقفين الروس من نظام لينين منذ خمسة وثلاثين عاما. كانت تلك المصادر ذات أثر كبير في زمن ما، لكنها صارت الآن ذات نفع واضح، باعتبارها عقارا بسيطا ومسلّيا.

---

(١) هي في الأصل رواية من تسعة أجزاء ظهرت سنة ١٩٠٥. وهي تروي مغامرات رومانسية وقعت إبان الثورة الفرنسية، بطلها السير برسي بلاكني المعروف بجسارته وإقدامه.. إلا أن هذه القصة لم يُكتب لها النجاح حتى تحولت إلى مسرحية. وظلت هذه المسرحية/ الرواية تُمثل على مسارح لندن طيلة أربع سنوات متوالية. ومؤلفتها هي البارونة "إيما أورسي" (١٨٦٥- ١٩٤٧) (المترجم).

كان عمره أربعة عشر عاما، لكنه بدا أكبر بسنتين أو ثلاثة ـ ليس نتيجة طوله الضامر الذي يبلغ قرابة ستة أقدام، وإنما بسبب طمأنينة عفوية في السلوك، وتعبير عن تحفظ ودود عن ميزاته البسيطة لكن الصريحة، وغياب تام للرعونة أو الحزم الذي أضفى نورا على خجله ودماثة مجردة على سلوكاته الهادئة، دون أن يَمَّحِي تواضعه أو يزول تحفظه. تحت عينه اليسرى شامة بنّية في حجم سَنْتٍ تقريبا، تطبع شحوب خدّه. لا أظنه أحبّ أحدا.

في سلوكه تجاه والدته، حلّت كياسة عذبة منذ زمن طويل محلّ التعلق الطفولي الشغوف. كان كل ما سمح به لنفسه تنهداً باطنياً يعبر عن إذعان ممتع للقدر عندما كانت تُمتع الغرباء في حضوره، بلغتها الإنجليزية النيويوركية السلسة والمبتذلة، بنبراتها الأنفية الخشنة وسقوطها الناعم في حشو المسكوكات الروسية، بقصص سمعها مرات لا تحصى، كانت إما بالغة التطريز وإما وهمية. من بين هؤلاء الغرباء، سيتفوه الدكتور "ويند"، الذي يفتقد تماماً حس الدعابة ويظن أن لغته الإنجليزية (التي اكتسبها بثانوية ألمانية) معصومة من الخطأ، بعبارة هزلية مبتذلة، بصعوبة بالغة، حيث تلفظ بكلمة "بركة"، وهو يتحدث عن المحيط، بنبرة واثقة ومرحة كمن يقدم لجمهوره هدية ثمينة عبارة عن تعبير عامي أخّاذ. وقد فعل والداه، بصفتهما طبيبين نفسيين، ما بوسعهما أن ينتحلا شخصيتي "لايوس" و"جوكاستا"، لكن الفتى أثبت أنه "أوديب" صغير عادي جداً. ولئلا يضطرب المثلث المطابق لرواية فرويد (الأب، الأم، الطفل)، لم يشر أحد أبدا إلى زوج "ليزا" الأول. إذ لم تخبره "ليزا" أنها كانت زوجة "بْنين" قبل أن تغادر أوربا، إلا عندما بدأ زواج آل "ويند" يتصدع، فوْر تسجيل "فيكتور" في مدرسة "سانت بارت".

قالت له إن زوجها السابق هاجر إلى أمريكا أيضاً، وإنه سيلتقي بـ"فيكتور" عما قريب. ومادام أن كل ما لمّحت إليه "ليزا" (بعينيها الحوراوين المتلألئتين المفتوحتين على وسعهما) غشيته على نحو ثابت طبقة من الغموض والسحر، فقد اكتسبت شخصية "تيموفي بْنين" العظيم، الباحث والرجل النبيل الذي يدرس لغة ميتة عمليا بكلية "وايندیل" الشهيرة التي تقع على بعد نحو ثلاثمائة ميل شمال غرب "سانت بارت"، سحرا عجيبا في ذهن "فيكتور" المتفتح، شبها عائليا بأولئك الملوك البلغار أو الأمراء المتوسطيين الذين اشتهروا فيما مضى عالميا بخبرتهم في مجال الفراشات أو أصداف البحر. لذلك أحسّ بالمتعة عندما انخرط معه الأستاذ "بْنين" في مراسلة رصينة ومهذّبة، برسالة أولى صاغها بلغة فرنسية جميلة، لكنه رقنها بلامبالاة، تلتها بطاقة بريدية هي صورة *السنجاب الرمادي*. كانت تلك البطاقة تقع ضمن سلسلة تربوية تصور *ثدييانا وطيورنا*، حيث حصل "بْنين" على السلسلة بأكملها لأجل تلك المراسلة على الخصوص. ابتهج "فيكتور" عندما علم أن كلمة "سنجاب" اشتقت من كلمة يونانية تعني «ذيل الظل». دعا "بْنين" "فيكتور" ليزوره خلال العطلة الموالية، وأخبره أنه سيستقبله بمحطة الحافلات بـ"وايندیل". كتب له باللغة الإنجليزية: «لكي تتعرف علي، سأضع نظارات سوداء، وسأحمل حقيبة سوداء وطُرّتي الفضية».

٣

انشغل "إريك" و"ليزا ويند" معا بموضوع الوراثة بشكل مرَضي، حيث استبدّ بهما القلق حول العامل الوراثي، بدل أن يبتهجا بنبوغ "فيكتور" الفني. فالفن والعلم كانا ماثلين في الماضي العريق. هل على المرء أن يقتفي أثر شغف "فيكتور" بالأصباغ في أعمال "هانس

أندرسن" (إذ لا نسب له بهذا الدنمركي)، الذي كان فنانا في صباغة الزجاج قبل أن يفقد عقله (وكان يظن نفسه راهبا) بعد أن تزوجت ابنته المحبوبة صائغا ذا شعر رمادي بمدينة هامبورغ، كان قد ألّف بحثا حول الياقوت، وهو جد "إريك" من أمّه؟ أم أن تحكّم "فيكتور" شبه المرَضي في الريشة والقلم كان نتاج علم "بوغولييوف"؟ إذ لم يكن جدّ والدة "فيكتور" الأكبر، الابن السابع لراهب البلدة، سوى ذلك العبقري الفذ "فيوفيلاكت بوغولييوف"، الذي لم يكن ينافسه على لقب الرياضي الروسي الأعظم إلا "نيكولاي لوباشيفسكي". وفي ذلك ما يثير دهشة المرء.

النبوغ تباين واختلاف. ففي سن الثانية، لم يكن "فيكتور" يأتي بخربشات حلزونية ترمز إلى أزرار أو كوّات، كما يفعل ملايين الصغار. لِمَ لا أنت؟ بشغف كان يرسم دوائره كاملة الاستدارة ومحكمة الإغلاق. فإن طلبت من طفل في سن الثالثة أن ينسخ مربعا، فإنه سيرسم زاوية سهلة التمييز، ثم سيجعل، وهو مطمئن، ما تبقى من الخطاطة متموجا أو دائريا. لكن "فيكتور" لم ينسخ في سن الثالثة المربعَ المثالي إلى حد بعيد، ذاك الذي رسمته الباحثة (الدكتورة "ليزا") بدقة هازئة فحسب، بل أضاف مربعا أصغر إلى جانب النسخة. لم يسلك أبدا تلك المرحلة الأولية من النشاط التخطيطي، عندما يرسم الأطفالُ أناسا يشبهون الشراغف، أو أشكالا بيضوية ذات أرجل أشبه بحرف اللام وأيدٍ أصابعها كأسنان مجرفة. في الواقع، فقد أعرض عن الأشكال البشرية كلها. وعندما ألحّ عليه والده (الدكتور "ويند") ليرسم والدته (الدكتورة "ليزا ويند")، استجاب بإبداع شكل متموج جميل، قال عنه إنه ظلّها المنعكس على الثلاجة الجديدة. وفي سن الرابعة، أنجز لوحده رسماً مرقطا. وفي الخامسة، بدأ يرسم أشياء من منظورات معينة ـ جانب مصغر بشكل رائع من جدار، شجرة تبدو صغيرة في المدى البعيد، شيئاً يكاد

يحجب شيئاً آخر. وفي السادسة، كان "فيكتور" قد تمكن من أن يتبيّن ما لم يتمكن راشدون كثُر من رؤيته أبدا ـ كألوان الظلال، والفوارق اللونية بين ظلال برتقالة وظلال ريشة أو حبة أفوكادو.

كان "فيكتور"، في نظر آل "ويند"، طفلا مشكلة، لأنه رفض أن يكون مُفردا. من وجهة نظرهما، فكلُّ طفل ذكر تتملكه رغبة جارفة في أن يخصي والده، ويستبد به الحنين إلى أن يلج جسد والدته ثانيةً. لكن "فيكتور" لم يظهر أي خلل سلوكي، حيث لم يكن يدخل إصبعه في أنفه، أو يمصّ إبهامه، بل لم يكن يقضم أظافره. وقد أخضع الدكتور "ويند" ابنه المنيع لاختبارات نفسية بالمعهد على يد زوجين أجنبيين، هما الدكتور "ستورن" وزوجته البشوشة (أنا "لويس" وهذه "كريستينا")، وذلك بغية محو ما كان يسميه، هو المهووس بالمجسّات، بـ"سكون العلاقات الشخصية". غير أن النتائج كانت إما مهولة، وإما عديمة القيمة؛ ذلك أن الطفل البالغ من العمر سبع سنوات برهن، في اختبار "غودونوف" الخاص برسم الحيوانات، على بلوغه سنّا ذهنيا حساسا لشخص في السابعة عشرة من عمره، بينما هوى به اختبار "فيرفيو" الخاص بالبالغين، في حينه، إلى سن ذهني لرضيع في سنته الثانية. كم من عناية، ومهارة، وابتكار استغرقته تلك التقنيات المدهشة! ويا لخجل بعض المرضى الذين يرفضون الاستجابة! هناك مثلا اختبار جمعية "كانتروزانوف" المجاني، الذي يطلب فيه من الصغيريْن "جاين" أو "جو" الردّ على كلمة مستفزة مثل: مائدة، بطة، موسيقى، مرض، كثافة، أسفل، عميق، طويل، سعادة، فاكهة، أمّ، فطر... وهناك لعبة "بييفر" لاختبار درجة الاهتمام (وهي نعمة في العشايا الماطرة)، التي يطلب فيها من الصغيريْن "سام" أو "روبي" الإجابة بوضع علامة أمام الأشياء التي تشعره بالخوف مثل: موت، سقوط، حلم، أعاصير، جنائز، الأب، ليل، عملية، سرير، حمام، حشد،

وهلم جرّاً. وهناك اختبار "أوغوستا أنغست" التجريدي، الذي يدفع فيه الصغير إلى اختيار لائحة من المفردات (أنين، متعة، ظلام) عبر خطوط متواصلة هناك طبعاً لعبة "دُولْ"، التي يمنح فيها "باتريك" أو "باتريسيا" دميتان مطاطيتان متشابهتان وقليل من الطين المعجون الذي يلصقه "بات" على إحداهما، قبل أن يشرع أحدهما في اللعب بها.. آه كم هو جميل بيت الدمى، بغرفه العديدة وأشيائه الصغيرة العتيقة، بما في ذلك أصيص غرفة لا يتعدى حجمه قِمْعا، وخزانة أدوية، ومسعر، وسرير يتسع لشخصين، بل وقفازان مطاطيان صغيران في المطبخ، حيث يمكنك أن تكون دنيئاً كما تشاء، وأن تفعل ما تريد بالدمية الأب إذ اعتقدت أنه يضرب الدمية الأم عندما يطفئان النور في مخدعهما. لكن "فيكتور" الشرير لن يلعب بـ"لو" و"تينا"، حيث تجاهل الدميتين، وشطّب على مفردات اللائحة (مما يخالف القواعد)، وخربش رسومات لم تفد أي معنى غير ملائم بتاتا.

لم يظهر "فيكتور" للمعالجيْن أي شيء ذا بال عبر بقع حبر "رورشاش" الجميلة، تلك التي يرى الأطفال، أو يجب عليهم أن يروا من خلالها كل الأشياء: مناظر بحرية، عمليات فرار، رؤوس بحرية، ديدان جنون، جذوع أشجار عصابية، جراميق إباحية، مظلات، ودمبل. ولم يجسد أي رسم من رسوم "فيكتور" العرَضية ما سُمّي بـ"المندالة" ـ وهي لفظة يفترض أنها تحيل (في اللغة السنسكريتية) على مفتاح سحري، يطبقها الدكتور "يونغ" وآخرون على أي خربشة تتخذ شكل بنية رباعية متمددة، مثل حبة جوز مشطورة، أو صليب، أو العجلة التي تتكسر عليها الذوات مثل الفراشات الزرقاء، أو على نحو أدق، مثل جزيئة الكربون بتكافؤاتها الأربعة ـ ذلك المكون الكيميائي الأساس في الدماغ الذي يبرز وينعكس على الورق بشكل عفوي.

ذكر آل "ستورن" أن «القيمة العقلية لصور دماغ "فيكتور" وترابط

كلماته أصبحت، للأسف، مبهمة تماماً بسبب ميولات الفتى الفنية».
ومنذ ذلك الحين، سمح لمريض آل "ويند" الصغير، الذي كان يعاني اضطرابا في النوم وفقدان الشهية، بأن يواصل القراءة في السرير إلى ما بعد منتصف الليل، ويتجنب فطور الشوفان في الصباح.

٤

تمزقت "ليزا" بين رغبتين، وهي تخطط لتدريس ابنها؛ بين أن تمنحه آخر فوائد علم نفس الأطفال الحديث، وأن تجد له، من بين الأطر الأمريكية في المرجعية الدينية، أقرب مسلك إلى الخصال الرقيقة والصافية في الكنيسة الكاثوليكية اليونانية، تلك الصلة الحميمة التي تبقى متطلباتها من ضمير الإنسان ضئيلة مقارنة مع ما تتيحه من طمأنينة وسكينة.

التحق "فيكتور" الصغير، في البداية، بروض تقدّمي بمدينة "نيوجيرسي"، ثم لازم دروسا نهارية تقدمها مدرسة هناك، بناء على نصيحة بعض الأصدقاء الروس. كانت المدرسة تحت إشراف أسقف، أثبت أنه مدرّس حكيم وموهوب. كان يبدي تعاطفه تجاه الأطفال المتفوقين، مهما كانوا مشاكسين أو غريبي الأطوار. كان "فيكتور" مختلفاً بالتأكيد، لكنه هادئ جدّاً من ناحية أخرى. وفي سن الثانية عشرة، التحق بمدرسة "سانت بارثولوميو".

كانت مدرسة "سانت بارث"، من الناحية المادية، عبارة عن كتلة عظيمة من الآجر الأحمر المختار بعناية. شيدت سنة ١٨٦٩ على مشارف مدينة "كرانتون"، ماساتشوسيتس. تكوّن بنايتها الرئيسية ثلاثة جوانب من هندسة رباعية، بينما الجانب الرابع عبارة عن ممر مسقوف. بوابتها

الموشورة يعترشها من جانبٍ لبلابٌ أمريكي، ويعلوها من فوق صليبٌ حجري سِلْتي. كان اللبلاب يتموج بفعل الرياح مثل جلد ظهر فرس. ساد الاعتقاد أن لون الآجر الأحمر سيتوهج مع مرور الزمن، لكن لم يزد إلا اتساخا في مدرسة "سانت بارث" العتيقة. أسفل الصليب، مباشرة فوق قوس البوابة الشبيه بجرس بدون رنين، نُحِت شكل شبيه بخنجر، في محاولة تجسد مذية جزار يمسك بها "سانت بارثولوميو" ـ وهو واحد من الحواريين، سُلِخ حيّاً وترك عرضة للذباب صيف سنة ٦٥ قبل الميلاد أو نحو ذلك في مدينة "ألبانوبوليس"، "ديربينت" حاليا، التي تقع جنوب شرق روسيا ـ (في كتاب قداس فيينا) بسحنة ملؤها اللوم والتأنيب. وقد أبحر تابوته، بعد أن ألقى به ملك غاضب في بحر قزوين، بهدوء حتى جزيرة "ليباري" القريبة من ساحل صقلية ـ ربما كان ذلك مجرد أسطورة، بالنظر إلى أن اليابسة ظلت تحاصر بحر قزوين منذ العصر الجليدي. وأسفل ذلك السلاح المزخرف ـ الذي يشبه بالأحرى جزرة مصوبة نحو الأعلى ـ كتبت عبارة بأسلوب كنسي مصقول: *Sursum.* ثمة كلبا رعي إنجليزيان أليفان في ملك أحد الأسياد، أحدهما لصيق بالآخر على نحو وثيق، وهما متكاسلان على العموم في مكانهما الهادئ أمام البوابة.

أعجبت "ليزا"، في أول زيارة لها إلى المدرسة، إعجابا شديدا بكل شيء فيها، من الساحات الخمس والمعبد حتى السبائك الجبسية في الممرات وصور الكاتدرائيات داخل الأقسام. كانت الصفوف الثلاثة الدنيا تقيم بمساكن لها تجاويف ذات نوافذ، وغرفة الحارس في الطرف الآخر. لم يتمالك الزوار أنفسهم من الإعجاب بقاعة الرياضة البديعة. كم كانت موحية أيضاً المقاعد السنديانية والسقف المسنود بدعامات خشبية في المعبد ذي الطراز الروماني الذي وهبه منذ نصف قرن نساج الصوف "يوليوس شونبورغ"، شقيق عالم المصريات الشهير "صامويل

شونبورغ" الذي هلك في زلزال مدينة "ميسينا". كان هناك خمسة وعشرون حارسا والمدير الموقر "أرشيبالد هوبر" الذي كان يرتدي، في الأيام الدافئة، لباسا كهنوتيا رماديا أنيقا، ويؤدي واجباته جاهلا تماماً المكيدة التي توشك أن تزيحه من مكانه.

٥

رغم أن "فيكتور" يتميز ببصره الحاد، إلا أن فكرته المحايدة عن مدرسة "سانت بارث" اندمغت في ذهنه عبر الروائح والأصوات. كان هناك الدخان الفاسد والآسن المنبعث من الخشب المصبوغ القديم داخل الغرف، والأصوات الليلية داخل القِبب ـ هي عبارة عن فرقعات معدية هادرة وصرير الأسرّة الخاصة بفصل الربيع، يزداد فداحة كلما ارتفع ـ ورنين الجرس في الرواق، وفي فجوة صداع الرأس، على الساعة السابعة إلا ربع. كانت هناك رائحة العبادة والبخور المنبعثة من المجمرة، التي تعلق بالسلاسل وبظلال السلاسل المتدلية من سقف المعبد المضلّع. كان هناك صوت الموقر "هوبر" الرخيم الذي يخلط الابتذال بالكياسة على نحو بديع، والنشيد ١٦٦، *شمس روحي*، الذي يُجبَر التلاميذ الجدد على حفظه عن ظهر قلب. كان هناك، داخل غرفة الملابس، رائحة الرشح السائل من السلّة فوق العربة، التي تحوي مؤونة مشتركة لمشجعي الرياضيين ـ عبارة عن ألياف طحلبية رمادية برّية، منها قد يستخلص الرياضي رباطا يضعه ساعة التريض ـ وما أشدّ وأحزن سيل الصيحات المنهمر من زوايا الملعب الأربعة!

نال "فيكتور"، بفضل نسبة ذكاء وصلت إلى نحو مائة وثمانين درجة ومعدل بلغ تسعين نقطة، بسهولة الرتبة الأولى في فصل من ستة وثلاثين تلميذا، بل كان في الواقع واحداً من ثلاثة تلاميذ متفوقين في المدرسة.

لم يكن يُبْدي سوى القليل من الاحترام لأغلب أساتذته، لكنه كان يجلّ "لايك"، ذاك الرجل الهائل السمنة ذا الحاجبين الأشعثين واليدين المزغّبتين، تعلو سحنته حيرة كئيبة في حضور فتيان رياضيين ذوي خدود مورّدة ("فيكتور" لم يكن كذلك). جلس "لايك"، مثل بوذا، داخل محترف مرتب بدقة بدا أقرب إلى قاعة استقبال في رواق فني منه إلى مشغل. لم تتزيّن جدرانه الرمادية الشاحبة سوى بصورتين ذات إطارين متماثلين هما: نسخة من تحفة "جيرترود كازيبيير" الفوتوغرافية الموسومة بـ"*الأم والطفل*" (١٨٩٧) التي يبدو فيها الطفل الملائكي الحزين ينظر بعيدا إلى الأعلى (فيمَ يحدق؟)، وطبعة طبق الأصل من رأس المسيح من لوحة "رامبرانت" "*حجاج إيموس*"، إذ تعكس نفس تعبير العينين والفم، وإن كان نزوعها الروحي يبدو أقلّ إلى حد ما.

ولد في "أوهايو"، ودرَس في باريس وروما، ودرَّس في الإكوادور واليابان. اشتهر كخبير فنّي، حيث تساءل الناس بحيرة لِمَ اختار "لايك" أن يدفن نفسه بمدرسة "سانت بارث" طوال السنوات العشر الماضية، إذ أنعم الله عليه بقريحة عبقرية مشاكسة، لكنه كان يفتقر إلى الأصالة. كان واعيا بذلك النقص. بدت رسوماته على الدوام مجرد محاكاة ذكية وجميلة، رغم ألا أحد استطاع أبدا أن يكشف الأسلوب الذي يحاكيه. معرفته العميقة بتقنيات كثيرة، ولامبالاته بـ"المدارس" و"التيارات"، واشمئزازه من المدّعين، واقتناعه بألاّ فرق البتة بين الصباغة المائية المتكلفة التي سادت بالأمس، والنزعة التشكيلية التقليدية المحدثة أو اللاموضوعية المبتذلة المنتشرة اليوم، وبأنه ما من شيء ذي أهمية خاصة سوى الموهبة الفردية ـ كل هذه الآراء جعلت منه أستاذا فريدا. أما مدرسة "سانت بارث"، فلم تكن راضية عن مناهج "لايك"، ولا عن نتائجها، لكنها تمسكت به لأن المدارس درجت على أن تحتفظ بأستاذ متميز غريب على الأقل بين هيأة التدريس. إذ من بين الأشياء المسلّية

العديدة التي كان يدرسها "لايك" أن نظام الطيف الشمسي ليس دائرة مغلقة، وإنما لولبا من الألوان تبدأ بأحمر فلزّي وبرتقالي، مرورا بأصفر فاقع وأخضر فردوسي شاحب، وانتهاء بأزرق داكن وبنفسجي، حيث لا تتدرج الألوان في تلك النقطة إلى الأحمر مجددا، لكنها تنتقل إلى لولب آخر يبدأ برمادي خزامي، فيتلاشى في ظلال سندريلائية تتجاوز إدراك الإنسان. وكان يلقن التلاميذ ألا وجود لمدرسة باسم "أشكان" أو "كاش ـ كاش" أو "كانكان"، وأن عمل الفن المنجز بخيوط وطوابع وجريدة يسارية وبراز حمام يقوم على سلسلة من التفاهات العقيمة، وأنه ما من شيء أكثر ابتذالا وبورجوازية من جنون العظمة، وأن "دالي" هو في الواقع الشقيق التوأم لـ"نورمان روكويل" الذي اختطفه الغجر خلال الطفولة، وأن "فان غوغ" كان رديئا، بينما يحتل "بيكاسو" منزلة عظيمة، رغم مساوئه التجارية، وأنه إذا كان "ديغاس" قد نجح في تخليد عربة، فلِمَ لا ينجز "فيكتور" العمل نفسه بواسطة سيارة؟

ثمة طريقة واحدة لفعل ذلك، وذلك عبر إضفاء طابع مشهدي على السيارة. إذ من شأن عربة سوداء لامعة أن تكون موضوعا جيدا، خاصة إذا ركنت في تقاطع شارع محفوف بالأشجار، أسفل سماء من تلك السماوات الحبلى بالربيع والتي تبدو غيومها الرمادية المتورمة وبقعها الزرقاء المتحولة ملموسة أكثر من شجر الدردار الصموت والرصيف المنفلت. قسّم الآن بدن السيارة إلى أقواس وألواح منفصلة، ثم ضعْها مجتمعة وفق انعكاساتها. سيبدو كل جزء مختلفاً عن الآخر، حيث ستبرز الأشجار من سقف السيارة مقلوبة، وأغصانها المضبّبة تنمو مثل جذور في صورة سماء باهتة، وبناية أشبه بحوت تسبح في الفضاء ـ كأنها فكرة معمارية متأخرة. سيطلى جانب من واقي المحرك بشريط من كوبالت سماوي غني، وستنعكس عينة أغصان سوداء ناعمة على السطح الخارجي للزجاجة الخلفية، وسيتراءى على البارشوك مشهد صحراوي

رائع، وأفق ممتد، وبيت معزول هنا وشجرة وحيدة هناك. فهذه الطريقة في المحاكاة والإدماج يسميها "لايك" بـ"التطبيع" الضروري للأشياء التي ينجزها الإنسان. ففي شوارع مدينة "كرانتون"، يحدث أن يعثر "فيكتور" على طراز سيارة مناسب، ويحوم حولها. فجأة، تسلط عليه الشمس أشعتها شبه المحتجبة، لكن المتلألئة. إذ لا شريك أفضل منها في هذا النوع من السرقة التي يتدبرها "فيكتور". سيرى، في طلاء الكروم وزجاج مصباح أمامي تغزوه الشمس، منظر الشارع ونفسَه شبيها بنموذج مصغر من غرفة (فضلا عن مشهد ظهور أناس ضئال) داخل تلك المرآة المحدَّبة الخاصة والسحرية التي كان يرسمها "فان أيك" و"بيتروس كريستوس" و"ميملينغ"، منذ خمسمائة سنة، في بواطنهم المستفيضة، خلف التاجر اللاذع أو سيدة البيت العذراء.

وفي آخر عدد من مجلة المدرسة نشر "فيكتور" قصيدة حول الرسامين، باسم مستعار، بشعار «ينبغي تفادي الألوان الحمراء الرديئة، فهي تبقى رديئة، وإن أُعدّت بعناية» (المقتبس من كتاب قديم حول تقنية الرسم، لكن يتخذ صبغة حكمة سياسية). مطلع القصيدة كالآتي:

ثمة أمراض غريبة، يا "ليوناردو"!

تعصف بالفُوَّيَّات مختلطة بالرصاص؛

مثل راهبات، شاحبة هي اليوم

شفتا الموناليزا اللتان رسمتا بالأحمر القاني

كان يحلم بأن يعتّق أصباغه، مثلما كان يفعل الأساتذة القدامى ـ بالعسل، وعصير التين، وزيت الخشخاش، ولعاب الحلزون. كان يحب الألوان المائية والزيوت، لكنه كان محترسا من العجينة البالغة الليونة والطلاء الشديد الجفاف. كان يفحص حوامله بأناة وروية طفل نَهِم ـ كأنه واحد من التلاميذ الرسامين المبتدئين (الآن "لايك" هو من يحلمَ) ذوي

الشعر المقصوص والعيون الوضاءة، الذين سيقضون سنوات يهيئون الألوان داخل ورشة رسّام إيطالي عظيم، في عالم من العنبر والطلاءات الفردوسية. في سن الثامنة، أخبر أمّه ذات مرة أنه يرغب في أن يرسم الهواء. وفي التاسعة، شعر بالبهجة تغمره وهو ينجز طلاء متدرّجا. ففيمَ كان يعنيه أن يموت الجلاء والعتمة الخفيفان، النابعان من قيم مضمرة ونغمات شفافة خفيفة، منذ زمن بعيد خلف قضبان سجن الفن التجريدي، بملجأ النزعة البدائية الشنيعة؟ كان يضع أشياء مختلفة تباعا ـ تفاحة، وقلما، وبيدقا، مشطا ـ خلف كأس ماء، ويمعن النظر من خلالها إلى كل واحد منها. كانت التفاحة الحمراء تتحول إلى شريط ذي حمرة واضحة يلفّه أفق مستوٍ، ونصف كأس من البحر الأحمر واليمن السعيد. وكان القلم القصير ينعقف مثل أفعى مرقطة إذا ظل مائلا، لكنه يصبح ضخما على نحو هائل ـ ويكاد يتحول إلى هرم ـ إذا أصبح عموديا. وكان البيدق ينقسم، إذا حُرِّك جيئة وذهابا، إلى زوجين من النمل الأسود. وكان المشط، منتصبا على طرفه، يبدو مثل كأس ذات خطوط جميلة مليئة بسائل، كأنها خطوط الحمار الوحشي.

٦

زار "بْنين"، عشية اليوم الذي اعتزم "فيكتور" المجيء، محلا لبيع لوازم الرياضة، يقع في شارع "واينديل" الرئيس، وطلب كرة قدم. لم يكن طلبه ملائما للموسم، لكن جيء له بواحدة.

«لا، لا»، قال "بْنين"، «لا أريد بيضة، أو قذيفة مثلا. أريد كرة قدم بسيطة. مستديرة!»

ثم رسم عالما محمولا بمعصميه وراحتيه. كانت هي الحركة ذاتها

التي يقوم بها في القسم عندما يتحدث عن "الكلية المتناغمة" لدى بوشكين.

رفع البائع أصبعه، ثم فتش في صمت عن كرة قدم.

«نعم، سأشتري هذه»، قال "بْنين" باستحسان مفخّم.

حمل بضاعته، ملفوفة في ورق كستنائي يلفه شريط لاصق. دخل مكتبة، وطلب رواية "*مارتن إيدن*".

«إيدن، إيدن، إيدن»، ظلت السيدة المكلفة السمراء الطويلة تردد، وهي تدعك جبينها. «دعني أرى، أتقصد كتابا حول رجل الدولة البريطاني؟ أليس كذلك؟»

«أقصد عملا خلّده الكاتب الأمريكي الشهير جاك لندن»، قال "بْنين"،

«لندن، لندن، لندن»، قالت المرأة، وهي تمسك بصدغها.

جاء زوجها السيد "تويد"، الشاعر المناسباتي، لنجدتها. كان يحمل غليونا. بعد برهة من البحث، أحضر له من الرفوف المغبرة لمستودعه السفلي الفقير طبعة قديمة من قصص "*ابن الذئب*".

«أخشى أن يكون هذا الكتاب هو كل ما نملك من أعمال هذا الكاتب»، قال.

«غريب!» قال "بْنين". «تقلبات الشهرة! في روسيا، أذكر أن الجميع ـ أطفالا، راشدين، أطباء، محامين ـ يقرؤون ويعيدون القراءة. ليس هذا أفضل كتبه، لكن حسناً، حسناً، سأشتريه».

عندما عاد الأستاذ "بْنين" إلى بيته حيث كان يقطن ذلك العام، وضع الكرة والكتاب على منضدة غرفة الضيوف في الطابق الأعلى. مال برأسه إلى الخلف، وهو يستطلع تلك الهديتين. لم تكن الكرة تبدو

جميلة في لفافتها الشنيعة. خلع عنها الورق، فأظهرت حينها جلدها المليح. كانت الغرفة أنيقة ووثيرة. إذ من شأن تلميذ أن يحب تلك الصورة التي تظهر فيها كرة ثلج تطير بقبعة عن رأس أستاذ. للتو أعدّت عاملة النظافة السرير. وصعد المالك العجوز "بيل شيبّرد" من الطابق الأول، وخاطر بنفسه ليركّب مصباحا جديدا في مشكاة المكتب. هبّت ريح رطبة دافئة عبر النافذة المفتوحة إلى حد كان يسمح بسماع خرير نهير غزير يجري في الأسفل. أغلق "بْنين" النافذة، لأن المطر أوشك أن يهطل.

عثر على رسالة في غرفته بالطابق نفسه. كانت عبارة عن برقية موجزة حوّلها "فيكتور" عبر الهاتف. قال إنه سيتأخر أربعا وعشرين ساعة بالتمام.

٧

قضى "فيكتور" رفقة خمسة فتيان آخرين يوما ثمينا بمناسبة عطلة عيد الفصح. ظلوا يدخنون السجائر داخل العلّيّة. في الواقع، لم يشارك "فيكتور"، الذي عانى مغص الأمعاء وضعف حاسة الشم (وهو ما أخفاه بعناية عن آل "ويند")، في التدخين بأكثر من نفَسين. لكنه في مرات عديدة، كان يلحق طواعية، إلى العلية الممنوعة، باثنين من أفضل أصدقائه ـ فتيين مغامرين وصاخبين ـ هما "توني برايد جونيور" و"لانس باوك". كانوا يدخلون إلى هناك عبر قناة مفتوحة، ثم إلى الأعلى عبر سلّم حديدي يقود إلى ممر ضيق أسفل السقف. من هناك كان هيكل البناية الفاتن والهش يبدو جليا وملموسا بشكل غريب في الآن ذاته، بكل دعائمه وألواحه، ومتاهة حواجزه، وظلاله المشطورة، وألواحه المهلهلة التي تتداعى تحت الأقدام، فتنتهي إلى خشخشة فوق الجبس المفصول

عن السقوف السفلى غير المرئية. كانت المتاهة تنتهي إلى سُدَّة صغيرة مطوقة داخل تجويف في أعلى السقف المحدب، وسط فوضى كتب هزل قديمة ورماد سجائر حديثة. اكتشف الرماد، واعترف الفتيان. سمح لـ"توني برايد"، الابن البكر لمدير شهير من مدراء مدرسة "سانت بارث"، بالمغادرة لأسباب عائلية، لأن ابن عمة عزيزا كان يأمل أن يلتقي به قبل أن يبحر إلى أوربا. وبعد أن تفطن "توني" إلى الأمر، التمس أن يتم اعتقاله مع البقية.

كان المدير أيام تمدرس "فيكتور"، كما قلت سابقا، هو السيد الموقر "هوبر"، ذاك الرجل التافه واللطيف ذو الشعر الأسود والوجه الناعم، الذي تجلّه أمهات بوستن كثيراً. عندما تحلق "فيكتور" ورفاقه المجرمون حول مائدة العشاء مع كامل أفراد عائلة "هوبر"، ألقيت تلميحات واضحة عديدة هنا وهناك، خاصة من طرف السيدة "هوبر"، تلك المرأة الإنجليزية صاحبة الصوت العذب، التي تزوجت إحدى عماتها "إيرلا"[1]. ربما كان الموقر سيَلين، فيتم اصطحاب الفتيان الستة في تلك الأمسية الأخيرة لمشاهدة فيلم بالمدينة، بدل أن يرسلوا إلى الفراش باكرا. بعد العشاء، أشارت إليهم، بغمزة حنون، بمرافقة الموقر الذي هبّ ماشيا ناحية القاعة.

ربما ارتأى الأمناء المحافظون أن المناسبة اقتضت التغاضي عن العقاب بالجلد الذي أنزله "هوبر" ببعض الجانحين مرة أو مرتين طيلة مساره القصير والعادي، لكن ما لم يستسغه أي واحد من أولئك الفتيان هو الابتسامة المتكلفة اللئيمة التي كانت ترتسم على شفتي المدير الحمراوين، كلما توقف في طريقه إلى القاعة، ليلتقط حزمة ثوب مطوي

(١) "إيرل" لقب إنجليزي أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت (المترجم).

بعناية ـ غفارته ورداءه. كانت السيارة تنتظر أمام الباب، في طريقها إلى «دق المسمار في نعش العقوبة»، مثلما قال الفتيان، بينما دعاهم الراهب المزور إلى عظة على شرف بعض الضيوف في "ريدبورن"، الواقعة على بعد اثني عشر ميلا، داخل كنيسة آجرية باردة، أمام محفل ضئيل.

٨

من الناحية النظرية، فإن أقصر طريق، لبلوغ "وايندبل" انطلاقا من "كرانتون"، هي ركوب التاكسي إلى "فرامينغهام"، واللحاق بالقطار السريع المتوجه إلى "ألباني"، ثم بقطار محلي يسير مسافة قصيرة نحو الشمال الغربي. في الواقع، كانت أقصر طريق أطولها كذلك. وسواء كانت هناك خصومة كبيرة قديمة بين تلك السكك، أو أنهما اتحدتا معا لتمنحا فرصة لعربات أخرى، فإنك مهما تحايلت على مواعيد السفر، تأمل أن تكون الساعات الثلاث الفاصلة بين القطارات أقصر مدة للانتظار.

كانت حافلة تغادر "ألباني" في الساعة الحادية عشرة صباحا، وتصل إلى "وايندبل" في الساعة الثالثة بعد الزوال، لكن ذلك يعني ركوب قطار الساعة السادسة وإحدى وثلاثين دقيقة صباحا من "فرامينغهام". كان "فيكتور" يشعر أنه لن يستطيع الاستيقاظ في الوقت المحدد. بدلا من ذلك، ركب قطارا متأخرا بعض الشيء وبطيئاً إلى حد كبير، سمح له بأن يلحق في "ألباني" بآخر حافلة متوجهة إلى "وايندبل"، حيث نزل منها هناك في الساعة الثامنة والنصف مساء.

ظل المطر يهمي طيلة الطريق، واستمر يهطل عندما وصل إلى محطة "وايندبل". كان "فيكتور"، في أي طابور، يوجد دائما في آخره،

بسبب غلبة مسحة حلم وتولّه ودهشة على طبعه. وقد اعتاد على هذا العائق منذ زمن طويل، مثلما يعتاد الحسير على نظره الضعيف والأعرج على مشيته المائلة. كان "فيكتور"، الذي ينحني بسبب طوله، يسير متبرما خلف مسافرين ينزلون تباعا من الحافلة إلى الإسفلت اللامع؛ خلف عجوزين بطيئتين ترتديان معطفين مطريين شبه شفافين، كأنهما حبتا بطاطس مغلفتان بورق السيلوفان، وطفل في السابعة أو الثامنة ذي قفا أجوف وقصة شعر تشبه قصة الربابنة، وعجوز مقعد عديم الثقة رافض لمساعدة الآخرين نزل من الحافلة عضوا تلو آخر، وثلاث طالبات بكلية "وايندیل" تبدو ركبهن متوردة من سراويلهن القصيرة، وأمّ أنهكها صغيرها، وعدد من الركاب الآخرين، ثم "فيكتور" حاملا حقيبة بيده ومتأبطا مجلتين.

أسفل رواق مدخل محطة الحافلات كان رجل أصلع تماماً ذو سحنة شقراء، يضع نظارات سوداء ويحمل محفظة سوداء، ينحني متسائلا ومرحّبا ترحيبا ودودا بالفتى الصغير ذي العنق الهزيل الذي ظل، مع ذلك، يحرك رأسه ويشير ناحية أمه التي كانت تنتظر إخراج أمتعتها من بطن الحافلة. باستحياء ومرح أنهى "فيكتور" ذلك الالتباس. نزع الرجل النبيل ذو الجمجمة المقبّبة نظاراته، ثم استقام ونظر إلى أعلى، فأعلى، ثم أعلى إلى "فيكتور" الطويل، الطويل، الطويل، إلى عينيه الزرقاوين وشعره الأشقر المائل إلى الحمرة. تمددت عضلات وجنتي "بْنين" النضرتين، وتكوّر خدّاه المسمرين، بل وشارك جبينه وأنفه وأذناه الكبيرتان الجميلتان في تلك الابتسامة. على العموم، كان اللقاء مُرْضيا للغاية.

اقترح "بْنين" أن يحمل الأمتعة، وأن يسيرا حتى زاوية البناية ـ إذا لم يكن "فيكتور" يخشى أن يبلله بالمطر (لم يكن المطر غزيرا. كان

الإسفلت يتلألأ في الظلام كأنه بحيرة أسفل الأشجار الضخمة الهادرة). خمّن "بْنين" أن وجبة عشاء متأخرة في مطعم ستمتع الفتى.

«هل وصلت بخير؟ ألم تواجه مفاجآت مزعجة؟»

«لا، يا سيدي».

«أأنت جائع جدا؟»

«لا، يا سيدي. ليس إلى ذلك الحد».

«اسمي "تيموفي"»، قال "بْنين" عندما جلسا مستكينيْن إلى طاولة قرب النافذة داخل ذلك المطعم القديم الرديء. «ينطق المقطع الثاني كـ"ماف"، بينما يشدَّد المقطع الأخير، "اي" كما في "براي"، لكن مع بعض التمديد. "تيموفاي بافلوفيتش بْنين"، أي "تيموثي ابن بول". يتركز النبر في الاسم على المقطع الأول، فيما يضمر الباقي: "تيموفاي" بالتش". لقد ناقشت مع نفسي مطولا، وخلصت إلى أن تدعوني ببساطة بالسيد "تيم"، أو باسم أقصر "تيم"، مثلما يفعل بعض زملائي العطوفين إلى أقصى حد. ماذا تريد أن تأكل؟ لحم ضلع بقر؟ حسناً، أنا أيضاً سآكل لحم ضلع بقر ـ دعنا نتخلص من هذه السكاكين والشوكات. من الطبيعي أن يكون هذا التنازل تنازلا لأمريكا، بلدي الجديد، أمريكا الجميلة التي تدهشني أحياناً، لكنها تظل دائما جديرة بالاحترام. في البداية، كنت محرجا للغاية..».

في البداية، كان "بْنين" يتحرج كثيراً من السهولة التي تتقاذف بها الأسماء في أمريكا: بعد حفلة واحدة، يفترض منك، وأنت تضع قطعة ثلج في كأس ويسكي في البداية وتصب كثيراً من الويسكي على قطرة ماء في النهاية، أن تنادي على غريب ذي صدغ رمادي باسم "جيم"، بينما يدعوك هو باسم "تيم" إلى الأبد. فإذا نسيت وناديت عليه في الصباح الموالي باسم الأستاذ "إيفيريت" (اسمه الحقيقي في نظرك)،

سيكون الأمر (في نظره) بمثابة شتيمة. لقد تمكن "تيموفي بالتش"، وهو يستعرض أسماء أصدقائه الروس في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية، من أن يعدّ بسهولة ستين صديقا حميما على الأقل صادقهم بإخلاص منذ سنة ١٩٢٠، والذين لم ينادِ عليهم سوى باسم "فاديم فاديميتش" أو "إيفان هريستوفوروفيتش" أو "صامويل إزرائليفيتش"، بحسب كل حالة، والذين ينادونه باسمه موشحا بالتعاطف الفياض ذاته، كلما التقوا وتصافحوا بحرارة: «آه، يا "تيموفي"! كيف الحال؟ حسناً، حسناً، يا فتى، لم تعد شابا بالتأكيد!»

ظل "بْنين" يتحدث. لم يثر كلامه دهشة "فيكتور"، الذي سمع من قبل العديد من الروس يتكلمون اللغة الإنجليزية، ولم ينزعج من كون "بْنين" ينطق كلمة "فاميلي" كأن المقطع الأول منها يحيل على الكلمة الفرنسية "امرأة".

«أتكلم الفرنسية بسهولة أكبر من الإنجليزية»، قال "بْنين"، «لكن أنت ـ هل تفهم الفرنسية؟ جيداً؟ أم بشكل كاف؟ أم قليلاً؟»[1]

«Très un peu»، قال "فيكتور".

«للأسف، لكن ليس هناك ما يمكن فعله. سأحدثك الآن عن الرياضة. نعثر على أول وصف للملاكمة في الأدب الروسي في قصيدة للشاعر "ميخائيل ليرمونتوف" الذي رأى النور سنة ١٨١٤ وقتل سنة ١٨٤١ ـ من السهل أن تتذكر ذلك. في حين، يوجد أول وصف لكرة المضرب في رواية "أنا كارينينا" لتولستوي، وهو يعود إلى سنة ١٨٧٥. ذات يوم، عندما كنت صغيراً، في الريف الروسي بضواحي "لابرادور"، مُنِحتُ مضربا لألعب مع عائلة المستشرق "غوتوفتسيف"،

---

(١) وردت العبارة باللغة الفرنسية في النص الأصلي (المترجم).

الذي سمعت به ربما. أتذكر أنه كان يوما صيفيا رائعا، حيث ظللنا نلعب حتى ضاعت الكرات الاثنتا عشرة كلها. أنت أيضاً ستتذكر الماضي باهتمام عندما تكبر».

«لعبة أخرى»، واصل "بْنين"، وهو يحلّي قهوته بإسراف، «هي الكروكيت بالطبع. كنت بطلا في الكروكيت. غير أن الرياضة الوطنية المفضلة كانت تسمى "غورودكي" التي تعني "المدن الصغيرة". نتذكر مكانا داخل الحديقة وأجواء الشباب الرائعة: كنت قويا، حيث كنت أرتدي قميصا روسيا مطرزا. لا أحد اليوم يلعب هذه الألعاب الصحية».

انتهى "بْنين" من وجبته، ثم واصل حديثه حول الموضوع ذاته قائلاً:

«كان أحدنا يرسم مربعا كبيراً على التراب، ونضع هناك قطعا خشبية أسطوانية، كأنها أعمدة، ثم نرميها من مسافة معينة بعود غليظ، صلب جداً، أشبه بالبومرانغ، ذي مقبض منحوت عريض ـ اعذرني، من حسن الحظ أن الأمر يتعلق بالسكر، لا بالملح».

«مازلت أسمع»، قال "بْنين" وهو يتلقط المِرَشّة، ويحرك رأسه قليلاً أمام إصرار الذاكرة المدهش، «مازلت أسمع الـ"تراخ"! صوت الارتطام عندما يصيب أحدنا القطع الخشبية، فتتطاير في الهواء. ألن تنهي أكل اللحم؟ لم تستحسنه، أليس كذلك؟

«إنه لذيذ جدا»، قال "فيكتور"، «لكني لست جائعا».

«آه، يجب أن تأكل أكثر، أكثر بكثير إذا كنت ترغب في أن تصبح لاعب كرة قدم».

«الحقيقة أني لا أهتم كثيراً بكرة القدم. في الواقع، إني أكرهها. ولست أجيد أي لعبة، حقا».

«ألا تعشق كرة القدم؟» قال "بْنين"، ثم زحفت سيماء حيرة على

وجهه العريض. زمّ شفتيه، ثم فتحهما، لكنه لم ينبس ببنت شفة. أكل في صمت قشدة الفانيلا المثلجة، التي لم تكن تحتوي على أي فانيلا أو قشدة.

«سنستعيد الآن أمتعتك، ونركب تاكسي»، قال "بْنين". ما إن وصلا إلى محل "شيبّرد"، حتى دلّ "بْنين" "فيكتور" على بهو الاستقبال، وسرعان ما عرّفه بمالكه العجوز "بيل شيبّرد"، المسؤول السابق عن المختبرات الميدانية بكلية "وايندين" (الرجل الأطرش تماماً الذي يضع زرّاً أبيض في أذنه)، وبأخيه "بوب شيبّرد" الذي قدِم مؤخرا من "بوفالو"، ليعيش مع "بيل" بعد أن توفيت زوجة هذا الأخير. ارتقى "بْنين" الدرجات بسرعة، تاركاً "فيكتور" برفقتهما للحظات. كان المنزل ذا بناء هشٍّ، حتى إن الأشياء في غرف الطابق السفلي كانت تهتزّ تحت وقع خطواته القوية في الطابق العلوي واصطفاق دفة نافذة بشكل مفاجئ في غرفة الضيافة.

«الآن، تلك اللوحة هناك»، كان السيد "شيبّرد" يتحدث، وهو يشير بأصبع معلّم إلى لوحة عريضة باهتة بالصباغة المائية، معلقة على الجدار، «فهي تمثل الضيعة التي كنا، أخي وأنا، نقضي فيها الأصياف منذ خمسين سنة. لقد رسمتها زميلة والدتي في الدراسة "غرايس ويلز". ابنها "تشارلي ويلز" هو مالك ذلك الفندق في "وايندلفيل" ـ أنا متأكد أن الدكتور "نين" قد التقى به ـ وهو رجل طيب للغاية. كانت المرحومة زوجتي فنانة كذلك. سأريك بعض أعمالها بعد قليل. حسناً، تلك الشجرة هناك، خلف ذلك المخزن ـ يمكنك أن تكتشف..».

انبعثت من الأعلى ضجة وارتطام قوي، بعد أن انزلقت قدم "بْنين" أثناء نزوله.

«في ربيع سنة ١٩٠٥»، قال السيد "شيبّرد"، مشيرا بأصبعه إلى اللوحة، «أسفل شجرة الحور تلك..».

انتبه إلى أن شقيقه و"فيكتور" خرجا من الغرفة مسرعين نحو الأدراج. كان "بْنين" المسكين قد بلغ الدرجات السفلى على ظهره. ظل مستلقيا للحظات، وعيناه تدوران في محجريهما يمينا ويسارا. ساعداه على الوقوف. تبين لهما أنه لم يصب بأي كسر.

ابتسم "بْنين" وقال: «الأمر أشبه بقصة تولستوي الرائعة. يجب أن تقرأها ذات يوم، يا "فيكتور"، فهي تتحدث عن "إيفان إليتش غولوفين" الذي سقط، فأصابه سرطان الكليّ جراء ذلك. سيرافقني الآن "فيكتور" إلى الطابق العلوي».

تبعه "فيكتور"، حاملا حقيبته. كانت هناك نسخة من لوحة "فان غوغ" *"اللحن الهادئ"* ملقاة على الأرض. هزّ "فيكتور" رأسه، عندما مرّ بها، تعبيرا عن سخريته من تعرفه عليها. كانت غرفة الضيافة مترعة بهزيم المطر الذي ينهمر على أغصان فواحة في الحلكة التي تؤطرها النافذة المشرعة. فوق المنضدة كتابٌ مغلف وورقة نقدية من فئة عشرة دولارات. تهلل "فيكتور"، وانحنى احتراما لمضيفه الجلف، لكن الكريم.

«فُضَّه»، قال "بْنين".

امتثل "فيكتور" بتوق مهذب. ثم جلس على حاشية السرير. نزل شعره الكستنائي لامعا مسترسلا على صدغه الأيمن، بينما تدلت ربطة عنقه المخططة من فتحة سترته الرمادية، وفرج بين ركبتيه اللتين تبدوان هائلتين داخل سروال الفلانيلا الرمادي. فتح الكتاب بمرح. أراد الإشادة به ـ أولا، لأنه كان هدية؛ وثانيا، لأنه حسبه ترجمة من لغة "بْنين" الأم. تذكر أنه كان هناك بمعهد علاج الأمراض النفسية طبيب روسي

يدعى "ياكوف لندن". لسوء الحظ أن "فيكتور" فتح الكتاب صدفة على مقطع حول "زارينسكا"، ابنة زعيم قبيلة "يوكون" الهندية، وحسبها عذراء روسية. «عيناها السوداوان الكبيرتان شاخصتان في رجال قبيلتها توجسا وتحديا. بلغ التوتر مداه، حتى إنها نسيت أن تتنفس..».

«أعتقد أنني سأحب هذا»، قال "فيكتور" المهذب. «خلال الصيف الماضي، قرأت "*الجريمة و...*" تمدد ثغره الدائم الابتسامة عندما أخذ يتثاءب. رأى "بْنين"، بحنوّه واستحسانه وشجنه، "ليزا" تتثاءب ذات مرة بعد العودة من إحدى تلك الحفلات الطويلة والسعيدة عند آل "أربينين" أو آل "بوليانسكي" بباريس، قبل خمس عشرة، عشرين، أو خمس وعشرين سنة.

«لا قراءة اليوم»، قال "بْنين". «أعلم أنه كتاب مشوق، لكنك ستقرؤه غدا. أتمنى لك ليلة سعيدة. الحمام في الجهة الأخرى من بسطة الدرج».

صافح "فيكتور"، ثم توجه نحو غرفته.

٩

ما يزال المطر يهطل. جميع المصابيح في منزل "شيبّرد" مطفأة. تحول النهيّر في الأخدود خلف الحديقة، المجرى الهزيل في أغلب الأوقات، في تلك الليلة إلى سيل جارف يفيض عن حوافه، أمام انقياده التواق للجاذبية، حاملا معه، عبر الممرات أسفل أشجار الزان والتنوب، الأوراقَ المتساقطة العام الماضي وبعض الأغصان الجرداء وكرة قدم جديدة غير مرغوبة تدحرجت إلى الماء عبر العشب المائل بعد أن قذف بها "بْنين" من النافذة. غلب النعاس "بْنين" في النهاية، رغم آلام ظهره.

وفي كابوس من تلك الكوابيس التي مازالت تقض مضجع الهاربين الروس، وإن انقضى ثلث قرن على هروبهم من البلاشفة، رأى "بْنين" نفسه متخفيا بشكل مدهش، وهو يتسلل من قصر وهميٍّ، عبر بركات مداد عظيمة، على ضوء قمر تحجبه الغيوم بين الفينة والأخرى، ثم يسرع الخطى على شاطئ موحش رفقة زوجته الراحلة "إيليا إيزيدوروفيتش بوليانسكي"، بينما يترقبان أن يصل منقذ غامض ما عبر قارب مرتجف من وراء ذلك البحر الذي لا منفذ له. كان الأخوان "شيبّرد" مازالا سهرانين في فراشيهما المتجاورين على سريريهما من نوع "بيوتيريست". كان الأخ الأصغر ينصت في الظلام إلى المطر ويتساءل إن كان يجب في النهاية أن يبيعا المنزل بسقفه المسمّع وحديقته المبللة، وكان الأكبر مستلقيا يفكر في صمت بباحة كنيسة خضراء ندية، وبضيعة قديمة، وشجرة حور كسرتها صاعقة قبل سنوات، فأردت "جون هيد"، القريب الغامض والبعيد. واستغرق "فيكتور" في النوم، حالما وضع رأسه أسفل وسادته ـ وهي طريقة تطورت في الآونة الأخيرة لن يعلم عنها الدكتور "ويند" (الجالس على مقعد قرب نافورة في "كيتو" بالإكوادور) أي شيء أبدا. في الساعة الواحدة والنصف بدأ الأخوان "شيبّرد" يشخران، كان الأطرش يرفق شخيره بجلجلة في نهاية كل زفير، وبأحجام عديدة أكبر من الثاني الذي كان شخيره عبارة عن أزيز طفيف وكئيب. على الشاطئ الرملي حيث مازال "بنين" يسرع الخطى (وصديقه المهموم عاد إلى الديار بحثا عن خريطة) ظهرت أمامه آثار خطى قريبة منه، ثم استفاق يلهث. مازال الألم يمضّ ظهره. كانت عقارب الساعة تتجاوز الرابعة بقليل، والمطر قد توقف.

تأوّه "بْنين" على الطريقة الروسية "أوخ ـ أوخ ـ أوخ"، ثم حاول إيجاد وضع مريح. نزل العجوز "بيل شيبّرد" متثاقلا إلى الحمام، أحدث جلبة في المنزل، ثم عاد إلى غرفته.

بعد ذلك، غط الجميع في النوم. للأسف، لم يرَ أحد منهم المشهد في الشارع الخالي، إذ كان نسيم الفجر يغضن بركة رخْبة متلألئة، جاعلا من الأسلاك الهاتفية التي كانت تنعكس على صفحتها خطوطا متعرجة سوداء غير مقروءة.

الفصل الخامس

١

من أعلى سطح برج قديم، يستعمل مرصادا في بعض الحالات النادرة ـ "برج استشراف" كما كان يسمى سابقا ـ مشيّد فوق تلٍّ غابوي يقع على علو ثمانمائة متر، اسمه "جبل إيتريك"، في أحد أجمل الأمكنة بإحدى ولايات "نيو إنغلند"، قد يرى السائح المغامر خلال الصيف ("ميراندا" أو "ماري"، "توم" أو "جيم" الذين كادت أسماؤهم تنمحي من الدرابزين) يمّاً شاسعا من الخضرة، يتكون أساساً من شجر القيقب والزان والحور والصنوبر. بدا برج كنيسة رقيق أبيض، على بعد نحو خمسة أميال غربا، كعلامة تدل على المكان الذي يحتضن مدينة "أونكويدو" الصغيرة المعروفة بينابيعها في الماضي. وعلى بعد ثلاثة أميال شمالا، في أرض مقطوعة الشجر على ضفة نهر أسفل رابية معشوشبة، قد يرى السائح السطوح المحدبة من أعلى بيت منمق (عرف بأسماء مختلفة مثل بيت "كوك"، مقام "كوك"، قلعة "كوك"، أو "بيت الصنوبر"، اسمه الأول). وعلى طول السفح الجنوبي لجبل "إيتريك"، يتابع طريق الولاية السريع خطه نحو الشرق، بعد أن يخترق مدينة "أونكويدو". تتقاطع العديد من الطرق المتربة ومسالك الراجلين في السهل الحرَجي الواقع في عمق أرض مثلثة يحدها منعرج طريق

قروي معبّد ينعطف جهة الشمال الشرقي من "أونكويدو" إلى "بيت الصنوبر"، حيث يعبر خط الطريق السريع الأيمن، الذي ذكرته قبل قليل، النهرَ عبر جسر فولاذي قرب جبل "إيتريك"، وجسر خشبي قرب "بيت كوك".

ذات يوم دافئ وشاحب من صيف سنة ١٩٥٤، ربما لمحت "ماري" أو "ألميرا"، أو حتى "فولغانغ فون غوته"، الذي نُحِت اسمه على الدرابزين على يد نحات قديم الطراز، سيارة انعطفت تاركة الطريق السريع قبيل وصولها إلى الجسر، تبرز تارة، وتختفي تارة ثانية في متاهة من الطرقة الملتبسة. كانت تتحرك بحذر، وتبطئ كلما غيرت مسارها، ثم يتعالى الغبار خلفها مثل كلب يحفر التراب بقائمتيه الخلفيتين. بدت، في لحظة ما، أقربَ إلى روح تنقصها الرحمة والشفقة أكثر من مراقبنا المتخيل، لأن ذاك الهودج الأزرق الباهت ذا البوابتين البيضويتين، والعمر المجهول والوضع المزري، يقوده معتوه. في الواقع، كان سائقه هو "تيموفي بْنين"، الأستاذ بكلية "وايندِيل".

أخذ "بْنين" يتلقى دروسا في مدرسة السياقة بـ"وايندِيل" في مستهل ذلك العام، لكن لم يفهمها "الفهم الصحيح"، كما كتب، إلا بعد شهرين، عندما ظل مستلقياً بسبب آلام الظهر، ولم يكن يفعل أي شيء سوى الاستمتاع بقراءة *دليل السائق* ذي الصفحات الأربعين، الذي أصدره حاكم الولاية بتعاون مع خبير آخر، ومقالة بعنوان "السيارة" من *موسوعة أمريكانا*، مرفقة برسوم الموصلات والمغذيات والفرامل، وصورة عضو من أعضاء "رحلة غليدن" في نحو سنة ١٩٠٥، وهو غارق في وحل طريق ريفية، وسط خلاء موحش. حينها، وحينها فقط، تسامت الطبيعة المزدوجة لأفكاره الأولية أخيراً، بما أنه كان، وهو مستلقٍ على فراش المرض، يُذَبْذِب أصابع قدميه ويغيّر تروسا وهمية. خلال الدروس الفعلية رفقة معلم صارم ألزمه بأسلوبه، كان يصدر

تعليمات غير مفيدة وهو يعوي بكلمات تقنية دارجة، ويحاول أن ينزع منه المقود في المنعرجات، وظل يزعج تلميذاً هادئاً وذكياً بعبارات انتقاص سوقية، ظل "بْنين" عاجزا كلّيّة عن الجمع، من الناحية الإدراكية، بين السيارة التي يقودها في ذهنه والسيارة التي يسوقها على الطريق. لكن الاثنتين انصهرتا في آخر المطاف. فإذا كان قد أخفق في المرة الأولى في اختبار رخصة السياقة، فلأن السبب راجع أساساً إلى مناقشة مع الممتحن سعيا منه، في وقت غير مناسب، إلى إثبات أن أكبر إهانة بالنسبة لمخلوق عقلاني هي أن يطلب منه تشجيع نفسه على تطوير استجابة شرطية أساسية أثناء الوقوف عند إشارة الضوء الأحمر، حين لا يظهر أي أثر لمخلوق دنيوي في الجوار، أكان راجلاً أم راكباً. في المرة الموالية، احترس أكثر، فنجح في الاختبار. باعته "ماريلين هون"، العجوز العنيدة، التي كانت تتابع دروسه في اللغة الروسية، سيارتها القديمة المتواضعة بمائة دولار، لأنها كانت مقبلة على الزواج من مالك عربة أعظم وأكثر فرَهاً منها. كانت الرحلة من "وايندیل" إلى "أونكويدو"، مع المبيت ليلة واحدة بنزل سياحي، أبطأ وأصعب، لكنها لم تشهد أي حادثة. توقف على مشارف "أونكويدو" بمحطة بنزين، وغادر سيارته ليستنشق هواء البادية. ثمة سماء بيضاء مبهمة معلقة فوق حقل برسيم. تعالى من حزمة حطب قرب كوخ صياح ديكٍ حاد ومتقطع، صياح ينم عن التباهي والغرور. ذلك الإيقاع العرَضي في صياح الطائر المبحوح بعض الشيء، ممزوجاً بالهواء الدافئ الذي كان يهب على "بْنين" الباحث عن الاعتبار والاعتراف، عن أي شيء، ذكّره للحظة بيوم شاحب غابر، عندما وصل، وهو طالب مبتدئ بجامعة "بيتروغراد"، إلى محطة صغيرة بملجإ صيفي ببحر البلطيق، وبالأصوات والروائح والحزن...

«إنه يوم شديد الحرارة والرطوبة»، قال الخادم صاحب الذارع المشعّرة، عندما شرع يمسح الزجاج الأمامي.

أخرج "بْنين" رسالة من محفظته، وبسط الخريطة المستنسخة المصغرة المرفقة بها، ثم سأل الخادم عن مدى بعد الكنيسة التي ينعطف السائق على يسارها ليصل إلى بيت "كوك". كم اندهش "بنْين" فعلا من مدى تشابه الرجل مع الدكتور "هاغن"، زميله بكلية و"ايندِيل" ـ وهي حالة من حالات التشابه العابرة، التي تشبه في سخافتها أي تورية سمجة.

«حسنا، هناك طريقة أفضل للوصول إلى هناك»، قال "هاغن المزيّف. «لقد أفسدت الشاحنات تلك الطريق، إضافة إلى أنك لن تحبّ منعرجاتها. الآن قُدْ فحسب. شُقَّ المدينة. وبعد أن تغادر "أونكويدو" بخمسة أميال، وما إن تتجاوز المسلك المؤدي إلى جبل "إيتريك" على يسارك، وقبل أن تصل إلى الجسر، دُرْ مع أول منعطف على اليسار. إنها طريق رملية جيدة».

رفع غطاء المحرك بهمّة، ومرر ممسحته على الزجاج الأمامي من الجانب الآخر.

«انعطف شمالا، ثم واصل السير نحو الشمال عند كل تقاطع. هناك بعض الطرق في تلك الغابات، لكن واصل شمالا فحسب، وستصل إلى بيت "كوك" خلال اثنتي عشر دقيقة. لن تضل الطريق إليه».

وصل "بْنين" إلى تلك المتاهة من الطرق الغابوية بعد نحو ساعة. خلص إلى أن تلك العبارة «قد نحو الشمال»، وكلمة "شمال" في حد ذاتها، لم تكن في الواقع تعني أي شيء بالنسبة له. لم يستطع أيضاً أن يفسر الدافع الذي جعله ينصت، هو الكائن العاقل، إلى فضولي قاده الحظ إليه، عوض أن يحرص على اتباع التوجيهات الدقيقة المتحذلقة التي بعث بها صديقه "ألكسندر بيتروفيتش كوكولنيكوف" (المعروف

محليا باسم "أل كوك")، عندما دعاه إلى قضاء الصيف ببيته الريفي الواسع والمضياف. ها هو سائقنا المنحوس قد تاه تماماً الآن، حتى بات عاجزا عن العودة إلى الطريق السريع. ولما كان يفتقر إلى الحنكة الكافية في المناورة على الطرق الضيقة الكثيرة الأخاديد المليئة بالحفر، بل والخنادق المتسعة على الجانبين، فقد اتخذ تردّده وتلمّسه الطريق أشكالا بصرية غريبة قد يتابعها ملاحظ من برج مراقبة بعينٍ حنون. لكن لم يكن هناك أي مخلوق حي في تلك المنطقة المرتفعة المقفرة والباردة، ما عدا نملة تواجه متاعبها الخاصة، بعدما أفلحت، إثر مثابرة خرقاء، في الوصول إلى الرصيف والحاجز (حاجز طريقه السريع)، وشرعت تحتار وتتضايق كثيراً مثلما كانت تفعل تلك السيارة الألعوبة التي تتقدم هناك في الأسفل. سكنت الريح. بدا بحر الأشجار، أسفل تلك السماء الشاحبة، لا يأوي أي حياة. غير أن طلقة رصاص دوّت في تلك اللحظة، فتطاير غصن في السماء. بدأت الفروع الكثيفة العليا في ذلك الجزء من الغابة الساكنة إلى حدود تلك اللحظة تتحرك وتهتز وتتأرجح بإيقاع مختلف من شجرة إلى أخرى، قبل أن تسكن جميعها مجددا. انقضت دقيقة أخرى، ثم حدث كل شيء على حين غرة. عثرت النملة على دعامة عمودية تقود إلى سطح البرج، حيث شرعت تتسلقها بحيوية متجددة. بزغت الشمس. بينما وجد "بْنين" نفسه، وهو في أوج اليأس، على طريق معبدة على جانبها علامة صدئة، لكن مازالت نيّرة، توجه المسافرين نحو "بيت الصنوبر".

٢

"أل كوك" هو ابن "بيوتر كوكولنيكوف"، التاجر الموسكوفي الثري الذي ينحدر من سلالة محافظة، والرجل العصامي الذي يناصر الفن

والأدب ويحب فعل الخير ـ "كوكولنيكوف" الشهير الذي سجن في عهد القيصر الأخير مرتين في قلعة مريحة نسبيا لاتهامه بتقديم الدعم المالي للجماعات الاشتراكية الثورية (الإرهابية خصوصا)، وأُعدم أيام لينين لأنه "جاسوس إمبريالي"، بعدما ساموه عذابات القرون الوسطى طيلة نحو أسبوع في سجن سوفييتي. وصلت عائلته إلى أمريكا عبر مدينة "هاربين" الصينية، في نحو سنة ١٩٢٥. أما "كوك" الشاب، فقد تمكن، بفضل مثابرته الهادئة ودربته العمَلية وبعض النباهة العِلْمية، من أن يلج منصبا راقيا في شركة ضخمة للإنتاج الكيميائي. كان رجلا لطيفا ومتحفظا جدّاً ذا هيأة ممتلئة ووجه عريض وجامد تشدّه في الوسط نظارات أنفية براقة صغيرة. بدا كما هو: مديرا تجاريا، معماريا، لاعب غولف، ورجلا ثريا ومتحفظا. كان يتكلم لغة إنجليزية سليمة ومحايدة على نحو جميل، تتخللها نبرة سلافية رخيمة. كان مضيفا رائعا، من النوع الصامت، ذا عين متلألئة، يحمل كأس ويسكي في كل يد. لم يكن "ألكسندر بيتروفيتش" يناقش الله و"ليرمونتوف" والحرية، ويكشف عن مسحة وراثية من نزعة مثالية طائشة من شأنها أن تخلب عقل أحد الماركسيين، إلا عندما يحلّ صديق روسي قديم عزيز ضيفا عليه في منتصف الليل.

تزوج "سوزان مارشال"، ابنة المخترع "تشارلز مارشال"، الشقراء الفاتنة والفصيحة. ولأن لا أحد كان يتخيل أن يفعل "ألكسندر" و"سوزان" شيئاً آخر غير تربية أسرة باذخة الثراء، أصبنا بالصدمة، أنا وآخرون، عندما علمنا أن "سوزان" ستظل عاقرا طيلة حياتها نتيجة عملية جراحية. ما زالا شابين، يحبان بعضهما ببساطة العالم القديم، وبإخلاص جدير بالاتباع. وبدل أن يملآ محيطهما الريفي ذاك بالأولاد والأحفاد، كانا يستضيفان خلال أصياف السنوات الكبيسة العجزة الروس (آباء "كوكس" وأعمامه، إن صح التعبير)، ويستقبلان الأمريكيين في

أصياف السنوات العادية، من معارف "ألكسندر" في العمل أو أقرباء "سوزان" وأصدقائها.

كان ذلك أول عهد "بْنين" بـ"بيت الصنوبر"، بينما زرته أنا من قبل. كان المكان كلّه يغص بالمهاجرين الروس - من الليبراليين والمثقفين الذين غادروا روسيا في نحو سنة ١٩٢٠. كنت تجدهم جالسين على كل المقاعد المنتشرة في الأماكن الظليلة، يناقشون أعمال الكتاب المهاجرين - "بونين"، "ألدانوف"، "سيريني" - أو مستلقين على أراجيح يحتمون بطريقة تقليدية من الذباب بجريدة ناطقة باللغة الروسية عدد يوم الأحد، أو يرشفون الشاي المحلّى بالمربى على الشرفة، أو ماشين في الغابة مندهشين من إمكانية أكل فطر الغاريقون المحلي.

كان "صامويل لفوفيتش شبوليانسكي"، النبيل العجوز الهادئ على نحو مهيب، والكونت "فيودور نيكيتيش بوروشين"، العيّي الصغير السريع الاهتياج، اللذان كانا معا في نحو سنة ١٩٢٠ عضوين في إحدى تلك الحكومات الإقليمية الباسلة التي تشكلت في الأقاليم الروسية على يد جماعات ديمقراطية بغية التصدي للدكتاتورية البولشفية، يمشيان الهوينى في ممر الصنوبر، ويناقشان تكتيكات يجب أن يتبناها اللقاء المقبل المشترك بين اللجنة الروسية الحرة (التي أسساها في نيويورك) ومنظمة أخرى معادية للشيوعيين. كانت تنبعث من خيمة كادت تخفيها أشجار الخرنوب شظايا جدال حاد بين البروفيسور "بولوتوف"، أستاذ تاريخ الفلسفة، والبروفيسور "شاتو"، أستاذ فلسفة التاريخ. كان صوت أحدهما، هو صوت "بولوتوف" يرتفع قائلاً إن «الواقع هو الدوام». بينما يصرخ الثاني: «لا، ليس كذلك. إن فقاعة صابون واقعية كذلك شأنها شأن ضرس أحفوري».

كان "بْنين" و"شاتو"، اللذان ولدا معا في أواخر تسعينات القرن

التاسع عشر، شابّين نسبيا. بينما بلغ أغلب الرجال الآخرين سن الستين، حيث بدأ التعب يدبّ إلى مشيتهم. من ناحية أخرى، كانت بعض السيدات، أمثال الكونتيسة "بوروشين" والسيدة "بولوتوف"، ما يزلن في أواخر الأربعينيات، ولم يحتفظن فحسب بمظاهرهن الأنيقة بفضل الجو الصحي في العالم الجديد، بل تعهدنها بالزينة. اصطحب بعض الآباء أولادهم ـ أولاد أصحاء، طوال، خاملين، مُرْهِقين، في سن يسمح لهم بدخول الجامعة، يفتقدون أي حس بالطبيعة، لا معرفة لهم باللغة الروسية، ولا اهتمام مهما كان بتفاصيل أوساط آبائهم وماضيهم. بدا أنهم يعيشون بـ"بيت الصنوبر" في مستوى مادي وذهني مختلف تماماً عن مستوى الآباء، حيث ينتقلون، بين الفينة والأخرى، من مستواهم إلى مستوانا عبر ومضة متداخلة الأبعاد، كأن يتجاوبوا بأدب مع نكتة روسية حسنة القصد أو نصيحة متلهفة، ثم يغيبون مجددا، لا يأبهون على الدوام (حتى إن الواحد منا يظن أنه أنجب نسلا من الجنّ)، ويفضلون أي منتوج بدكاكين "أونكويدو"، أو أي نوع من السلع المعلّبة على الأطعمة الروسية الرائعة التي يقدمها آل "كوكولنيكوف" خلال العشاءات الصاخبة والطويلة في السقيفة ذات الستائر. كان "بوروشين" يقول عن ابنيه ("إيغور" و"أولغا") بأسى كبير: «توأماي مثيران للسخط. عندما أراهما في البيت خلال الفطور أو العشاء وأحاول أن أخبرهما أشياء أهم وأكثر تشويقا ـ منها مثلا حكومة الحكم الذاتي المنتخبة محليا في الشمال الروسي الأقصى خلال القرن السابع عشر، أو لنقل تاريخ مدارس الطب الأولى في روسيا ـ هناك بالمناسبة دراسة محكمة أنجزها "تشيستوفيتش" حول الموضوع، نشرها سنة ١٨٨٣ ـ يغادران فحسب، ويشغلان جهاز الراديو في غرفتيهما». كان الشابان بالجوار خلال الصيف عندما دُعِي "بْنين" إلى "بيت الصنوبر". لكنهما ظلا بعيدين عن الأنظار، حيث كان الملل سيقضي عليهما في ذلك المكان القصيّ، لو

لم يصل معجب بـ"أولغا"، وهو فتى جامعي بدا ألا أحد تعرف على اسمه العائلي، من بوستن على متن سيارة مذهلة لقضاء نهاية الأسبوع، ولو لم يجد "إيغور" رفقة تناسب مزاجه في "نينا"، ابنة "بولوتوف"، الفتاة القذرة والجميلة ذات العينين المصريتين والأطراف السمراء، التي كانت تتابع دروس الرقص بمدرسة بنيويورك.

كانت شؤون آل البيت مشمولة برعاية "براسكوفيا"، المرأة الستّينية الحازمة والمحبوبة التي تتمتع بهمة ونشاط شابة في الأربعين من العمر. كان منظرها مطربا، وهي واقفة في آخر السقيفة تستطلع الدجاج، يداها على وركيْها، متأنقة بسروالها الفضفاض المصنوع محليا وبلوزتها الوقورة المزينة بأحجار الراين. فقد تولت تربية "ألكسندر" وأخيه عندما كانا طفلين بمدينة "هاربين"، وهي اليوم لا تجد العون في واجباتها المنزلية إلا عند زوجها، وهو عجوز قوزاقي عابس أبله شُغِف طوال حياته بهواية تجليد الكتب ـ عصامي وشبه مريض حتى إنه يجد نفسه مدمنا على العناية بأي دليل قديم أو مجلة تقع بين يديه، وعلى تحضير شراب الفواكه، وقتل حيوانات الغاب الصغيرة.

كان "بُنين"، من بين ضيوف تلك السنة، يعرف البروفيسور "شاتو" معرفة جيدة، فهو صديق أيام الشباب، حيث كانا يتابعان معا الدراسة بجامعة "براغ" في بداية العشرينات. كان يتعارف كذلك مع آل "بولوتوف" الذين التقى بهما آخر مرة سنة ١٩٤٩، عندما رحب بهما في خطاب خلال حفل عشاء رسمي نظمته على شرفهما جمعية المثقفين المهاجرين الروس بقصر "باربيزون"، بمناسبة مقدَم "بولوتوف" من فرنسا. شخصيا، لم ألتفت كثيراً إلى "بولوتوف"، ولم أهتم أبدا اهتماما كبيراً بأعماله الفلسفية التي تمزج، على نحو غريب، بين الغموض والابتذال. ربما يكون إنجاز الرجل جبلا، لكن جبلا من التفاهات. غير أنني أحب على الدوام "فارفارا"، زوجة الفيلسوف الأخرق المتوثبة

الناهد. عندما زارت "بيت الصنوبر" أول مرة سنة ١٩٥١، لم تكن قد رأت ريف "نيو إنغلند" من قبل. لقد خدعها تامولة وتوته في أن تميز على المستوى الذهني موقع بحيرة "أونكويدو"، لا موازاة، لنقل، مع بحيرة "أوخريد" في البلقان حيث موطنها، بل مع بحيرة "أونيغا" في شمال روسيا حيث قضت أصيافها الخمسة عشر الأولى، قبل أن تفرّ من البلاشفة إلى أوربا الغربية، رفقة عمّتها "ليديا فينوغرادوف"، المناضلة النسائية والمُصْلِحة الاجتماعية المعروفة. هكذا، تأثرت "فارفارا" برؤية طائر طنان في تحليقه الفاحص، أو شجر الكاتالبا بنضارته المزهرة، تأثرا أقرب إلى ما تخلقه الرؤية المتكلفة أو العجيبة في النفس. كانت الشياهم السمينة التي تقضم خشب المنزل الرث والنتن اللذيذ، أو الظرابين الصغيرة الأنيقة والعجيبة التي تختبر مذاق حليب القطط في الفناء الخلفي، خرافية أكثر مما في صور حكايات الحيوانات. كانت تدهشها وتسحرها نباتات ومخلوقات لم تستطع تحديد أنواعها، وكانت تحسب طيور الشادي الصفراء طيور كناري هاربة، وكانت تأتي في مناسبة عيد ميلاد "سوزان"، بفخر وحماس باهر، بأوراق لبلاب جميلة وسامة، تتدلى على صدرها الوردي المنمش، لتزين بها مائدة العشاء.

٣

كان آل "بولوتوف" والسيدة "شبوليانسكي"، المرأة الهزيلة الضامرة التي ترتدي سروالا، أول من رأى "بْنين" ينعطف بحذر إلى طريق رملية تحفها نباتات الترمس، معتدلا في جلسته، قابضا بإحكام على المقود، كأنه فلاح متعود على جرّاره أكثر من سيارته. كان يسوق سيارته ضابطا إياها على الترس الأول بسرعة عشرة أميال في الساعة، بين أشجار

الصنوبر المعمرة الشعثاء ذات المظهر الأصيل العجيب، والتي تفصل الطريق المعبدة عن "قصر كوك".

انشرحت "فارفارا"، وهي تنهض من مقعدها داخل الخيمة ـ حيث وجدت هي و"روزا شبوليانسكي" قبل هنيهة "بولوتوف" بصدد قراءة كتاب رث وتدخين سيجارة ممنوعة. حيّت "بْنين" بالتصفيق، بينما أظهر كامل لطفه وكياسته، وهو يلوح بأناة بالكتاب الذي أغلق دفتيه على إبهامه علامةً على الصفحة التي توقف عندها. أوقف "بْنين" المحرك، ثم جلس يبتسم في وجه أصدقائه. كانت ياقة قميصه الرياضي الأخضر مفتوحة. بدا معطفه شبه المفتوح ضيقا جدّاً لا يناسب بدنه المثير. كان رأسه الأصلع البرونزي اللون، ذو الجبين المجعد والوريد الذي تبزر التواءاته فوق الصدغ، يميل قليلاً إلى الأمام، وهو يجاهد ليفتح الباب ويقفز خارجا من السيارة.

«سيارة بديلة... سيارة أمريكية حقيقية، من أيزنهاور مباشرة!»[1] قالت "فارفارا"، ثم عرّفت "بْنين" على "روزا أبراموفنا شبوليانسكي".

«كان لنا بعض الأصدقاء المشتركين قبل أربعين سنة»، علّقت تلك السيدة، وهي تنظر إلى "بْنين" بفضول.

«آه، دعونا لا نذكر بعض الوجوه الفلكية»، قال "بولوتوف"، وهو يقترب ويضع ورقة عشب كعلامة في الكتاب بدل إبهامه. «كما تعلمون»، واصل حديثه، وهو يصافح "بْنين"، «أنا أعيد قراءة رواية *"أنا كارينينا"* للمرة السابعة، وما زلت أنتشي بنفس المتعة كما كنت أفعل قبل أربعين، بل ستين سنة، عندما كنت فتى في السابعة. ففي كل مرة، أكتشف أشياء جديدة. فعلى سبيل المثال، ألاحظ الآن أن "ليف نيكولاييفيتش" لا

---

(١) وردت العبارة في النص الأصلي باللغة الروسية (المترجم).

يعرف اليوم الذي تبدأ فيه روايته، حيث يبدو أنه يوم جمعة لأنه اليوم الذي يأتي فيه إلى بيت "آل أوبلونسكي" الساعاتي ليعبئ ساعاته، لكنه كذلك يوم خميس كما جاء في الحوار الذي دار في حلبة التزلج بين "ليوفين" ووالدة "كيتي".

«ترى ما أهمية ذلك؟» صرخت "فارفارا"، «من بحق السماء يرغب في معرفة اليوم على وجه التحديد؟»

«يمكنني أن أخبرك اليوم بالضبط»، قال "بْنين"، وهو يرمش بسبب أشعة الشمس الكاسحة، ويستنشق رائحة صنوبر الشمال المحفوظة في الذاكرة. «تنطلق أحداث الرواية في بداية سنة ١٨٧٢، على وجه الخصوص يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر فبراير حسب التقويم الغريغوري. في جريدته الصباحية، يقرأ "أوبلونسكي" أنه شاع أن "بوست" توجه إلى "ويسبادن". يتعلق الأمر طبعاً بالكونت "فريدريك فرديناند فون بوست"، الذي عُيّن حينها سفيرا للنمسا إلى قصر "سانت جيمس"[1]. سافر "بوست"، بعد أن قدم أوراق اعتماده، إلى أوربا لقضاء عطلة طويلة بمناسبة أعياد الميلاد، حيث قضى هناك شهرين رفقة أسرته، وكان حينذاك عائداً إلى لندن حيث كانت تجري الاستعدادات، بحسب مذكراته المنشورة في جزأين، للاحتفال بعيد الشكر الذي كان سيعقد بقصر "سان بول" يوم السابع والعشرين من شهر فبراير، بمناسبة شفاء أمير بلاد الغال من حمى التيفويد. لكن الجو حار جدّاً هنا! أعتقد أنه يجب الآن أن أقدم نفسي أمام هذه الأجرام السماوية الأكثر سطوعا

(١) قصر "سانت جيمس" هو أحد قصور المملكة المتحدة الرسمية التي يستقبل فيها جميع سفراء العالم المعتمدين لدى لندن وكبار المفوضين والمبعوثين إلى التاج البريطاني (المترجم).

(مازحا) الدائرة في فلك "ألكسندر بيتروفيتش"، ثم أغطس (مازحا أيضا) في النهر الذي يصفه في رسالته وصفا قويا جدا».

«سيغيب "أكسندر بيتروفيتش" إلى غاية يوم الاثنين، من أجل التجارة أو الاستجمام»، قالت "فارفارا بولوتوف"، «أعتقد أنك ستجد "سوزانا كارلوفنا" تتشمس في حديقتها المفضلة أمام البيت. نادِ عليها قبل أن تدنو منها كثيراً».

٤

كان "بيت كوك" عبارة عن قصر شيد سنة ١٨٦٠ بثلاثة طوابق من الآجر والخشب، ثم أعيد ترميم جانب منه بعد قرن، عندما اشتراه والد "سوزان" من عائلة "دادلي غرين"، قصد أن يجعل منه فندقا فاخرا يلوذ إليه الأثرياء رعاة ينابيع "أونكويدو" الشافية. كان مبنى واسعا وشنيعا بأسلوبه الهجين ذي النقوش القوطية البارزة على آثار فرنسية وفلورنسية، إذ بدا من تصميمه الأول أنه ربما ينتمي إلى الفئة التي صنفها "صامويل سلاون"، وهو مهندس معماري كان مشهورا في تلك الفترة، باعتبارها فيلا شمالية مختلفة «تتلاءم تماماً مع أعلى متطلبات الحياة الاجتماعية»، وسماها بـ"الشمالية" بسبب «ميل سقفها وأبراجها نحو الشمال». للأسف، لم تكن قباب القصر الحادة ومظهره المبهج، بل وفضائه الفاتن إلى حدٍّ ما، والذي يتكون من عدة فِلَلٍ شمالية صغيرة شيدت على علو متوسط كيفما اتفق، بسقوفها غير المتناسقة وأركانها المسنّمة الفاترة، وأفاريزها، وزواياها الريفية، ونتوءاتها الأخرى المتدلية من كل جانب، تستهوي السياح إلا لبضع لحظات. ففي نحو سنة ١٩٢٠، فقدت مياه "أونكويدو"، على نحو غريب، كل ما كانت تتميز به سحر. إذ حاولت "سوزان" عبثا أن تبيع "بيت الصنوبر" بعد وفاة والدها، طالما أن

أسرتها كانت تملك بيتا مريحا آخر في الحي السكني بالمدينة الصناعية حيث كان يعمل زوجها. لكن بما أنهم اعتادوا على استعمال القصر لمؤانسة أصدقائهم الكثر، كانت "سوزان" مسرورة، لأن المشترين أعرضوا عن شراء ذلك المسخ الوديع والمحبوب.

كان البيت من الداخل يتميز بتنوع أكبر من خارجه. كانت هناك أربع غرف فسيحة تنفتح على الفناء الواسع الذي احتفظ ببعض سماته أيام كان نزلا بأبعاد موقده السخيّة. كان تاريخ درابزين الدرج، وعمود على الأقل، يعود إلى سنة ١٧٢٠، حيث جيءَ به أثناء بناء البيت من منزل آخر بعيد، لم يعد يُعرَف موقعه بالضبط. قديمة هي كذلك ألواح الألعاب والأسماك المعلقة على حيطان غرفة الطعام. كان بإمكان الزائر أن يكتشف، في نصف غرف الطوابق العلوية، وفي الجناحين الخلفيين، من بين قطع أثاث مختلفة، مكتبا خشبيا صقيلا ناعما، ومقعدا خشبيا ورديا رومانسيا، بل وكل أنواع اللوازم والمعدّات الكبيرة والبئيسة، مثل الكراسي المكسورة والموائد المغبرة ذات الواجهة الرخامية، والرفوف الكالحة بشظايا مراياها السوداء التي بدت في الخلف كئيبة مثل عيون قردة هرِمة. كانت غرفة "بْنين" رائعة تطل من الطابق الأعلى على الجهة الجنوبية الشرقية. التصقت بجدرانها بقايا ورق مذهّب، وكان بها سرير خفيف، ومغسلة ناصعة، وجميع أنواع الرفوف، والعوارض، وقوالب الزخرفة. فتح النافذة التي تشبه البوابة، وابتسم في وجه الغابة البشوشة. تذكر مجددا يوما بعيدا، وهو في الريف يتمشى مرتديا برنس حمام أزرق داكن جديد، قدماه العاريتان تنتعلان زوج جرموق مطاطي عادي يستعمله المرء احتياطا إذا كان ينوي أن يتمشى على الأعشاب المبللة، والتي تغزوها الأفاعي ربما. في شرفة الحديقة وجد "شاتو".

كان "كونستانتين إيفانيتش شاتو"، الدارس الأريب والرائع للسلالة الروسية الأصيلة رغم لقبه (المشتق، كما قيل لي، من اسم ذلك الفرنسي

الذي تجنس بالجنسية الروسية واعتمد اسما يتيما هو "إيفان")، يدرس بجامعة نيويوركية كبيرة، حيث لم يرَ صديقه العزيز "بْنين" مدة خمس سنوات على الأقل. تعانقا بحرارة وفرح هادر. أعترف أنني شخصيا كنت مأخوذا، في لحظة ما، بسحر "كونستانتين إيفان" الملائكي، خاصة أننا تعودنا أن نلتقي كل يوم من أيام شتاء سنة ١٩٣٥ أو ١٩٣٦، من أجل جولة صباحية بين أشجار الغار ونباتات القرّاص في منطقة "غراس"، جنوب فرنسا، حيث كان حينها يتشارك فيلا مع عدد من المهاجرين الروس الآخرين. كان صوت "شاتو" الناعم، ولثغته النبيلة لحرف الراء على طريقة أهل سانت بيترسبورغ، وعيناه الوديعتان والكئيبتان مثل عيني أيل، وعثنونه الكستنائي الذي يعبث به طوال الوقت بحركة من أصابعه الطويلة والرخوة ـ كل شيء فيه (حتى أستعمل عبارة أدبية مهجورة مثله) يعطي لأصدقائه إحساسا نادرا بالسعادة. تحدث هو و"بْنين" برهةً، حيث تبادلا التعليقات. إذ لم يسعيا إلى أن يستحضرا الماضي الشخصي فحسب، مثلما يفعل منفيون ذوو مبادئ ثابتة كلما التقوا بعد فراق، بل أيضاً إلى أن يلخّصا بواسطة بعض كلمات سر خاطفة ـ من تلميحات ودمدمات تستحيل ترجمتها إلى لغة أجنبية ـ مجرى التاريخ الروسي الحديث، أي خمسا وثلاثين سنة من الاضطهاد بلا أمل بعد قرن من الكفاح في سبيل العدالة وبصيص من الأمل. بعد ذلك، كانا يغيران الموضوع، ليخوضا في حديث المقاهي كما يفعل الأساتذة الأوربيون في الخارج، يتأوهان ويحركان رأسيهما أثناء تناولهما "نموذج الطالب الأمريكي" الذي لا يعرف الجغرافيا، ويتحصن من الضجيج، ويعتقد أن التعليم ليس سوى وسيلة للحصول في النهاية على وظيفة مُجْزية. ثم يسألان بعضهما عن مدى تقدم أعمالهما، حيث كانا يبديان معا تواضعا وتحفظا شديدا إزاء أبحاثهما. وأخيرا، كانا، وهما ماشيان على طول طريق مرج، يتحسسان الأعواد الذهبية في طريقهما إلى الغابة التي

يخترقها واد كثير الصخور، يتحدثان عن أحوالهما الصحية: قال "شاتو"، الذي بدا أنيق المظهر، واضعا يده في جيب بنطلونه القطني الأبيض ومعطفه القماشي المصقول المفتوح بشكل مهمل بالأحرى على صدرية قطنية، بابتهاج إنه سيخضع لعملية فحص بطنه في القريب العاجل، بينما قال "بْنين" ضاحكاً إن الأطباء كانوا يحاولون، كلما فحصوه بالأشعة السينية، أن يفكوا لغز ما كانوا يسمونه بـ"ظل خلف القلب"، لكن بلا جدوى.

«عنوان جيد لرواية رديئة»، قال "شاتو" معلقا.

عندما كانا يجتازان رابية معشوشبة قبيل أن يقتحما الغابة، توجه نحوهما رجل وقور ذو وجه وقور يرتدي سترة قطنية مخططة، وشعر أبيض أشعث، وأنف أرجواني أفطس أشبه بتوتة عليق كبيرة، يذرع ذلك المنحدَر، ونظرة اشمئزاز تعلو ملامحه.

«يجب أن أعود لأبحث عن قبعتي»، صرخ بأسى، عندما اقترب منهما.

«هل تعرفه؟» همس "شاتو"، محركاً يديه بغية التعريف بنفسيهما. «"تيموفي بافليتش بْنين"، "إيفان إليتش غرامينيف"».

«احتراماتي»، قال الرجلان معا، وهما ينحنيان لبعضهما، بعد أن تصافحا بحرارة.

استأنف "غرامينيف" بأسلوبه الحكائي المسهب:

«اعتقدت أن اليوم سيبقى غائما كما بدأ. وبغباء خرجت دون غطاء للرأس. ها هي الشمس تشوي دماغي. يجب أن أنهي عملي».

أشار بيده ناحية قمة الرابية. كان هناك مِسْنَد لوحاته منتصبا بشكل رشيق، مواجها السماء الزرقاء. فوق تلك القمة كان يرسم منظر وادٍ خلفها، يزيّنه حوش قديم وشجرة تفاح مغضنة وقطيع أبقار.

«يمكنني أن أمنحك قبعتي»، قال "شاتو"، لكن "بْنين" كان قد أخرج من جيب برنسه منديلا أحمر كبيرا. أبرم كل زاويتين في عقدة بإتقان.

«رائع... ممتن أيما امتنان»، قال "غرامينيف"، وهو يسوي ذلك الطربوش على رأسه.

«لحظة. يجب أن تطوي العقدتين».

بعد أن امتثل "غرامينيف" للأمر، قفل عائداً إلى أعلى الرابية نحو مسنده. كان رساما أكاديميا مشهورا على نطاق واسع، مازالت لوحاته الزيتية المفعمة بالعاطفة ـ "الأم فولغا"، "ثلاثة أصدقاء قدامى" (الفتى والفرس والكلب)، "فسحة أبريل"، وغيرها ـ تزيّن جدران متحف في موسكو.

«أخبرني أحدهم أن ابن "ليزا" يملك موهبة استثنائية في الرسم. هل هذا صحيح؟» قال "شاتو"، عندما واصل هو و"بْنين" سيرهما نحو النهر.

أجاب "بْنين":

«نعم، بشكل مزعج كثيراً، حتى إن والدته، التي أظن أنها ستتزوج مرة ثالثة، اصطحبت "فيكتور" فجأة إلى كاليفورنيا خلال ما تبقى من الصيف، بينما لو رافقني إلى هنا، كما كان مرتقبا، لأتيحت له الفرصة الرائعة أن يتدرب على يد "غرامينيف"».

«أنت تغالي في اعتبار هذه الفرصة رائعة»، أجاب "شاتو" بصوت هادئ.

بلغا النهر الهادر والرقراق. كانت هناك حافة مجوفة بين الشلالين الصغيرين الأعلى والأسفل، شكلت مسبحا طبيعيا أسفل أشجار النغت والصنوبر. جلس "شاتو"، الذي لا يتقن السباحة، على جلمود طلبا

للراحة. أما "بْنين" الذي أمضى سنته الأكاديمية معرضا جسمه على الدوام لانبعاثات مصباح مشعّ، فقد لمعت بشرته الداكنة الحمرة تحت أشعة الشمس المرقطة المسلطة على الحديقة جنب النهر، عندما تعرى إلا من مايوه الحمام. نزع صليبه وجرموقه كذلك.

«انظر، كم هي جميلة»، قال "شاتو" الشديد الانتباه.

حطّ سرب فراشات صغيرة، كلها من نوع واحد، على بقعة رملية مبتلّة، كانت أجنحتها ترتفع وتنخفض، كاشفة عن بطونها الشاحبة المنقوعة بنقاط سوداء وبقع طاووسية صغيرة برتقالية منتشرة على أطراف أجنحتها الخلفية. انزعج بعضها بسبب فردة جرموق طرحها "بْنين"، فرفرفت مثل ندف الثلج، كاشفة عن مظهر رباني أسفل أجنحتها، قبل أن تحطّ مجددا.

«للأسف، لا يوجد "فلاديمير فلاديميروفيتش معنا هنا»، قال "شاتو" ملاحظا. «لو كان، لأخبرنا عن جميع هذه الحشرات الفاتنة».

«لطالما راودني انطباع يفيد أن معرفته بعلم الحشرات هي مجرد ادعاء».

«آه، لا»، قال "شاتو". «ستضيعه يوما ما»، أضاف وهو يشير إلى الصليب الكاثوليكي اليوناني المتدلي من قلادة ذهبية نزعها "بْنين" من عنقه وعلقها على غصن. أذهل وميضه يعسوبا.

«ربما لن أبالي إن أضعته»، قال "بْنين". «كما تعلم جيدا، لا أضعه إلا لأسباب عاطفية. وقد بدأت العاطفة تتحول إلى عبء. وفي النهاية، هناك شيء ما محسوس في هذه المحاولة الساعية إلى الحفاظ على قلادة من أيام الطفولة، وهي تحتك بعظام الصدر».

«لست أول من يختزل العقيدة في حاسة اللمس»، قال "شاتو"، الذي كان مؤمنا كاثوليكيا أورثودكسيا، وكان يستهجن سلوك صديقه اللأدري.

تجرأت نعرة، مثل أحمق أعمى، وحطت فوق صلعة "بْنين"، فسحقها بلطمة من راحته اللحيمة.

من صخرة أصغر من تلك التي جلس عليها "شاتو"، نزل "بْنين" بحذر شديد إلى الماء الأزرق الكستنائي. لاحظ أن ساعته مازالت مشدودة إلى معصمه، فنزعها ووضعها داخل فردة من فردتي جرموقه. كان "بْنين" يعبر النهر، وهو يهز كتفيه الأسمرين ببطء، بينما ظلال الأوراق المتشابكة تتململ وتنساب فوق ظهره العريض. توقف، محطما البريق والظل من حوله، بلّل رأسه المائل، مرر يديه المبللتين على قفاه، خلّل إبطيه واحداً بعد آخر، ثم شبك راحتيه معا، وغطس في الماء، كانت نبضات قلبه الجليلة تجعل الماء موجات وترسلها إلى كل جانب. سبح "بْنين" متوترا داخل المسبح الطبيعي. كانت تصدر عنه، وهو يسبح، غرغرات إيقاعية، نصفها خرير ونصفها الثاني لهاث. كان يفتح رجليه بشكل إيقاعي، ويباعد بينهما عند الركبتين، بينما يُقوّس ذراعيه ويسوّيهما مثل ضفدع ضخم. بعد دقيقتين، انسل من الماء، ثم جلس على الصخرة حتى ينشف. ثم وضع صليبه وساعته، وانتعل جرموقه، ولبس برنسه.

٥

قُدّم العشاء في الشرفة الزجاجية. استأنف "نْنين" حديثا سابقا بشكل تلقائي، ما إن جلس جنب "بولوتوف" وشرع يخلط القشدة المحمّضة بحساء البنجر المثلج الأحمر، بينما كانت مكعبات الثلج الوردية تحدث رنينا، وهي تتماس فيما بينها.

قال: «ستلاحظ أن هناك فرقا مهما بين الزمن الروحي عند "ليوفين"

والزمن الفيزيائي عند "فرونسكي". إلى حدود منتصف الكتاب، يتخلف "ليوفين" و"كيتي" عن "فرونسكي" و"أنا" بسنة كاملة. عندما ألقت "أنا" بنفسها، ذات مساء أحد من شهر مايو ١٨٧٦، أسفل قطار الشحن ذاك، فقد كانت موجودة منذ أكثر من أربع سنوات، اعتبارا من بداية الرواية، لكن في حالة "ليوفين"، وخلال الفترة ذاتها الممتدة من ١٨٧٢ إلى ١٨٧٦، بالكاد انصرمت ثلاث سنوات. إنه أفضل مثال أعرفه عن النسبية في الأدب.

بعد العشاء، اقترح الجميع أن يلعبوا لعبة الكروكيه. كان أولئك اللاعبون يفضلون خطة الأطواق التقليدية، وإن كانت ممنوعة من الناحية التقنية، حيث كان يتقاطع طوقان من الأطواق العشرة وسط الملعب، ليشكلا ما يسمى بالقفص أو المصيدة. سرعان ما تبين أن "بْنين"، الذي شكل فريقا مع السيدة "بولوتوف" ضد "شبوليانسكي" والكونتيسة "بوروشين"، كان اللاعب الأفضل في المجموعة إلى حد بعيد، حيث طرأ تحوّل كلي على الرجل، ما إن دُقّت الأوتاد وانطلقت اللعبة. إذ انتقل من طبيعته المعتادة، البطيئة، الثقيلة، الجامدة بالأحرى، إلى عدّاء أحدب، أخرس، هائل الحركة، ذي سحنة ماكرة. ظلّ مستعدا للعب في كل نوبة. كان "بْنين يُدْني مطرقته كثيراً، ويؤرجحها بليونٍ وخفة بين ساقيه الطويلتين المنفرجتين (لقد خلق إحساسا طفيفا عندما ارتدى بذلة برمودا خصيصا لتلك اللعبة). وكان يستشرف كل ضربة ترمي إلى تسجيل الهدف بذبذبة رأس المطرقة، قبل أن يسدد الكرة تسديدة متقنة؛ ثم فورا، يجري بسرعة، بهيأته المحدودبة، والكرة مازالت تتدحرج، إلى النقطة حيث خطط لها أن تتوقف. كان يمررها عبر الأطواق، بحسابات هندسية دقيقة، منتزعا صرخات الإعجاب من المتفرجين. حتى "إيغور بوروشين"، الذي كان مارّاً مثل ظلٍّ حاملا قنينتي جعة إلى مأدبة خاصة، توقف هنيهة، وحرّك رأسه إعجابا، قبل أن يتوارى خلف غابة أشجار.

غير أن الشكاوى والاحتجاجات ستمتزج بالتصفيق، عندما سدّد "بْنين" كرة للخصم، أو قذفها بالأحرى، بجفوة همجية. إذ وضع الكرة الأخيرة جنب كرته، وثبّت قدمه الصغيرة على نحو غريب على هذه الأخيرة، ثم قرع كرته، ليرسل الكرة الثانية إلى الرّيف تحت وقع قوة الضربة. قالت "سوزان"، عندما التمس الجميع تحكيمها، إن الضربة مخالفة بشكل قاطع لقواعد اللعبة، لكن السيدة "شبوليانسكي" أصرت على اعتبارها مقبولة تماماً، وقالت إن مربيتها الإنجليزية اعتادت، عندما كانت طفلة، أن تسميها بضربة "هونغ كونغ".

بعد أن كسب "بْنين" اللعبة وانتهى كل شيء، ولازمت "فارفارا" "سوزان" أثناء إعداد شاي المساء، انسحب "بْنين" بهدوء إلى مقعد أسفل الصنوبرات. انتابته مجددا نوبة قلبية موجعة ومريعة جداً، مما خبره عدة مرات طيلة يفاعته. لم تكن ألما أو خفقانا، وإنما شعورا رهيبا بالذوبان والانصهار في المحيط المادي، من غروب، وجذوع أشجار حمراء، ورمل، وهواء ساكن. في تلك الأثناء، توجهت "روزا شبوليانسكي" إلى "بْنين"، عندما لاحظت أنه كان جالسا وحده، مستغلة ذلك (ابقَ جالسا، لا تقف)، وجلست جنبه على المقعد.

«في سنة ١٩١٦ أو ١٩١٧»، قالت، «ربما سمعت باسمي قبل الزواج - "جيلر" - من بعض أصدقائك المقربين».

«لا، لا أتذكر ذلك»، قال "بْنين".

«لا أهمية له، على كل حال. لا أظن أننا التقينا قطّ، لكنك كنت تعرف حق المعرفة ابنتي خالي "غريشا" و"ميرا بيلوشكين". كانتا تتحدثان عنك باستمرار. يعيش خالي في السويد، وأعتقد أنك سمعت، طبعا، بالنهاية الفظيعة لأخته المسكينة..».

«أجل، سمعت بها»، قال "بْنين".

كان زوجها "صامويل لفوفيتش"»، قالت السيدة "شبوليانسكي"، «رجلا جذابا. وقد عرفته، وزوجته الأولى "سفيتلانا شيرتوك"، عازفة البيانو، عن قرب. حبسه النازيون بمعزل عن "ميرا"، ومات بمعسكر الاعتقال النازي نفسه حيث مات شقيقي الأكبر "ميشا". لم تكن تعرف "ميشا"، أليس كذلك؟ كان عاشقا أيضاً لـ"ميرا" ذات زمن».

«"تشاي غوتوف" (الشاي جاهز)»، هتفت "سوزان" من الشرفة بلغتها الروسية الوظيفية الطريفة. «"تيموفي، "روزوشكا"! تشاي».

أخبر "بْنين" "شبوليانسكي" أنه سيتبعها بعد حين. بعد أن ذهبت، بقي جالسا في الغسق الذي بدأ يرتخي على ذلك العريش، بينما يداه مازالتا تمسكان بمطرقة الكروكيه.

أرسل قنديلا كيروسين نورهما الدافئ على شرفة البيت الريفي. لم يستطع الدكتور "بافيل أنتونوفيتش بْنين"، والد "تيموفي"، طبيب العيون، والدكتور "ياكوف غريغوريفيتش بيلوشكين"، والد "ميرا"، طبيب أمراض الأطفال، أن يتركا لعبة الشطرنج التي عكفا عليها في زاوية من الشرفة، لذلك طلبت السيدة "بيلوشكين" من الخادمة أن تقدم لهما هناك ـ فوق مائدة يابانية صغيرة خاصة، قريبة من الطاولة التي كانا يلعبان عليها ـ كأسيهما من الشاي في صينيتين فضّيتين، والرائب ومصل اللبن مع الخبز الأسود، والفراولة، ونوع من الثمرة الأخرى "كلوبنيكا" (أو الفراولة الخضراء)، والمربّى الذهبي المتلألئ، ومختلف أنواع البيسكويت والرقائق المملحة والكعك المحمص ـ بدل أن تدعو الطبيبين الشاردين إلى المائدة الرئيسية في الجهة الأخرى من الشرفة حيث جلس باقي أفراد العائلة والضيوف، بعضهم صفت أذهانهم من كل شيء، والآخرون ذابوا في سديم ساطع.

تناول الدكتور "بيلوشكين" بيده المتعامية رقاقة مملحة، بينما حرّك

"بْنين" بيده البصيرة رخّاً. ظل "بيلوشكين" يمضغ ويحدق في الفجوة داخل رقعته. غمس "بْنين" كعكة مجرّدة في فتحة كأس شايه.

كان البيت الريفي، الذي اكتراه آل "بيلوشكين" خلال ذلك الصيف، يقع على الملجأ البلطيقي نفسه، الذي اكترى بقربه آل "بْنين" كوخا صيفيا من أرملة الجنرال "ن..."، على تخوم بيتها السَّبخي المتين والواسع ذي أخشاب سوداء تسيّج مزرعة جرداء. كان "تيموفي بْنين" ما يزال ذلك الفتى الأخرق، الخجول، العنيد، ذا الأعوام الثمانية عشر، الذي ينتظر "ميرا" في العتمة ـ ورغم أن المنطق أحلّ المصابيح الكهربائية محلّ قناديل الكروسين، فأعادت تنظيم الناس، محولة إياهم إلى مهاجرين مستّين، موصلة الشرفة المضاءة بأسلاك الكهرباء إلى الأبد، بلا رجعة، وعلى نحو آمن، فإن صاحبي "بْنين" المسكين كان يتخيل، بفطنة هذيانية، "ميرا" وهي تتسلل من هناك إلى الحديقة، وتتوجه نحوه بين ورود تبغ طويلة يتداخل لون تويجاتها البيضاء الباهتة مع لون فستانها. بطريقة ما، تزامن ذلك الشعور مع إحساس بالانبعاث والانشراح داخل صدره. وضع مطرقته برفق جانبا، ثم ليبدد الكآبة، شرع يمشي مبتعدا عن البيت، عبر غابة الصنوبر الساكنة. كانت تنبعث، من سيارة مركونة قرب كوخ خاص بأدوات البستنة، يبدو أن على متنها طفلان على الأقل من أبناء رفاقه الضيوف، موسيقى إذاعية منتظمة.

«جاز، جاز، هؤلاء الشباب، لا بد لهم من الجاز على الدوام»، همس "بْنين" لنفسه، ثم انعطف نحو الطريق المؤدية إلى الغابة والنهر. تذكر ولعه هو و"ميرا" أيام الشباب، تذكر الأدوار المسرحية الهاوية، والأغاني الغجرية، وشغفها بالتصوير. أين هي الآن تلك الصور الفنية التي اعتادت التقاطها ـ صور حيوانات، وغيوم، وورود، وفُسَح أبريل وظلال التامول فوق الثلج السكّري الندي، وجنود يتهيأون لالتقاط صور على سطح مقطورة، وغروب الشمس في الأفق، ويد تحمل كتابا؟ تذكر

يوم لقائهما الأخير، على ضفة نهر "نيفا" بمدينة بيتروغراد، والدموع، والنجوم، والبطانة الحريرية القرمزية لقفازيها الصوفيين. فرّقت بينهما الحرب الأهلية التي امتدت من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢٢، ونقض التاريخ خطوبتهما. رحل "بْنين" إلى الجنوب، حيث التحق بصفوف جيش "دينيكين" لمدة وجيزة، بينما فرّت عائلة "ميرا" من البلاشفة إلى السويد، قبل أن تستقر بألمانيا، فآل بها المطاف إلى الزواج بتاجر فراء من أصل روسي. في بعض الأحيان، كان "بْنين"، خلال بداية الثلاثينيات، وكان متزوجا هو الآخر حينها، يرافق زوجته إلى برلين، استجابة لرغبتها في متابعة مؤتمر حول الطب النفسي. ذات ليلة، التقى بـ"ميرا" مجددا، داخل مطعم روسي يقع في شارع "كورفورشتاندام". تبادلا بضع كلمات، وابتسمت له بطريقتها المعهودة، من أسفل حاجبيها الأسودين، بمواربتهما الخجولة تلك؛ لم يتغير مدار خدّيها البارزين، وعينيها السابغتين، ورشاقة ذراعها وكاحلها، ظل كل شيء فيها خالدا.. ثم التحقت بزوجها الذي ذهب ليستعيد معطفه من المستودع. كان ذلك كل ما جرى بينهما ـ لكن أسى العذوبة ظل باقيا، شبيها بمدارات نابضة لقصائد تعلم أنك تعرفها، لكنك لا تستطيع تذكرها.

ما أشارت إليه السيدة "شبوليانسكي" الثرثارة أعاد إلى ذهنه صورة "ميرا" بقوة عجيبة. لقد عكّر ذلك مزاجه. إذ لا يتغلب المرء على الغياب للحظة إلا بالتحرر من سأم مزمن، وبالنجاة من موت وشيك. وقد درّب "بْنين" نفسه خلال السنوات العشر الأخيرة، لكي يحيا بشكل عقلاني، على ألا يتذكر "ميرا بيلوشكين" أبدا ـ لا لأن استثارة قصة حب أيام الشباب، مهما كانت تافهة وقصيرة، كانت في حد ذاتها تهدد راحة باله (للأسف، كانت ذكريات زواجه بـ"ليزا" كافية بشكل كبير لأن تستحث كل الغراميات السابقة)، وإنما لأن المرء إذا كان صادقا مع نفسه، فلا بد أن يتوقع ألا وجدان، ومن ثمة لا إحساس، سيظل قائما

في عالم قد يشهد أحداثا مثل موت "ميرا" المحتمل. كان مجبرا على النسيان ـ لأنه لم يكن قادرا على أن يحيا منشغلا بأمر تلك الفتاة الشابة البهيجة، الهشة، الرقيقة، بعينيها تينك، وابتسامتها تلك، وحدائقها وثلوجها تلك الظاهرة في الخلفية، والتي جِيء بها في عربة أغنام إلى معسكر موت، ليفتك بها بحقنة فينول في القلب، في ذلك القلب العليل الذي سمعه ينبض أسفل شفتيه خلال غسق مضى. ولأن طريقة موتها لم تسجل بالضبط، فقد ظلت "ميرا" تموت في ذهنه مرات عديدة، وتنبعث حيّة مرارا، كي تموت المرة تلو الأخرى، وتسحبها ممرضة متمرسة بعيدا، وتُطهَّر من الوسخ وجراثيم الكزاز وشظايا الزجاج، وتعالَج بالغاز في حوض حمام طافح بالحامض البروسي، وتُحرَق حيّة داخل حفرة فوق حزمة خشب زانٍ مشرّب بالبنزين. لم يكن ثمة، بحسب محقّق صادف أن حدّثه "بْنين" بمدينة واشنطن، سوى شيء مؤكد واحد، وهو أنها كانت عاجزة تماماً عن العمل (رغم أنها استمرت تبتسم، وتستطيع تقديم يد العون لليهوديات الأخريات)، لكنها اختيرت لتموت، حيث أحرقت أياما قليلة بعد وصولها إلى "بولشنوالد"، الواقعة في المنطقة التي تسمى على نحو رخيم بـ"إيترسبورغ" الكبرى ذات الغابات الجميلة. وهي تبعد بنحو ساعة عن مدينة "فايمار» حيث كان يتمشى "غوته" و"هوردر" و"شيلر" و"كوتزيبو" الفريد وآخرون. «لكن لماذا..»، تساءل الدكتور "هاغن"، تلك الروح الألطف في العالم، متألما: «لماذا كان عليهم أن يشيدوا ذلك المعسكر في مكان قريب جدا؟» بالفعل، كان قريبا، لا يبعد سوى بخمسة أميال عن قلب ألمانيا النابض بالثقافة، عن "وطن الجامعات ذاك"، كما وصفها رئيس كلية "وايندبل" المعروف بتوظيفه الكلمات الدقيقة، بشكل أنيق أثناء معالجة الوضع الأوربي في خطاب افتتاحي أخير، أثنى فيه على بيت تعذيب

آخر: «روسيا.. بلد "تولستوي" و"ستانيسلافسكي" و"راسكولنيكوف" ورجال عظام وفضلاء آخرين».

كان "بْنين" يمشي متمهلا أسفل الصنوبرات المهيبة. كانت زرقة السماء تقضي نحبها. لم يكن يؤمن بأي إله مستبد. لكنه يؤمن، إيمانا ضعيفا، بديمقراطية الأشباح. ربما كانت أرواح الموتى تشكل لجانا كانت تسهر، في جلسة متواصلة، على أقدار الأحياء.

أصبح البعوض مزعجا. كان الوقت وقت شرب الشاي، وخوض جولة شطرنج مع "شاتو". لقد ولّت تلك النوبة الغريبة، حيث أصبح "بْنين" قادرا على التنفس. كان هناك، في قمة تلك الرابية، في تلك النقطة بالضبط حيث كان مِسْند "غرامينيف" منصوبا قبل بعض ساعات، هيئتان قاتمتان تختالان تحت السماء المتوهجة كالجمر. كانتا تقفان هناك، تواجه الواحدة الثانية مباشرة. لم يستطع أن يتبيّن من الطريق ما إذا كانتا ابنة "بوروشين" وعاشقها، أم "نينا بولوتوف" و"بوروشين" الصغير، أم مجرد زوجين رمزيين رسمهما فنّان ماهر في آخر صفحة من يوم "بْنين" الآخذ في التلاشي.

الفصل السادس

١

انطلقت الدورة الخريفية من الموسم الجامعي لسنة ١٩٥٤. من جديد، تلقت "فينوس" ذات العنق الرخامي، العاملة برواق شعبة العلوم الإنسانية قبلة مقلدة تركت طبعة قرمزية بواسطة أحمر شفاه مستعمل. من جديد، ناقشت مجلة "وايندبل ريكوردر" مشكلة موقف السيارات. مرة أخرى، كتب طلبة مبتدئون جادون، على هوامش كتب المكتبة، حواشي مساعدة مثل "وصف الطبيعة" أو "السخرية"؛ وفي طبعة أنيقة من قصائد "مالارمي"، كان شارح ذو موهبة خاصة قد رسم خطا بمداد بنفسجي أسفل كلمة "وازو"[1] وخربش فوقها كلمة "طيور". من جديد، ألصقت عواصفُ الخريف أوراقَ الشجر الميتة بجانب من الرواق المشبّك الذي يؤدي إلى صالة "فريز" من شعبة العلوم الإنسانية. مرة أخرى، كانت فراشات ملكية كبيرة برتقالية وبنّية ترفرف فوق الإسفلت والعشب، في الآصال الرائقة، وهي تتوجه جنوبا متراخيةً، أرجلها السوداء شبه المنكمشة تتدلى، إلى حد ما، أسفل أجسادها المرقّطة.

ومع ذلك، كانت الكلية تتابع طريقها بوهن. كان الخرّيجون

---

(1) Oiseaux.

المجتهدون، ذوو زوجات حوامل، ما يزالون يكتبون أطاريح حول "دوستويفسكي" و"سيمون دوبوفوار". كانت الشعب الأدبية ترزح تحت تأثير فكرة ما تزال تعتبر "ستاندال" و"غالسوورثي" و"دريسر" و"مان" كتّابا عظاما. كانت كلمات التشكيل، مثل "تعارض" و"شكل"، ما تزال رائجة. كما جرت العادة، نجح أساتذة عِقامٌ في مسعاهم "للإنتاج" عبر عرْض كتب زملاء أكثر إبداعا، وكما جرت العادة، كانت ثلة من أعضاء الكلّية المحظوظين تستمتع بجوائز مختلفة حصلت عليها في وقت مبكر من تلك السنة، أو كانت على وشك أن تنعم بها. هكذا، أتاحت منحة ضئيلة مضحكة للزوجين البارعين "ستار" ـ "كريستوفر ستار" ذي الوجه الطفولي وزوجته "لويز" المتصابية ـ من شعبة الفنون الجميلة الفرصة الوحيدة لتسجيل الأغاني الشعبية لما بعد الحرب في ألمانيا الشرقية، حيث حصل ذانك الشابان المذهلان على رخصة الاطلاع عليها بطريقة ما. وتلقّى "تريستام و. توماس" (المعروف بين أصدقائه باسم "توم")، أستاذ الأنثروبولوجيا، على عشرة آلاف دولار من "مؤسسة ماندوفيل"، قصد دراسة عادات الأكل لدى الصيادين ومتسلقي النخيل الكوبيين. كما تدخلت مؤسسة خيرية أخرى لمساعدة الدكتور "بودو فون فالترنفيلس" على إتمام «قائمة تتعلق بمادة منشورة ومخطوطة كتلك التي خصصت خلال السنوات الماضية لنقد أثر تلامذة نيتشه في الفكر الحديث». أخيراً وليس آخرا، سمح تقديم منحة سخية للدكتور "رودولف أورا"، طبيب "وايندبل" النفسي الذائع الصيت، بأن يطبق على عشرات الآلاف من تلاميذ الطور الأول ما سمي بـ"اختبار كأس الأصابع"، الذي يطلب فيه من الطفل أن يغمس سبّابته في كؤوس مملوءة بسوائل ملونة، حيث يقاس حجم طول الأصبع بجزئه المبلل، وتُعيَّن المقاسات على بيانات فاتنة.

انطلقت الدورة الخريفية، فوجد الدكتور "هاغن" نفسه يواجه موقفا

مربكا. إذ فاتحه صديق قديم بشكل رسمي، خلال ذلك الصيف، في التفكير في قبوله العام الموالي بمنصب مغرٍ جدّاً كأستاذ بجامعة "سيبورد"، التي هي أهمّ بكثير من كلية "وايندِيل". لم يكن ذلك الجانب من المشكلة عصيا على الحلّ نسبيا. إلا أن الحقيقة القاسية كانت تتجلى في أن الشعبة التي بناها بحدب ومودة، والتي عجزت شعبة "بلورينج" الفرنسية عن منافستها في الأثر الثقافي رغم غنى مواردها، ستنتهي بين مخالب "فالترنفيلس" الغدار، الذي استقدمه هو، الدكتور "هاغن"، من النمسا، قبل أن ينقلب عليه، حيث نجح فعلا بطرق ماكرة في الاستحواذ على إدارة مجلة *"يوروبا نوفا"* الفصلية المؤثرة التي أسسها "هاغن" سنة ١٩٤٥. بل إن رحيل "هاغن" المحتمل ـ رغم أنه لم يُفْشِ عنه شيئاً لأصدقائه ـ ستترتب عنه عاقبة أوخم، حيث سيخذل الأستاذ المساعد "بْنين" ويتخلى عنه. فرغم أنه لم توجد أبدا شعبة منتظمة للغة الروسية بكلية "وايندِيل"، إلا أن الحضور الأكاديمي لصديقي المسكين ظل يعتمد على توظيفه في شعبة اللغة الألمانية، داخل فرع من فروع ملحقاتها الأدبية المقارنة. كان "بودو" متأكدا، من باب النكاية الصرفة، من أنه سيفصل ذلك العضو، إذّاك سيجد "بْنين"، الذي لم يكن يتمتع بعقدة تسمح له بالعمل مدى الحياة بكلية "وايندِيل"، مضطرا إلى المغادرة ـ ما لم توافق شعبة أدبية ولغوية أخرى على اعتماده. كانت الشعبتان الوحيدتان اللتان بدتا مستعدتين إلى حد ما لقبوله هما شعبتا الإنجليزية والفرنسية. غير أن "جاك كوكريل"، رئيس شعبة الإنجليزية، رفض كل ما فعله "هاغن"، معتبرا "بْنين" أضحوكةً، وكان في الواقع يفاوض، بشكل غير رسمي لكن يحدوه الأمل، من أجل الحصول على خدمات كاتب إنجليزي روسي بارز قادر، عند الضرورة، على تقديم جميع الدروس التي من شأنها أن تبقي "بْنين" على قيد الحياة. وكملاذ أخير، انقلب "هاغن" إلى "بلورينج".

٢

كان "ليونارد بلورينج"، رئيس شعبة الأدب واللغة الفرنسيين، يتميز بخاصيتين. كان يمقت الأدب، ولا يعرف الفرنسية. لكن ذلك لم يمنعه من أن يقطع مسافات هائلة، ليحضر مؤتمرات حول اللغات الحديثة، يختال فيها بقصوره كأنما يعبر عن نزوة جليلة، ويتلافى عبر دعابات مازحة قوية أي محاولة تستدرجه إلى الحديث بكياسة باللغة الفرنسية. كما استطاع، هو الشخص الذي يحظى بالاحترام على قدرته على جمع الأموال، في الآونة الأخيرة أن يقنع عجوزا غنيا، تولدت إليه ثلاث جامعات كبرى عبثا، بتخصيص هبة ضخمة لدعم أبحاث يجريها متخرجون تحت إشراف الدكتورة الكندية "سلافسكي"، تروم تشييد "قرية فرنسية" فوق تلة قريبة من "وايندیل"، عبارة عن شارعيْن وساحة، على طراز تلك القرى القريبة من مدينة "فاندال" الصغيرة القديمة بمقاطعة "دوردونيا". ورغم عنصر الفخامة ذاك الحاضر دوما في إشراقاته الإدارية، كان "بلورينج" شخصيا رجلا زاهدا. كان يذهب إلى المدرسة رفقة "سام بور"، رئيس كلية "وايندیل"، بانتظام لسنوات عديدة، حتى بعد أن فقد الأخير بصره. كان الاثنان يذهبان معا لصيد الأسماك في بحيرة باردة تكنسها الرياح، تقع على طريق رملية محفوفة بنباتات السَّنَفية، على بعد سبعين ميلا شمال "وايندیل"، ناحيةَ غابة موحشة ـ تتكون من بلّوط برّي وصنوبر مشتلي ـ تمثل في مجال الطبيعة ما يمثله الحي الفقير في مجال العمران. كانت زوجته، وهي امرأة لطيفة تنحدر من أسرة متواضعة، تتحدث عنه في ناديها باسم "البروفيسور بلورينج". كان يلقي درساً بعنوان "الفرنسيون العظام"، كان قد طلب من سكرتيرته أن تستنسخه من بعض أعداد "*مجلة هاستينز التاريخية والفلسفية*" المنشورة خلال الفترة الممتدة بين ١٨٨٢ و١٨٩٤، التي اكتشفها داخل علية، وهي غير موجودة بمكتبة الكلية.

٣

استأجر "بْنين" للتو منزلا صغيراً، ودعا آل "هاغن" وآل "كليمانتس" وآل "ثاير" و"بيتي بليس" إلى حفلة السكن الجديد. صباح ذلك اليوم، قام الدكتور "هاغن" الطيب بزيارة يائسة إلى مكتب "بلورينج" وكشف له، هو وحده، عن الموقف برمته. وعندما أخبر "بلورينج" أن "فالترنفيلس" هو عدو "بْنين" اللدود، أجاب "بلورينج" أن الإحساس نفسه كان ينتابه، بل شعر، في الواقع، بعد لقاء ودّي بـ"بْنين"، «شعورا حاسما» (وهو أمر يبعث حقا على الاستغراب: لِمَ يميل أولئك الأشخاص العمليون إلى الشعور بدل التفكير) أنّ "بْنين" لم يكن جديرا حتى بالتسكع بجوار كلية أمريكية. قال "هاغن" الوفي إن "بْنين" ظل، طيلة دورات عديدة، يتطرق للحركة الرومانسية على نحو مثير للإعجاب، وهو قادر بالتأكيد على تناول "شاتوبريان" و"فيكتور هيغو" تحت إشراف شعبة اللغة الفرنسية.

«تعتني الدكتورة "سلافسكي" بتلك الجمهرة من الكتاب»، قال "بلورينج". «في الواقع، أعتقد أحياناً أننا نتجاوز الحد في تدريس الأدب. انتبه! ففي هذا الأسبوع، تشرع الآنسة "موبْسويستيا" في تدريس الوجوديين، ويدرس صاحبك "رومان رولان"، وأنا أحاضر حول "الجنرال بولانجي" و"دو بيرانجي". لا، عندنا بالتأكيد ما يكفي من المواد».

اقترح "هاغن"، وهو يلعب ورقته الأخيرة، أن يقدّم "بْنين" درساً في اللغة الفرنسية، لأن صاحبنا تربى في طفولته على يد مربية فرنسية، شأنه شأن العديد من الروس، وعاش بعد الثورة بباريس لمدة تزيد عن خمسة عشر عاما.

«هل تقصد أنه يتقن الحديث باللغة الفرنسية؟» سأل "بلورينج" بصرامة.

تردّد "هاغن" الذي كان عارفا بمتطلبات "بلورينج" الخاصة.

«هيا أخبرني، يا رجل! نعم أم لا؟»

«أنا متأكد أنه سيهيئ نفسه».

«هو يتكلم بها، أليس كذلك؟»

«حسنا، بلى».

«في تلك الحالة»، قال "بلورينج"، «لا يمكننا أن نعتمده في دروس الفرنسية للسنة الأولى. ليس ذلك عدلاً بالنسبة لصديقنا السيد "سميث" الذي يقدم الدرس الأولي خلال الدورة الحالية، إذ من المفروض أن يكون درساً واحداً فقط سيلقيه بالطبع على طلبته. الآن، يظهر أن السيد "هاشيموتو" يحتاج إلى مساعد لتدبير فوجه المكتظ بطلبة درس الفرنسية المتوسط. هل يقرأ صاحبك الفرنسية مثلما يتحدثها؟»

«أكرر القول إنه سيهيئ نفسه»، قال "هاغن" محتاطا.

«أعرف ما يعنيه التهيؤ»، قال "بلورينج" متجهما. «في سنة ١٩٥٠، عندما تغيب "هاش"، شغّلت ذلك السويسري معلم التزحلق، حيث أدخل سرّاً مطبوعات مستنسخة من أنطولوجيا قديمة. وقد استغرق منا الأمر نحو سنة لنعود بالقسم إلى مستواه الأولي. الآن، إذا لم يكن، لا أدري ما اسمه، يقرأ الفرنسية..».

«أخشى أن الأمر كذلك»، قال "هاغن" متحسرا.

«لا يمكننا إذا أن نعتمده البتة. كما تعلم، لا نؤمن سوى بسجلات الكلام وأجهزة آلية أخرى. ولا نسمح بالكتب».

«مازال هناك درس الفرنسية المتقدم»، همس "هاغن".

«نعتني به أنا و"كارولينا سلافسكي"»، أجاب "بلورينج".

٤

كان انطلاق الدورة الخريفية جيداً على نحو متميز؛ حسب "بْنين" الذي غابت عن ذهنه تماماً محن حاميه. إذ لم يُعنَ من قبل أبدا بعدد قليل من الطلبة، أو أتيح له وقت أكبر ينشغل فيه بأبحاثه الخاصة، التي دخلت منذ زمن طويل المرحلة الساحرة، عندما يتجاوز الطلبُ الغايةَ، ويتشكل عضو جديد، أشبه بطفيلي عند الحديث عن الفاكهة الناضجة. لكن "بْنين" أشاح ببصره النافذ عن نهاية عمله، التي بدت في المتناول على نحو واضح، حتى إن القارئ يستطيع فهم معنى العلامات الدالة على الحذف، أو فهم الاقتباسات الموظفة! كان عليه أن يتحاشى ذلك الخط الترابي، لما كان يحمل في طياته تهديدا لكل عناصر الفرح ذي القيمة الخالدة. كانت بطاقات الفهارس تثقل تدريجيا صندوق أحذية بوزنها المضغوط. لقد ضلّ "بْنين" طريق البحث بمقابلته بين أسطورتين، أو بتفصيل قيّم حول السلوك أو اللباس، أو بإحالة تبين بعد التدقيق أنها منحولة إما بسبب الضعف أو الاستهتار أو التدليس، أو بقشعريرة ناتجة عن افتراض مناسب، وبكلّ نجاحات البحاثة المخلصين التي لا تحصى ـ كل هذا جعله رجلاً سعيداً ومهووساً بالحواشي حد الإدمان، مزعجاً للأرضة في كتاب باهت ذي سمك أكبر، ليعثر فيه على إحالة لكتاب أشدّ بهتا. وعلى صعيد آخر أكثر إنسانية، استأجر بيتا آجريا صغيراً بشارع "تود" في زاوية من زقاق "كليف".

آوى البيت أسرة الراحل "مارتن شيبّرد"، وهو عمّ مالك القصر الذي استأجر به "بْنين" في السابق بيتا على شارع "كريك"، والذي ظل طيلة سنوات وصيّاً على أملاك "تود"، قبل أن تملّكتها بلدية "وايندبل" الآن بغية تحويل إيوانها الواسع إلى دار تمريض حديثة. كان اللبلاب والتنّوب يلفان بوابتها المغلقة، لكن "بْنين" كان قادرا على رؤية جزئها الأعلى من الزاوية البعيدة في زقاف "كليف" من نافذة شمالية ببيته الجديد. كان ذلك الزقاق بمثابة عارضة لحرف T، يسارَ الزاوية حيث

سكنه. في الجهة المقابلة لبيته، مباشرة بعد عبور شارع "تود"، كانت أشجار دردار قديمة تحجب الشريط الرملي لطريق أسفلتي مرقّعة عن حقل ذرة يقع شرقها، بينما على طول جانبها الغربي، اصطفت أشجار تنّوب فتية، ذات طول متماثل، كأنها كتيبة ممتدة ناحية الجامعة، خلف سياج على امتداد المسافة ذاتها نحو الإقامة الموالية حيث بيت مدرب فريق الجامعة لكرة القدم، الذي يشبه علبة سجائر فاخرة، والذي يقع على بعد نصف ميل من بيت "بْنين".

كان الإحساس بعزلة العيش داخل بناية منفصلة بالنسبة لـ"بْنين" إحساسا مبهجا على نحو خاص ومُرْضيا بشكل مدهش لرغبة مضنية قديمة نابعة من باطن ذاته، يؤججها ويغذيها تشرده طيلة خمسة وثلاثين عاما. كان الصمت أعذب الأشياء في ذلك المكان، كان صمتا ملائكيا، ريفيا، مكفولا بشكل مثالي، خلافا للأصوات النشاز المتواصلة التي كانت تنبعث من الجوانب الستة في الغرف المستأجرة بإقاماته السابقة. كان ذلك البيت الصغير رحباً كذلك! افترض "بْنين"، بدهشة العارف، أنه لو لم تكن هناك ثورة روسية، ولا هجرة، ولا نزوح إلى فرنسا، ولا تجنيس في أمريكا، فإن كل الأشياء ستكون ـ في أفضل الحالات، في أفضلها، يا "تيموفي"! ـ كما هي اليوم؛ أي منصب أستاذ في "خاركوف" أو "قازان"، وبيت مماثل في الضاحية، وكتب قديمة بداخله، وأزهار متأخرة خارجه. كان البيت ـ لمزيد من التوضيح ـ يتكون من طابقين، ذا آجر أحمر فاتح وأبواب بيضاء وسقف خشبي. كانت البقعة الخضراء التي شيد عليها ذات واجهة تمتد على نحو خمسين أرشين[1]، ويحدها في الخلف منحدر عشبي ممتد عموديا، اصطفت

(١) وحدة لقياس الطول كانت تستعمل في السابق في روسيا وتركيا، وهي تعادل ٧١ سنتمترا (المترجم).

على حافته أشجار صفراء. كانت طريق بدائية جنوب البيت تقود نحو كراج صغير مجيّر حصل عليه "بْنين" لسيارته البئيسة. وقد علّقت سلّة أشبه بقُفّة ـ لا قاع لها، كأنها جيب بلياردو كبير ـ لسبب ما فوق باب الكراج، ترسل على بياضه ظلاً مختلفاً مثل نسيجها، لكن أكبر، وذا أثر أزرق. كانت طيور التدارج تنزل بالأرض المعشوشبة بين الحديقة والمنحدر. وكانت زهور الليلك ـ ذلك البهاء الذي يزين الحدائق الروسية، ذات الرونق الربيعي اللذيذ والطيب الذي يترقبه "بْنين" المسكين بشغف ـ تنثال في صفوف كليلة على طول جدار البيت. وكانت شجرة ملحاء طويلة، عجز "بْنين"، وهو العارف بأشجار البتولا والزيزفون والصفصاف والرجراج والحور والبلوط، عن تحديد نوعها، ترسل أوراقها الكبيرة القلبية الشكل ذات اللون الصدئ، وظلالها الصيفية الهندية[1] على الأدراج الخشبية المؤدية إلى السقيفة المفتوحة.

كانت مدخنة نفطية متصدعة بالدور السفلي تبذل قصارى جهدها كي تلفظ نفَسها الدافئ الواهن عبر فتحاتها فوق السطح. بدا المطبخ صحيا ومشرقا، حيث كان "بْنين" يمضي وقتاً رائعا يتلهى بجميع أنواع الأواني، من غلايات ومقالٍ ومحامص وطنجرات، وكلها من ممتلكات البيت. كانت غرفة الجلوس ذات أثاث قليل وقذر، لكنها ذات فسحة جذابة تضم مجسما كبيراً وقديما لكرة أرضية، تظهر فيه خريطة روسيا بلون أزرق باهت، وخربشة أو لطخة مشوهة فوق بولونيا كلّها. وفي غرفة أكل صغيرة جدّاً حيث كان "بْنين" ينوي إعداد مقصف عشاء على شرف ضيوفه، كان زوج شمعدان بلوري معلّق يرسل في الصباحات المبكرة أنوارا قزحية تتلألأ بشكل ساحر فوق المقصف، مذكرة صاحبي

---

(١) تطلق عبارة "الصيف الهندي" بأمريكا على فترة تتميز بدفء الجو واعتداله أواخر فصل الخريف وبداية فصل الشتاء (المترجم).

المرهف بالنوافذ الزجاجية الملطخة التي كانت تحول أشعة الشمس إلى ألوان برتقالية وخضراء وبنفسجية داخل شرفات البيوت الريفية الروسية. كانت الخزانة الخزفية، كلما وقف أمامها، تصدر هديراً يذكره كذلك بالغرف الخلفية المظلمة ذات زمن. كان الطابق الثاني يتكون من حجرتي نوم، كانتا كلتاهما مأوى العديد من الأطفال الصغار وبعض الراشدين العابرين. كانت الأرضيات مخدوشة بسبب الدمى الصغيرة. انتزع "بْنين" من جدار الغرفة حيث قرر النوم كرتونا أحمر أشبه بعلَم كتبت عليه كلمة غامضة "كاردينال" بطلاء أبيض، لكن أرجوحة وردية صغيرة خاصة بـ"بْنين" الطفل ذي السنوات الثلاث، ظلت مهجورة هناك في إحدى زواياها. بينما شغلت آلة خياطة معطلة رواقا يقود إلى الحمام حيث حوضه الصغير العادي، الذي صنعه جيش عمالقة لصالح الأقزام، يستغرق وقتاً طويلا حتى يمتلئ، تماماً مثلما تفعل صهاريج وأحواض كتب الحساب في المدارس الروسية.

صار حينذاك مستعدا لتنظيم تلك الحفلة. إذ كان بغرفة الضيوف أريكة صالحة لثلاثة أشخاص، ومقعدان بمسندين خلفيين، وكرسي ذي حشوة خفيفة، وكرسي للجلسات المستعجلة، وبوفة، ومقعدان عاديان. فجأة، انتابه إحساس غريب بالاستياء، عندما راجع لائحة ضيوفه القصيرة. كانت اللائحة ذات قوام رشيق، لكنها كانت تفتقد إلى باقة ورد. من دون شك، كان معجبا بآل "كليمانتس" أشد الإعجاب (إنهما شخصان حقيقيان، ولا يشبهان أغلب دمى الجامعة)، حيث كان يتبادل معهما أحاديث ممتعة أيام كان نزيلاً بغرفتهما. لا بد أنه شعر بامتنان كبير تجاه "هيرمان هاغن"، عرفانا بخدماته الجليلة، كتلك الترقية التي رتّبها "هاغن" في الآونة الأخيرة. بلا ريب، كانت السيدة "هاغن" «إنسانة محبوبة»، بلغة أهل "وايندبل". بالطبع، كانت السيدة "ثاير"، على الدوام، أجدى وأنفع داخل المكتبة، وكان زوجها ذا مكنة هائلة على

إظهار مدى قدرة الإنسان على الصمت إذا تحاشى بحزم التعليق على أحوال الطقس. لكن الجمع بين أولئك الأشخاص لم يتسم بأي سمة استثنائية أو أصيلة. تذكر "بْنين" العجوز حفلات أعياد الميلاد خلال طفولته ـ تلك الزمرة من الأولاد التي تدعى دائما إلى كل حفل، والأحذية قارصة الأقدام، الأصداغ المؤلمة، وذاك النوع من الكدر الكثيف والحزين والقسري الذي كان يستبد به بعد أن يستنفد جميع الألعاب، ويشرع ابن خالٍ مشاكس في استخدام دمى جديدة وجميلة بطرق تافهة مبتذلة. كما تذكر طنين الوحدة في أذنيه، عندما كان يخرج، بعد ساعة من الاختباء المرهق أثناء لعبة الغمّيضة الطويلة والرتيبة، من خزانة مغلقة معتمة داخل غرفة الخادمة، ليكتشف أن جميع رفاق اللعب عادوا إلى بيوتهم.

بينما كان "بْنين" يتجول بين رفوف دكان بقالة مشهور يقع بين "واينديلفيل" و"إيزلا"، سارع إلى "بيتي بليس"، حيث طلب منها حضور حفلته. قالت إنها مازالت تذكر قصيدة "تورجينيف" حول الورود، بلازمتها التي تقول «كم كان الورد جميلا وناضرا»، وإنها ستسعد بالتأكيد بالحضور. كما دعا الرياضي الشهير الأستاذ "إديلسون" وزوجته النحّاتة، حيث قالا إنهما سيسعدان بالحضور، لكنهما هاتفاه بعد ذلك ليعبرا عن أسفهما الكبير، لأنهما نسيا التزاما سابقا. ودعا الشاب "ميلر"، الذي صار الآن أستاذا مساعدا، وزوجته "شارلوت" الجميلة والمنمشة، لكن الأخيرة فاجأها وجع المخاض. ودعا العجوز "كارول"، بواب رئيس صالة "فرايز"، رفقة ابنه "فرانك" الذي كان الطالب الموهوب الوحيد بين طلبة صاحبي، حيث كتب له أطروحة دكتوراه نيّرة حول العلاقة بين الأشعار العمبقية الروسية والإنجليزية والألمانية، لكن "فرانك" كان ملتزما بواجبه العسكري، فيما اعترف العجوز "كارول" أن «السيدة وأنا لا نخالط الأساتذة كثيراً». هاتف

الرئيس "بور"، الذي حدثه ذات مرة (حول تغيير المنهاج الجامعي) أثناء جلسة عمل تواصلت في الهواء الطلق إلى أن بدأ المطر يهطل، حيث طلب منه الحضور، لكن ابنة أخ الرئيس "بور" أجابت أن عمّها «لم يعد اليوم يزور أحداً، ما عدا ثلة من الأصدقاء المقرّبين». كان على وشك التوقف عن إنعاش لائحته، عندما خطرت بباله فكرة بديعة جديدة وواقعية تماماً.

٥

مضى زمن طويل منذ أن توافقنا، "بْنين" وأنا، على فكرة محيّرة، لكن قلما ناقشناها، مفادها أن المرء قد يعثر، داخل طاقم أي كلية، على شخص لا يشبه فحسب طبيب أسنانه أو مدير مكتب البريد المحلي شبها استثنائيا، بل على شخص له توأم داخل الجماعة المهنية نفسها. وأنا على علم، بالتأكيد، بحالة توأم ثلاثي بكلية صغيرة نسبيا، كنت، أنا شخصيا، أمثل محور هذا الثلاثي على نحو مضحك، بحسب رئيسها "فرانك ريد" ذي العينين الحادتين. أتذكر أن الراحلة "أولغا كروتكي" قالت لي مرة إن من بين خمسين أو أكثر من أعضاء هيأة التدريس بمدرسة خاصة بالدروس اللغوية المكثفة أيام الحرب، كانت تدرس بها هذه السيدة المسكينة ذات الرئة الواحدة اللغتين الليثية والفينوغريقية، كان هناك ستة أشخاص على الأقل من أشباه "بْنين"، إلى جانب النسخة الأصلية والفريدة، حسب رأيي. من ثمة، ليس هناك داعٍ للاستغراب من أن يصبح "بْنين" نفسه، هو الذي لا يكترث كثيراً للحياة اليومية، قادرا (في وقت ما من سنته التاسعة بكلية "وايندِيل") على أن يعيَ أن زميلا قديما نحيفا ذا نظارتين وجدائل شعر أشيب منسدل على الجانب الأيمن لجبينه الصغير المجعّد، وثغرين غائرين منسابين على كل جانب من أنفه

الحادّ حتى زاوية شفته العليا الطويلة ـ زميلا عرفه "بْنين" باسم الأستاذ "توماس وين"، وهو رئيس شعبة علم الطيور، وتحدث معه مرة خلال حفلة ما حول الطيور الصفارية الذهبية المرحة، والوقواق الحزين، وطيور أخرى منتشرة بالأرياف الروسية ـ لم يكن أبدا هو الأستاذ "وين". بين الفينة والأخرى، كان ينزل، إن صح التعبير، إلى منزلة شخص ما لا يعرفه "بْنين" بالاسم، لكن كان يسمّيه، بشغف أجنبي ذكي ميّال إلى اللعب بالكلمات، بـ"توين" (أو "تفين"، حسب تعبير "بْنين"). سرعان ما أدرك صاحبي وابن بلدي أنه لن يتأكد أبدا أن ذلك السيّد السريع الخطى الشبيه بالبومة، الذي سيصادفه يوميا في طريقه بنقاط عبور مختلفة، بين المكتب والقسم، بين القسم والأدراج، بين نافورة الشرب والمغاسل، من معارف الصدفة فعلا، وهو ذلك العالم بالطيور الذي تجب تحيته عند المرور بجواره، أو أنه ذلك الغريب شبيه "وين"، الذي يردّ تلك التحية المتجهمة بالمجاملة التلقائية ذاتها تماماً مثلما يفعل أي من معارف الصدفة. كانت لحظة لقائهما قصيرة جداً، طالما أن "بْنين" و"وين" (أو "توين") كانا معا يسرعان الخطى؛ ففي بعض الأحيان، كان "بْنين"، وحتى يتحاشى تبادل مجاملات مقرفة معه، يتظاهر بقراءة رسالة ماشيا، أو يعمل على التملص من زميله ومعذبه المنطلق بسرعة، حيث ينعطف ناحية الأدراج، ثم يواصل طريقه في رواق الطابق السفلي، لكن ما إن يتهلل جذلا بدهاء طريقته التي استخدمها ذات يوم، حتى يكاد يصطدم بـ"تفين" (أو "فين") الذي ظهر للتو خارجا من الأدراج المجاورة. عندما انطلقت الدورة الخريفية الجديدة (العاشرة في مسار "بْنين")، تفاقم انزعاجه بسبب تغيير عمل "بْنين" داخل القسم، حيث ألغيت بعض التيارات التي كان يتعلمها، ليعتمد عليها في جهوده الرامية إلى التملص من "وين" وشبيهه. بدا أنه سيتحمل ذلك على الدوام. إذ قال "بْنين" في قرارة نفسه، وهو يستحضر بعض الثنائيات المتماثلة

الأخرى من الماضي ـ تلك التشابهات المحيرة التي رآها هو وحده ـ إنه لا جدوى من أن يطلب يد العون من أحدهم لفك لغز "تـ. وين" وشبيهه.

يومَ حفلته، وبينما كان على وشك إنهاء غذائه المتأخر بصالة "فرايز"، جلس فجأة إلى جانبه "وين"، أو نظيره، ولم يسبق لأحدهما أن ظهر هناك من قبل، وقال له:

«لطالما رغبت في أن أسألك عن شيء ما. أنت تدرس اللغة الروسية، أليس كذلك؟ خلال الصيف الماضي، كنت أقرأ مقالة في مجلة ما حول الطيور..».

("فين"! هذا "فين"! قال "بْنين" في قرارة نفسه، وخطرت بباله على الفور خطة عمل حاسمة).

«... حسناً، جاء في ذلك المقال ـ لا أذكر اسم كاتبه، لكني أظنه روسيا ـ أن كعكة محلية تعجن في منطقة "سكوف"، آمل أنني نطقت الاسم بشكل صحيح، على شكل طائر. من الناحية الجوهرية، طبعا، فالرمز قضيبي، لكن كنت أتساءل عما إذا كنت على علم بمثل هذه العادة؟»

حينها لمعت الفكرة المثالية في ذهن "بْنين".

«أنا رهن إشارتك، يا سيدي»، قال بنبرة مبتهجة تتراقص في حلقه ـ لأنه عثر حينها على طريقته الحاسمة، ليحدد شخصية "وين" الأصلي على الأقل، ذاك الذي يحب الطيور. «أجل، يا سيدي. أنا على علم بجميع تلك "زافورونكي"، تلك "ألويط"، تلك... ينبغي أن نرجع إلى القاموس، لنبحث عن اسمها في الإنجليزية[1]. لذلك، أنتهز الفرصة

---

(١) الطيور المقصودة هنا هي القبرات، حيث وردت الكلمتان في النص الأصلي باللغتين الروسية (zhavoronki) والفرنسية (alouettes) (المترجم).

لدعوتك لزيارة بيتي هذا المساء، على الساعة الثامنة والنصف، لأجل حفلة صغيرة بمناسبة انتقالي إلى منزل جديد. لا أقل، ولا أكثر. اصطحب معك زوجتك ـ أم أنك ربما ما تزال أعزب حصين القلب؟»

(آه منك يا "بْنين"، كم تتلاعب بالكلمات).

قال مخاطبه إنه ليس متزوجا، وإنه راغب في الحضور. لكن إلى أي عنوان؟

«تسعمائة وتسعة وتسعون، شارع "رود". العنوان سهل التذكر! في آخر الشارع حيث يلتقي بزقاق "كليف". المنزل عبارة عن بيت آجري صغير، يقع عند منحدر كبير مشؤوم».

٦

بعد زوال ذلك اليوم، لم يستطع "بْنين" من أن يكبح نفسه من البدء في عمليات الطهي. لقد شرع في إعدادها بعيد الساعة الخامسة، ولم يتوقف إلا ليرتدي، من أجل استقبال ضيوفه، سترة حريرية داخلية مترفة زرقاء اللون وحزاما مزركشا وتلابيب حريرية حاز عليها من سوق خيرية خاصة بالمهاجرين في باريس منذ عشرين سنة ـ آه، كيف يمضي الوقت! كانت تلك السترة، التي لبسها إضافة إلى بنطلون رسمي قديم، أوربية أيضاً. تطلع إلى نفسه في المرآة المكسورة المعلقة على خزانة الأدوية، ووضع نظاراته الثقيلة والسميكة الخاصة بالقراءة، أسفل وسطها كان ينتأ أنفه الروسي الذي يشبه حبة بطاطس. كشف أسنانه الاصطناعية. دقّق في خدّيه وذقنه، ليتحقق من أن وجهه مازال خلوا من الزغب بعد حلاقته الصباحية. كان كذلك. أمسك شعرة نابتة في منخره بإبهامه وسبابته،

وانتزعها بعد جرّ موجع، ثم عطس عطسة قوية، أتبعها بتأوه «أح!»، تعبيرا عن سروره بعد العطسة.

في الساعة السابعة والنصف، وصلت "بيتي" لتساعده على إعداد الترتيبات الأخيرة. كانت "بيتي" تدرس اللغة الإنجليزية والتاريخ في مدرسة "إيزولا" الثانوية. لم تتغير منذ أن كانت طالبة خريجة ناهدة. كانت تحدق فيك بعينيها الحسيرتين ذاتي الحواف الرمادية بالحدَب البريء نفسه. كانت تضفر شعرها حول محيط رأسها بنفس جديلة "غريتشين" الكثيفة. كانت هناك الندبة ذاتها على عنقها الناعم. لكن خاتم خطوبة بماسة صغيرة برز على يدها اللحيمة، حيث أظهرته بزهو مستحٍ أمام "بْنين"، الذي انتابته وخزة حزن غامضة. اعتبر أنه كان قادرا على أن يغازلها في وقت ما ـ أن يغازلا بعضهما في الواقع ـ لو لم يكن عقلها، الذي لم يصبْه التغير هو الآخر، أشبه بعقل خادمة. بل مازالت تروي قصة طويلة على طريقة: «قالت لي، قلت لها، قالت لي..». ولا شيء على وجه الأرض بمقدوره أن يجعلها ترتد عن الإيمان بروح وحكمة مجلتها النسائية المفضلة. مازالت تحتفظ بتلك العادة العجيبة ـ التي تشاطرها شابتان أو ثلاث في لائحة معارف "بْنين" المحدودة بالمدينة الصغيرة ـ حيث تضربك ضربة خفيفة مؤجلة على زندك عرفانا، لا قصاصا بالأحرى، بأي ملاحظة تذكرها بهفوة بسيطة ما، كأن تقول: «يا "بيتي"، لقد سهوت عن إعادة ذلك الكتاب»، أو «كنت أعتقد، يا "بيتي"، أنك قلت إنك لن تتزوجي أبدا»، وقبل أن ترد عليك فعلا، تأتي تلك الحركة الرزينة، فتحتك برسغك أصابعها القصيرة، قبل أن ترتد إليها توّاً.

«إنه عالم الكيمياء الحيوية، وهو الآن في "بيتسبورغ"»، قالت "بيتي"، وهي تساعد "بْنين" على ترتيب شرائح الخبز الفرنسي المدهون بالزبدة فوق وعاء كافيار طري رمادي متلألئ، وعلى غسل

ثلاثة عناقيد كبيرة من العنب. كان هناك أيضاً طبق كبير مليء بقطع لحم بارد، وخبز الأرز الألماني الحقيقي، وصحن صلصة خلّ خاصة جداً يختلط فيه القريدس بالمخللات والبازلاء، وبعض النقانق المخلوطة بصلصة الطماطم، والكعكات الساخنة (حلوى الفطر، كعك اللحم، كعك الكرنب)، وأربعة أصناف من الجوز، وحلويات شرقية لذيذة متنوعة. كانت المشروبات عبارة عن ويسكي (جاءت به "بيتي") و"ريابينوفكا" (مشروب مستخرج من توت الغبيراء) وكوكتيل من الكونياك وعصير الرمان، وطبعا شراب "بُنين"، وهو عبارة عن خليط مسكر يتكون من نبيذ "شاتو إيكيم" وعصير العنب والكرز الأسود، شرع المضيف الجليل يحركه داخل كأس زبرجدي متلألئ عريض ذي تصميم مزخرف بأضلاع ملتفة ورسومات على شكل زنابق.

«يا له من شيء جميل!» صرخت "بيتي".

حدّق "بُنين" في الكأس بدهشة لذيذة، كأنما يراها لأول مرة. كانت هدية من "فيكتور"، كما قال. نعم، كيف حاله؟ وهل أحب مدرسة "سانت بارث"؟ أجل، أحبها كثيراً. لقد قضى بداية الصيف في كاليفورنيا مع والدته، ثم عمل لمدة شهرين في فندق "يوسيميت". ماذا؟ فندق بجبال كاليفورنيا. بعد ذلك، عاد إلى المدرسة، قبل أن يرسل فجأة تلك الكأس.

وصلت الكأس، بصدفة سارّة، يوم عدّ "بُنين" الكراسي وشرع يهيئ تلك الحفلة. وصلت في علبة مغلقة محشوة داخل علبة أخرى، موضوعة هي الأخرى داخل علبة ثالثة، كانت ملفوفة بركام كبير من النشارة والورق، حيث انتشر في المطبخ كلّه، كأنها عاصفة عارمة. كانت الكأس، التي انبثقت من ذلك الركام، من تلك الهدايا التي يخلق وقْعُها الأول في ذهن المتلقي صورة ملونة، بقعة مزركشة تعكس بقوتها الرمزية

الطبيعة العذبة لصاحب الهدية، حتى إن أوصاف الهدية المحسوسة تذوب في هذا الوهج الداخلي الصرف، إذا جاز التعبير، لكنها تتحول، فجأة وإلى الأبد، إلى شيء باهر عندما يمتدحها غريب يغيب عن ذهنه بهاؤها الحقيقي.

٧

ترددت أنغام الموسيقى عبر البيت الصغير. دخل آل "كليمانتس" يحملان قنينة شمبانيا فرنسية وباقة أزهار الداليا.

كانت "جوان"، بعينيها الكحيلتين ورموشها الطويلة وخصلاتها المجعدة، ترتدي لباسا حريريا قديما أسود أكثر أناقة من أي شيء قد تبتكره زوجات الأساتذة الأخريات. كان من دواعي سرورها أن ترى "تيم بْنين"، العجوز الأصلع الطيب، ينحني قليلاً ليلمس بشفتيه اليد الناعمة للسيدة "جوان" التي تعرف، وحدها من بين سيدات "واينديل"، كيف ترفع يدها إلى المستوى المناسب تماماً ليقبلها نبيل روسي. بينما كان "لورنس"، الذي بدا أسمن من أي وقت سابق، يرتدي سترة فلانيلا رمادية أنيقة. عندما غاص في الأريكة العريضة، تناول على الفور أول كتاب كان في متناول يده، حيث تبين أنه قاموس جيب إنجليزي ـ روسي وروسي ـ إنجليزي. أمسك نظارتيه بيديه، وسرح ببصره بعيدا، محاولا تذكر كلمة ما طالما تمنى أن يتحقق من معناها، لكن الذاكرة خانته حينها، فزاد سلوكُه ذاك من حدة شبَهه المثير، الشبابي إلى حد ما، بالكاهن "فان دير بيل" ذي الخدّين الجمّين والهالة الريشية، في لوحة الرسام "جان فان أيك"، تخيّم عليه مسحة ذهول في حضور السيدة العذراء المشدوهة التي يلفت إليها قس، في زي "سانت جورج"، أنظار الكاهن الطيب. كل شيء كان هناك ـ الصدغ المعقود،

والنظرة المتبصرة الحزينة، تضاعيف الوجه وتجاعيده، والشفتان المهفهفتان، بل والبثرة على الخدّ الأيسر.

ما كاد آل "كليمانتس" يجلسان حتى أدخلت "بيتي" الرجل المهتم بالكعك الشبيه بالطيور. كاد "بْنين" أن يقدمه باسم "الأستاذ فين"، لكن "جوان" قاطعته ـ لسوء الحظ ربما ـ وهي تقول: «آه، إننا نعرف "توماس"! من منا لا يعرف "توم"؟» عاد "بْنين" إلى المطبخ، بينما وزعت "بيتي" بعض السجائر البلغارية.

«أظن، يا "توماس"»، قال "كليمانتس" ملاحظا، وهو يشبك قدميه، «أنك سافرت إلى هافانا لاستجواب صيادي الأسماك ومتسلقي النخيل».

«حسنا، سأسافر بعد منتصف السنة»، قال الأستاذ "توماس". «بالطبع، لقد أنجز آخرون غيري أغلب العمل الميداني الفعلي قبلي».

«مع ذلك، كم جميل أن تحصل على تلك المنحة، أليس كذلك؟»

«في شعبتنا»، ردّ "توماس" برزانة مثالية، «يجب أن نباشر العديد من الرحلات الشاقة. في الواقع، قد أذهب حتى تخوم جزر مهب الريح»، وأضاف بقهقهة جوفاء، «إذا لم يتخذ السيناتور "ماكارثي" إجراءات صارمة ضد السفر إلى الخارج».

«لقد تلقى منحة بقيمة عشرة آلاف دولار»، قالت "جوان" مخاطبة "بيتي" التي اتشح وجهها بأدب جمّ عندما ظهرت قسماته المميزة، تلك التي تتألف من انحناءتها الخفيفة وتوتر ذقنها وشفتها السفلى، مما كشف تلقائيا امتنانها الدال على الاحترام والتهنئة وانبهارها بأشياء عظيمة مثل تناول العشاء مع الرئيس، أو التحول إلى شخصية بارزة، أو اللقاء بدوقة.

قدّم آل "ثاير"، اللذان جاءا في سيارة جديدة، لمضيفهما علبة نعناع أنيقة. بينما حمل الدكتور "هاغن"، الذي جاء سيراً، قنينة فودكا.

«مساء الخير، مساء الخير، مساء الخير»، قال "هاغن" الودود.

«الدكتور "هاغن"»، قال "توماس" وهو يصافحه. «آمل ألا يكون السيناتور قد رآك حاملا تلك القنينة».

لقد تقدم الدكتور الطيب في السن على نحو واضح منذ السنة الماضية، لكنه كان قويا متين البنية مثلما كان على الدوام، بكتفيه المكتنزين، ورقبته المربوعة، ومنخريه الواسعين، وبلجته الأسَدية، وتسريحة شعره الأشيب المشذبة بعناية. كان يرتدي سترة سوداء فوق قميص أبيض من النيلون، وربطة عنق سوداء تتربع فوق رسم صاعقة حمراء. أما السيدة "هاغن"، فقد حال صداع رهيب، في اللحظة الأخيرة، دون مجيئها، للأسف.

قدّم "بُنين" الكوكتيلات «أو من الأفضل أن نتحدث عن ذيول طيور النحام ـ خاصة عندما نخاطب علماء الطيور»، قال بمكر خبيث.

«شكرا!» دندنت السيدة "ثاير"، لما تناولت كأسها، رافعة حاجبيها الخطّيين، حتى توهج ذلك الاستكشاف المهذب الذي يمزج بين مفاهيم الدهشة والذِّلّة والمتعة. كانت تلك السيدة الأربعينية، ذات الوجه الوردي الأنيق الفاتن وطقم الأسنان اللؤلئي والشعر المذهّب المتموج، ابنة خالة "خوان كليمانتس" الأريبة والبشوشة، زوجة الدارس الأعمق إبداعا والأقل إعجابا به داخل جامعة "وايندِيل"، التي زارت أرجاء العالم كله، حتى تركيا ومصر. في هذا الجانب من السرد، لا بد أن نقول كلمة طيبة كذلك عن "روي"، زوج "مارغريت ثاير"، ذلك العضو الحزين الصامت في شعبة الإنجليزية التي كانت وكرا للمصابين بالوسواس، باستثناء رئيسها المتحمس "كوكريل". كان "روي" وجها سافرا ظاهريا. فإذا رسمت زوج حذاء بنّيين قديمين، ورقعتين بنيتين فاتحتين عند المرفق، وغليونا أسود، وعينين منتفختين أسفل حاجبين كثّين، تيسّر

استكمال ما تبقى. في مكان ما في الوسط تدلّت علّة كبد غامضة، وفي مكان ما في الخلف كان هناك شعر القرن الثامن عشر، حقل "روي" المميّز، ومرعى مكشوط ذو ينبوع هزيل وأجمة أشجار فسيلة، وسياج سلكي شائك على كلي طرفي الحفل يفصله عن مجال الأستاذ "ستاو"، عن القرن السابق حيث كانت الحملان أنصع بياضا، والمزج أغيد، وعن أوائل القرن التاسع عشر، مجال اختصاص الدكتور "سافيرو"، برذاذ وديانها وضباب بحارها وأعنابها المستوردة. تحاشى "روي ثاير" الحديث عن موضوعه، بل تجنب، في الواقع، الحديث عن أي موضوع، بعد أن بدّد عقدا من حياته الرمادية عاكفا على إعداد عمل عميق حول جماعة شعارير متكلفين منسية، واحتفظ بيوميات مستفيضة في صورة شعر مستغلق، كان يأمل أن تفكّه الأجيال اللاحقة يوما ما، وأن تشهره، وهي تتأمل أعمال الماضي، كأعظم إنجاز أدبي في زمننا ـ وبقدر معرفتي، قد تكون على حق، يا "روي ثاير".

بينما كان الجميع يقصفون بارتياح ويثنون على الكوكتيلات، جلس "بْنين" على البوفة الرخوة قرب صديقه الجديد، ثم قال:

«يجب أن أخبرك عن القبّرة، "زافورونوك" في اللغة الروسية، التي شرفتني بالسؤال عنها. خذ هذا معك إلى بيتك. فقد كتبت هنا على الآلة الكاتبة تقريرا موجزا مرفقا بقائمة مراجع. أعتقد أننا نستطيع الآن أن ننتقل إلى الغرفة الأخرى حيث سنتناول العشاء بالشوكات، حسب ظني.

٨

ما لبث أن انسحب الضيوف، بصحونهم المليئة، إلى الصالة. ثم جيء بالشراب.

«أيها الكريم "تيموفي"، بحق السماء، من أين حصلت على تلك الكأس المقدسة!» صرخت "جوان" مندهشة.

«أهدانيها "فيكتور"».

«لكن أين حصل عليها؟»

«أظن من محلّ متلاشيات في "كرانتون"».

«يا إلهي، لا بد أنها تساوي ثروة هائلة».

«دولار واحد؟ عشرة دولارات؟ أقل ربما؟»

«عشرة دولارات ـ هذا غير صحيح! مائتا دولار بالأحرى. انظر إليها! انظر إلى هذا التصميم المتموج. كما تعلم، يجب أن تُريها لآل "كوكريل". فهما يعرفان كل شيء عن الكؤوس القديمة. في الواقع، إنهما يملكان إبريقا من نوع "لايك دانمور" يبدو أشبه بهذا إلى حد ما».

أعجبت به "مارغريت ثاير" بدورها. قالت إنها تصورت، عندما كانت طفلة، أن حذاء "سندريلا" الزجاجي مصبوغ بذلك اللون الأزرق المائل إلى الأخضر، لذلك نبّه الأستاذ "بْنين" إلى أنه يودّ من الجميع أن يخبروه أولا إن كان المحتوى مفيدا مثل الحاوي، وأن يؤكدوا له ثانيا أن حذاء "سندريلا" لم يصنع من الزجاج، بل من فرو السنجاب الروسي ـ "فير" (vair) بالفرنسية. كان واضحا، كما قال، أن ذلك يمثل حالة جلية لبقاء أسلم كلمة من بين الكلمات، ذلك أن "فير" (verre) أكثر إيحاءا من "فير" (vair) التي اشتقت من كلمة "فاريوس" (varius)، التي تعني متنوعا، إنما اشتقت من كلمة "فيفيريتسا" السلافية (veveritsa) التي يقصد بها نوع من فرو السنجاب الشتوي الجميل والشاحب ذي المسحة الزرقاء، أو "كولومبية"[1]، بلون الحمام على الأصح، كما يعرف

---

(1) Columbine.

أحدهم هنا ذلك حق المعرفة. «هكذا، ها أنت ترين، السيدة "فاير"، أنك على حق عموما».

«المحتوى ممتاز»، قال "لورنس كليمانتس".

«هذا الشراب لذيذ بالتأكيد»، قالت "مارغريت ثاير".

(«لطالما اعتقد أن كلمة "كولومبية" تعني نوعا من الزهر»، قال "توماس" مخاطبا "بيتي" التي ندَّت عنها حركة خفيفة علامة على موافقتها).

ثم استعرض الضيوف أعمار العديد من الأطفال تباعا. كان "فيكتور" سيبلغ الخامسة عشرة. كانت "إيلين"، الابنة البكر لشقيقة السيدة "ثاير" الكبرى، في سن الخامسة، و"إيزابيل" في الثالثة والعشرين، وهي تستمتع كثيراً بوظيفة سكرتيرة بمدينة نيويورك، وابنة الدكتور "هاغن" في الرابعة والعشرين، وستعود قريبا من أوربا حيث عاشت رحلة صيفية رائعة في بافاريا وسويسرا، رفقة السيدة العجوز الكريمة "دوريانا كارين"، نجمة الأفلام خلال العشرينيات.

رنّ الهاتف. أراد أحدهم أن يكلّم السيدة "شيبّرد". وبدقة غير معهودة تماماً منه في مثل تلك الحالات، لم يقدّم "بْنين" ذو المزاج المتقلب عنوان السيدة الجديد ورقم هاتفها فحسب، بل زوّد المتصل بعنوان ابنها البكر ورقم هاتفه كذلك.

٩

في الساعة العاشرة، كان شراب "بْنين" وويسكي "بيتي" يحمل الضيوف على الحديث بصوت أعلى مما كانوا يظنون. اجتاحت حمرة قرمزية جانبا من عنق السيدة "ثاير"، أسفل النجمة الزرقاء الصغيرة من

قرط أذنها اليسرى. اعتدلت في جلستها، ثم شرعت تبهج مضيفها بحكاية عن مشاحنة بين زميلين لها في المكتبة. لم تكن الحكاية سوى حادثا مكتبيا بسيطا، لكن تغيير نبرتها من الآنسة "شْريل" إلى السيد "باسو"، والإحساس بروعة السهرة، جعلا "بْنين" يميل برأسه ويقهقه مبتهجا ويكتم ضحكته بيده. كان طرف "روي ثاير" يرمش بشكل واهن، وهو ينظر إلى شرابه، أسفل أنفه الإسفنجي الرمادي، وينصت بتأدب إلى "جوان كليمانتس"، التي تكتسب، كلما انتشت بالثمالة كما كانت حينها، طريقة فاتنة في رفرفة جفنيها بشكل سريع، أو حتى إغماض عينيها الزرقاوين ذاتي الرموش السوداء كليا، وفي قطع جملها، قصد ترقيم عبارة أو استرجاع نفَسه، عبر نهَجٍ عميق: «لكن ألا تعتقد ـ هممم ـ أن كل محاولاته ـ هممم ـ عمليا في جميع رواياته ـ هممم ـ تروم ـ هممم ـ التعبير عن تواتر رائع لموقف معين؟» ظلت "بيتي" تلجم شخصيتها الضعيفة، وتبدع في تقديم المشروبات المنعشة. في الطرف الآخر من الصالة، كان "كليمانتس"، بسحنته الكئيبة، يحرك الكرة الأرضية الثقيلة، عندما أخبره "هاغن"، هو و"توماس" الذي كان يبتسم ابتسامة عريضة، ويتحاشى بعناية تلك الدندنات التقليدية التي يستعملها داخل أوساط أكثر ميلا للاختلاط، آخر خبر عن السيدة "إديلسون"، مما قصّه السيد "بلورينج" على السيدة "هاغن". اقترب منهم "بْنين"، حاملاً صحناً مليئاً بحلوى النوغة.

«هذا لا يناسب أذنيك العفيفتين، يا "تيموفي"»، قال "هاغن" مخاطبا "بْنين"، الذي يعترف أنه لم يستطع أبدا أن يفهم المراد من أي «مستملحة سوقية». «غير أن..».

ابتعد "كليمانتس"، ليلتحق بالسيدات. شرع "هاغن" يروي الخبر ثانية، وابتسم من جديد. حرّك "بْنين" يده على الطريقة الروسية تعبيرا عن الاشمئزاز، ثم قال:

«لقد سمعت المستملحة ذاتها تقريبا منذ ثلاثين سنة في "أوديسا"، وحتى في ذلك الوقت عجزت عن فهم الجانب الفكاهي فيها».

١٠

في مرحلة متأخرة من الحفلة، حصلت بعض التغييرات الأخرى. في زاوية من الأريكة ذات المسندين، كان "كليمانتس" السئِم يتصفح ألبوم *روائع فلامانية* الذي تلقاه "فيكتور" من والده وتركه لدى "بْنين". بينما جلست "جوان" على كرسي واطئ، عند قدمي زوجها، ووضعت صحن عنب في حجرها على تنورتها الفضفاضة، متسائلة متى سيحين موعد رحيلها دون أن تجرح مشاعر "بْنين". أما الآخرون، فكانوا ينصتون إلى "هاغن" وهو يناقش التعليم الحديث:

«قد تضحك»، قال، وهو ينظر نظرة حادة إلى "كليمانتس" الذي حرّك رأسه، منكرا التهمة، ثم مرّر الألبوم إلى "جوان"، وأشار إلى شيء ما فيه أثار فجأة بهجته.

«قد تضحك، لكني أؤكد أن الطريقة الوحيدة للإفلات من البركة ـ من قطرة واحدة فقط، يا "تيموفي"، وهي تكفي ـ تكمن في إغلاق الباب على الطالب داخل حجرة عازلة للصوت والاستغناء عن قاعة المحاضرات».

«نعم، وهو كذلك»، قالت "جوان" لزوجها لاهثة، وهي تعيد له الألبوم.

«أنا سعيد أنك متفقة، يا "جوان"»، واصل "هاغن". «لكنني كنت أدعى بالولد الشقي، لأنني شرحت هذه النظرية، وربما لن تعبري عن

الاتفاق ذاته عندما ستسمعين كل ما سأقوله. فالسجلات الفونوغرافية حول موضوع محتمل سيوضع رهن إشارة الطالب المعزول..».

«لكن شخصية المحاضر هي التي تكتسي الأهمية بالتأكيد»، قالت "مارغريت ثاير".

«ليس الأمر كذلك»، صرخ "هاغن". «هنا تكمن المأساة! من يريده، مثلا»، قال وهو يشير بأصبعه إلى "بْنين" ذي الوجه المتهلل - «من يريد شخصيته؟ لا أحد! سيرفضون شخصية "تيموفي" الرائعة بلا تردد. فالعالم في حاجة إلى آلة، لا إلى "تيموفي"».

«يمكن أن نشاهد "بْنين" على شاشة التلفزيون»، قال "كليمانتس".

«آه، كم أتوق إلى ذلك»، قالت "جوان"، وهي تبتسم لمضيفها. طأطأت "بيتي" رأسها، بينما انحنى "بْنين" انحناءة عميقة، رافعا يديه تعبيرا عن استسلامه.

«ما رأيك في هذا المخطط الجدلي؟»، سأل "هاغن" "توماس".

«بإمكاني أن أخبرك بما يفكر فيه "توم"»، قال "كليمانتس"، الذي كان ما يزال يتأمل الصورة ذاتها في الكتاب المفتوح فوق ركبتيه. «يعتقد "توم" أن أفضل منهج لتعليم أي شيء يكمن في الاعتماد على النقاش داخل الفصل، مما يعني فسح المجال أمام عشرين شاباً أبلهَ ومختالين عصابيين اثنين لكي يناقشوا طيلة خمسين دقيقة موضوعا لا يعرفونه، ولا أستاذهم على معرفة جيدة به. الآن، وطيلة الأشهر الثلاثة الأخيرة»، واصل دون ربط أي صلة منطقية، «ظللت أبحث عن هذه الصورة، وها أنا أعثر عليها هنا. إذ يريد ناشر كتابي الجديد حول *"فلسفة الحركة"* صورة شخصية لي، كنا نعلم، "جوان" وأنا، أننا رأينا شبها مدهشا لها لدى شيخ عجوز، لكننا لا نتذكر متى بالأحرى. حسناً، ها هي هنا. أما

اللمسة الوحيدة التي تحتاجها، فستكون إضافة قميص رياضي وحذف يد المحارب هذه».

«يجب أن أحتج فعلا»، انطلق "توماس".

مرّر "كليمانتس" الكتاب المفتوح إلى "مارغريت ثاير"، فانفجرت ضاحكة.

«يجب أن أحتج، يا "لورنس"»، قال "توم". «كل نقاش مسترسل في جو من التعميمات الفضفاضة يمثل مقاربة تعليمية أكثر واقعية من المحاضرة الرسمية العتيقة».

«طبعا، طبعا»، قال "كليمانتس".

انكمشت "جوان" على ركبتيها، وغطت كأسها براحتها النحيفة عندما عرَض عليها ملأها ثانية. ألقت السيدة "ثاير" نظرة على ساعة معصمها، ثم على زوجها. تمدد فم "لورنس" بثؤباء ناعمة. سألت "بيتي" "توماس" عما إذا كان يعرف رجلا يدعى "فلوجيلمان"، وهو خبير في الخفافيش، كان يعيش بـ"سانتا كلارا" في كوبا. طلب "هاغن" كوب ماء أو جعة. «بمن يذكرني؟» خمّن "بْنين" فجأة. «"إريك ويند"؟ لماذا؟ إنهما مختلفان جسديا تماما».

١١

جرى المشهد الأخير من الحفلة في الرواق. لم يعثر "هاغن" على العكاز الذي جاء به (إذ سقط خلف صندوق داخل الخزانة).

«وأنا أظن أنني نسيت حافظتي حيث كنت جالسة»، قالت السيدة "ثاير"، وهي تدفع زوجها الغارق دائما في التفكير نحو غرفة الجلوس.

وقف "بْنين" و"كليمانتس"، يتبادلان آخر حواراتهما، على جانبي

مدخل غرفة الجلوس، مثل كرتيدين[1] ضخمين، وقلّصا بطنيهما ليسمحا لـ"ثاير" الصامت بالمرور. وسط الغرفة وقف الأستاذ "توماس" والآنسة "بليس" ـ هو يضع يديه خلف ظهره ويتأرجح على أصابع قدميه بين الفينة والأخرى، وهي تحمل صحنا ـ وهما يتحدثان عن كوبا حيث عاش خطيب ابنة خالة "بيتي" فترة من الزمن، حسبما أدركته "بيتي". كان "ثاير" يتخبط بين كرسي وكرسي، حتى عثر على محفظة بيضاء، دون أن يدري أين انتشلها، لأن باله ظل منشغلا بمسودة السطور التي كان سيحررها في وقت متأخر من تلك الليلة:

جلسنا وشربنا، لكل واحد منا ماضٍ مستقل موصدة دونه الأبواب، وساعات القدر المنبهة مضبوطة على مواعيد مستقبلية منفصلة ـ عندما دار مقبض الباب أخيراً، والتقت أعين الأزواج...

في الآن ذاته، استفسر "بنين" "جوان كليمانتس" و"مارغريت ثاير" إن كانتا ترغبان في رؤية كيف زخرف الغرفة العليا. راقتهما الفكرة. قادهما إلى الأعلى. بدت مقصورته، كما كان يسميها، حينها حميمية جداً، بأرضيتها المخدوشة التي غطاها بعناية بذلك السجاد الباكستاني الذي حصل عليه مرة لأجل مكتبه، وجرّه مؤخرا في صمت رهيب من تحت قدمي "فالترنفيلس" المندهش. وكان "بنين" يحجب سريره الثقيل بمعطف مصقول مربع النقوش، كان يرتديه عندما عبر المحيط من أوربا سنة ١٩٤٠، وببعض الوسائد البالية. أما الرفوف الوردية، التي اكتشف أنها تحمل أجيالا عدة من كتب الأطفال ـ من *"توم ماسح الأحذية"* أو *"الطريق إلى النجاح"* لـ"هوراشيو ألجر" الابن (١٨٨٩)، مرورا بـ*"رولف في الغابة"* لـ"إرنست تومسون سيتن" (١٩١١)، إلى طبعة سنة

---

(١) الكرتيد تمثال امرأة يقوم مقام عمود في مبنى (المترجم).

١٩٢٨ من "*موسوعة كومتون المصورة*" التي تقع في عشرة أجزاء مزينة بصور ضبابية صغيرة ـ فقد صفّها الآن بثلاثمائة وخمسة وستين عملا مستعارا من مكتبة كلية "وايندیل".

«وأظن أنني طبعت بخاتمي كل هذه الكتب»، تنهدت "ثاير"، عيناها تائهتان في حيرة خائبة.

«بعضها مطبوع بخاتم السيدة "ميلر"»، قال "بْنين"، حرصا منه على احترام الحقيقة التاريخية.

لكن ما لفت نظر الزائرتين أكثر داخل الغرفة هي الستارة العريضة المنثنية التي تحمي السرير ذا الملصقات الأربعة من غدر التيارات الهوائية، بينما المشهد عبر صفّ النوافذ الصغيرة يكشف جدارا حجريا أسود ارتفع على عجل على بعد خمسة أقدام من البيت، يعانق حقلاً سماوياً شاحباً مليئاً بالنجوم، ممتداً فوق نباتات مزهرة تبدو سوداء في تويجاتها. خلف الحديقة، وعبر انعكاس النافذة، ظهر "لورنس" يتقدم بخطوات بطيئة نحو الظلام.

«أخيرا، ها أنت مرتاح فعلا»، قالت "جوان".

«وأنت تعرفين ما سأقوله لك»، ردّ "بْنين" بنبرة خافتة واثقة تنمّ عن الظفَر. «غدا صباحا، سأرى من خلف ستار الغموض رجلا نبيلا يريد مساعدتي على شراء هذا المنزل!»

نزلوا مجددا. سلّم "روي" زوجته محفظة "بيتي". وعثر "هيرمان" على عكازه. بحثوا جميعا عن حافظة "مارغريت". وعاد "لورنس".

«وداعاً، وداعاً، الأستاذ "فين"»، ترنّم "بْنين"، خدّاه يبدوان مورّدين ومكورين في ضوء مصباح المدخل.

(في الرواق، كانت "بيتي" و"مارغريت ثاير" ما تزالان تعبران عن إعجابهما بعكاز الدكتور "هاغن" الفخور، الذي أرسل إليه مؤخرا من

ألمانيا، وهو عبارة عن هراوة مدببة ذات مقبض أشبه برأس حمار. تلك الرأس قد تحرك أذنا واحدة. كان العكاز في حوزة جدّ الدكتور "هاغن" البافاري، الذي كان قسّاً بالبادية. بينما تكسر جهاز الأذن الثانية سنة ١٩١٤، وفق مذكرة تركها القس. حملها "هاغن"، كما قال، دفاعا عن نفسه ضد كلب ألزاسي في "غرينلاون لاين". لم تكن الكلاب الأمريكية متعودة على الراجلين. لذلك ظل يفضل أن يتنقل بسيارته. ولم يستطيع إصلاح الأذن، في "وايندبل" على الأقل).

«أتساءل الآن لِمَ ناداني بذلك الاسم»، قال "ت. و. توماس"، أستاذ الأنثروبولوجيا، لـ"لورنس" و"جوان كليمانتس"، وهم يعبرون العتمة الزرقاء نحو أربع سيارات مركونة أسفل أشجار الدردار على الجانب الآخر من الشارع.

«يوظف صاحبنا»، أجاب "كليمانتس"، «تسميات خاصة به. أوهامه اللفظية تضفي سحرا جديدا على الحياة. وعيوبه في النطق خرافية. وزلات لسانه نبوئية. فهو ينادي زوجتي باسم "جون"»

«ومع ذلك، مازلت أرى ذلك مزعجاً إلى حد ما».

«ربما حسبك شخصا آخر»، قال "كليمانتس". «وكل ما أعرفه هو أنك قد تكون شخصا آخر».

قبل أن يعبروا الشارع، تجاوزهم الدكتور "هاغن". استأذن الأستاذ "توماس"، الذي ظل حائرا، في الانصراف.

«حسنا»، قال "هاغن".

كانت ليلة خريفية جميلة، أرضها مخملية، وسماؤها فولاذية.

سألت "جوان":

«هل أنت متأكد أنك لا ترغب في أن نُقِلّك؟»

«لا تستغرق المسافة سوى عشر دقائق مشيا. وفي ليلة جميلة مثل هذه يصبح المشي ضرورة».

وقف الثلاثة برهة يحدقون في النجوم.

«وهذه كلّها عوالم»، قال "هاغن".

«وإلا فهي فوضى رهيبة»، قال "كليمانتس" متثائبا. «أشك أنها تمثل أجساما متلألئة في الواقع، ونحن وسطها».

انبعثت من المدخل المضاء قهقهة "بْنين" الصاخبة، وهو ينهي حكايته لـ"ثاير" و"بيتي بليس" كيف أنه، هو الآخر، استعاد ذات مرة الحقيبة الخطأ.

«تعال، يا جسمي المتلألئ، دعنا نرحل»، قالت "جوان". «كان من دواعي سروري أن ألتقي بك، يا "هيرمان". بلِّغ "إرمغارد" تحياتي ومودتي. يا لها من حفلة بهيجة. لم أرَ قطّ "تيموفي" أسعد مثل اليوم».

«أجل، شكرا»، أجاب "هاغن" سهوا.

«كان يجب أن تنظر إلى وجهه، عندما أخبرنا أنه سيكلم وكيل عقارات عن شراء بيت أحلامه»، قالت "جوان".

«هل قال ذلك؟ هل أنت متأكدة من أنه قال ذلك؟ سأل "هاغن" بحماس.

«متأكدة تماما»، قالت "جوان". «وإذا كان أحدكم في حاجة إلى منزل، فعليه بـ"تيموفي" حتما».

«حسنا، ليلة سعيدة»، قال "هاغن". «سعيد بقدومك. ليلة سعيدة».

انتظر حتى بلغا سيارتهما. ترذد، ثم سار عائداً إلى المدخل المضاء حيث كان "بْنين"، واقفا كأنه على مسرح، يصافح آل "ثاير" و"بيتي" للمرة الثانية أو الثالثة.

(قالت "جوان"، وهي تعود بالسيارة إلى الخلف وتعالج المقود: «لن أسمح أبدا، على الإطلاق، لابني بأن يسافر إلى الخارج رفقة ذلك العجوز الشاذ». قال "لورنس": «انتبهي، قد يكون مخمورا، لكنه ليس بعيدا عن مدى السمع»).

«لن أغفر لك، لأنك لم تسمح لي بغسل الصحون»، قالت "بيتي" مخاطبة مضيفها المسرور.

«سأساعده»، قال "هاغن"، وهو يصعد درجات المدخل ويخبطها بعكازه. «هيا، يا أولاد، انصرفوا الآن إلى حال سبيلكم».

جرت جولة مصافحات أخيرة، قبل أن يغادر آل "ثاير" و"بيتي".

١٢

«أولا، أقترح أن أشرب آخر نخب برفقتك»، قال "هاغن"، عندما عاد هو و"بْنين" إلى غرفة الجلوس.

«حسنا، حسناً!» صرخ "بْنين". «دعنا نكمل قنينتي».

بعد أن جلسا، قال الدكتور "هاغن":

«أنت مضيف رائع، يا "تيموفي". هذه لحظة بهيجة. كان والدي يقول إن كأس نبيذ جيد ينبغي أن تُحتسى وتُستطاب كأنها آخر كأس قبل الإعدام. أتساءل عما تضعه في هذا الشراب. كما أتساءل إن كنت تنوي شراء هذا المنزل، مثلما تؤكد جميلتنا "جوان"».

«لا أنوي، بل أنظر في بعض الاحتمالات»، ردّ "بْنين" بضحكة مقرقرة.

«أتساءل عن الحكمة من ذلك»، واصل "هاغن"، وهو يداعب قدحه.

«بالطبع، آمل أن أُثبت في الوظيفة في آخر المطاف»، قال "بْنين" بخبث ماكر. «أنا الآن أستاذ مساعد منذ تسع سنوات. السنوات تجري. وسأصبح أستاذا فخريا مساعدا. لِمَ أنت صامت، يا "هاغن"؟»

«إنك تضعني في موقف حرج، يا "تيموفي". كان أملي ألا تطرح هذا السؤال الخاص».

«أنا لا أطرح السؤال. أنا أقول إنني أتوقع فقط ـ آه، ليس السنة المقبلة، وإنما على سبيل المثال بمناسبة الذكرى المائوية لتحرير العبيد ـ أن تعينني كلية "وايندیل" أستاذا مشاركا».

«حسنا، كما ترى، يجب أن أفشي لك سرا مؤسفا، يا صديقي العزيز. ليس أمرا رسميا بعد، لكن يجب أن تعدني بألا تبوح به لأحد».

«أقسم على ذلك»، قال "بْنين"، رافعا يده.

قال "هاغن" مواصلا حديثه: «لا يغيب عن ذهنك مدى العناية والشغف اللذين أوليتهما لبناء شعبتنا العظيمة. أنا أيضاً لم أعد شابا. تقول، يا "تيموفي"، إنك قضيت هنا تسع سنوات. لكني ظللت أبذل قصارى جهدي طوال تسع وعشرين سنة لأجل هذه الجامعة! ولم أمنحها سوي القليل. ومثلما كتب لي صديقي الدكتور "كرافت" في ذلك اليوم: «أنت يا "هيرمان هاغن"، قدمت وحدك لألمانيا في أمريكا أكثر مما قدمته جميع مساعينا في ألمانيا للأمريكيين». ما الذي حصل الآن؟ لقد ربَّيْتُ "فالترنفيلس"، هذا التنين، في حضني، وها هو الآن يشغل منصبا أساسيا. سأعفيك من تفاصيل هذه المؤامرة!»

«أجل»، قال "بْنين" متحسرا، «المؤامرة شنيعة، شنيعة. لكن العمل الصادق، من جهة أخرى، سيثبت فائدته على الدوام. سنلقي أنا وأنت بعض الدروس الرائعة الجديدة التي خططت لها منذ وقت طويل للسنة

المقبلة. وهي حول الاستبداد، والدهَق[1]، والقيصر "نيكولاي" الأول، وكل رواد الفظائع الحديثة. عندما نتحدث عن الجور، يا "هاغن"، ننسى مذابح الأرمن، والتعذيب الذي مورس في إقليم التبت، والاستعمار في أفريقيا... تاريخ الإنسان هو تاريخ الألم!»

مالَ "هاغن" على صاحبه، وضربه برفق على ركبته البارزة.

«أنت رومانسي رائع، يا "تيموفي"، تعيش أحوالا أكثر سعادة... لكن يمكن أن أقول لك إننا سننجز عملا استثنائيا خلال الدورة الربيعية. سنعرض برنامجا دراميا ـ مشاهدَ من "كوتزيبيو" إلى "هوتمان". أرى فيه نوعا من المثل الأعلى... لكن دعنا لا نستبق الأمور. أنا أيضاً رومانسي، يا "تيموفي"، لذلك لا يمكن أن أشتغل مع أناس مثل "بودو"، كما يرجو أمناؤنا أن أفعل. سيتقاعد "كرافت" من جامعة "سيبورد"، حيث اقتُرِح عليَّ أن أحُلَّ محلّه في مستهل الخريف المقبل».

«أهنئك على ذلك»، قال "بْنين" بحرارة.

«شكرا، يا صديقي. إنه منصب رائع ومهم جدّاً بالتأكيد. يجب أن أطبق الخبرة القيِّمة التي اكتسبتها هنا على حقل أوسع من المعرفة والإدارة. طبعا، وبما أنني أعرف أن "بودو" لن يبقي عليك في شعبة الألمانية، كانت خطوتي الأولى تقتضي أن أقترح حضورك معي، لكنهم أخبروني أنهم يتوفرون على عدد كافٍ من أساتذة اللغات السلافية في جامعة "سيبورد" من غيرك. لذلك كلّمت "بلورينج"، لكن شعبة الفرنسية هنا أيضاً مكتملة. إنه لأمر مؤسف، لأن كلية "وايندِيل" تشعر أنها ستتحمل عبئاً مالياً كبيراً جداً، وهي تؤدي لك أجرة درسين أو ثلاثة

---

(١) خشبتان يعصر بهما الساق أثناء التعذيب (المترجم).

في اللغة الروسية التي لم تعد تلفت انتباه الطلاب. فالتوجهات السياسية في أمريكا، كما نعلم جميعا، لا تشجع على الاهتمام بالشؤون الروسية. من جهة أخرى، ستسرّ حين ستعلم أن شعبة اللغة الإنجليزية ستجلب أحد ألمع المحاضرين من أبناء بلدك، وهو مدهش فعلا ـ لقد استمعت له ذات مرة، وأظنه واحداً من أصدقائك القدامى».

تنحنح "بْنين" وسأل:

«هل هذا يعني أنهم سيطردونني؟»

«لا تأسَ على ذلك، يا "تيموفي". فأنا متيقن أن صديقك القديم..».

«أي صديق قديم؟» استفسر "بْنين"، مضيِّقا عينيه.

أشار "هاغن" إلى اسم المحاضر الساحر.

قالت "بْنين"، وهو ينحني إلى الأمام، يسند كوعيه إلى ركبتيه، ويشدّ يديه ويرخيهما:

«أجل، أعرفه منذ ثلاثين سنة أو أكثر. نحن صديقان، لكن هناك أمر واحد أنا متأكد منه تماماً. وهو أنني لن أعمل تحت إمرته أبدا».

«حسنا، أظن أنه يجب أن تفكر في الأمر مليا. قد تجد حلاً ما. على كل حال، ستتاح لنا فرصة كافية لمناقشة هذه الأمور. علينا، أنت وأنا، أن نواصل التدريس، كأن شيئاً لم يقع، أليس كذلك؟ يجب أن نتحلى بالشجاعة، يا "تيموفي"!»

«لقد طردوني إذا»، قال "بْنين"، وهو يشبك يديه وينكّس رأسه.

«نعم، إننا نركب الزورق نفسه، نحن على متن الزورق نفسه»، قال "هاغن" المرح، ثم وقف. كان الوقت متأخرا جداً.

«أنا ذاهب الآن»، قال "هاغن" الذي لا يدمن استعمال الأفعال المضارعة مثل "بْنين"، لكن يحمل نفسه على توظيفها. «يا لها من حفلة

رائعة، لم أكن لأسمح لنفسي أبدا بإفساد هذا الفرح، لو لم تخبرني صديقتنا المشتركة بنواياك المتفائلة. ليلة سعيدة. آه، بالمناسبة... بالطبع، ستتلقى أجرتك كاملة عن الدورة الخريفية، حينها سننظر في مدى إمكاننا الحفاظ عليك خلال الدورة الربيعية، خاصة إذا وافقت على أن تتولى عني بعض الأعمال المكتبية الغبية، وأن تشارك بحيوية كذلك في البرنامج الدرامي بـ"نيو هال". أعتقد أنه يجب أن تشترك في التمثيل تحت إشراف ابنتي. سيصرفك ذلك عن أفكارك السوداء. والآن ائوِ إلى فراشك، واخلدْ إلى النوم وفي بالك أحجية جميلة».

في المدخل صافح يد "بْنين" المتبلدة بحماسة كبيرة. ثم لوّح بعكازه، ونزل الأدراج الخشبية يتبختر مرحا.

اصطفق الباب الفاصل من خلفه.

«المسكين»[1]، همس "هاغن" العطوف لنفسه، وهو يؤوب إلى بيته. «على الأقل، جعلته يستسيغ حبة الدواء».

١٣

نقل "بْنين" الصينية المستعملة والأواني الفضية من المقصف وغرفة الجلوس إلى مغسلة المطبخ. وضع بقايا الطعام داخل الثلاجة ذات الإضاءة المتجمدة الساطعة. لم يعد هناك لحم فخذ الخنزير، ولا لحم لسان، وكذا النقانق، كلّها اختفت، لكن صلصة الخلّ لم تكن ناجحة، بينما تبقى من الكافيار وكعك اللحم ما يكفي لوجبة أو اثنتين في اليوم الموالي. «بوم بوم بوم»، سمع الصوت عندما مرّ قرب الخزانة الخزفية.

---

(١) وردت العبارة باللغة الألمانية (Der arme Kerl) (المترجم).

استطلع غرفة الجلوس، ثم شرع يرتبها. كانت آخر قطرة من شراب "بْنين" تترقرق داخل كأسه الجميلة. كانت "جوان" قد سحقت عقِب سيجارة مطلية بأحمر الشفاه في صحنها، فيما لم تخلف "بيتي" أي أثر وراءها، حيث حملت كلّ الكؤوس إلى المطبخ. وكانت السيدة "ثاير" قد نسيت علبة أعواد ثقاب جميلة متعددة الألوان في صحنها، قرب قطعة نوغة. وكان السيد "ثاير" قد لفّ بعض المناديل الورقية لفّات متعددة ذات أشكال عجيبة. بينما أخمد سيجارا مقززا في عنقود عنب ظلّ على حاله، لم يأكل منه أحد.

في المطبخ، استعد "بْنين" لغسل الصحون. نزع معطفه الحريري وربطة عنقه وطقم أسنانه. التحف مئزر فتاة مغناج مزركش، حتى يحمي قميصه وسرواله من الرذاذ المتطاير. كشط بقايا الأطعمة العالقة في الحصون في كيس ورقي بنّي، ليطعمها بعد ذلك كلباً نحيلاً أجرب أبيض اللون، ذا بقع حمراء على الظهر، يزوره أحياناً بعد الزوال ـ إذ لا وجود لأي علّة تجعل مصيبة بشرية تعترض لذة كلبية.

أعدّ "بْنين" حوض فقاعات داخل الحوض لغسل الكؤوس والأواني الفخارية والفضية، ثم غطس الكأس الزمردية بعناية فائقة في الرغوة الفاترة. أصدر زجاجها البلوري الرنّان صدى مكتوما ما أن امتلأت بالماء واستقرت في الأسفل. غسل الكؤوس العنبرية والأواني الفضية تحت الصنبور، ثم غطسها في الرغوة ذاتها. بعد ذلك، أخرج السكاكين والشوكات والملاعق. غسلها، ثم شرع يمسحها. كان يشتغل ببطء شديد، بطريقة غامضة إلى حد ما يحسبها المرء سحابة تجريد لدى رجل لا ينساق كثيراً وراء التنظيم والترتيب. جمع الملاعق الممسوحة في حزمة، وضعها داخل إبريق غسله دون أن ينشفه، ثم أخرجها الواحدة تلو الأخرى، ومسحها ثانية. تحسس أسفل الفقاعات، أسفل الكأس الرهيفة، وحول الكؤوس الأخرى، بحثا عن أي آنية فضية منسية،

ليستخرج كسّارة جوز. غسلها "بْنين" المدقّق. بينما كان يمسح تلك الآلة ذات القدمين، انزلقت من المنشفة وسقطت مثل رجل من السطح. كاد يمسكها، حيث لامستها أنامله فعلا أثناء سقوطها، لكن ذلك لم يُجْدِ نفعا، بل زاد في سرعتها وهي تهوي داخل الرغوة التي تخبئ كنزا وسط الحوض، حيث تلا ارتطامَها صوت فاجع لكأس تنكسر.

رمى "بْنين" بالمنشفة إلى زاوية، ثم وقف لحظة، بعد أن استدار مبتعدا، يحدق في العتمة خلف عتبة الباب الخلفي المفتوح. كانت بعوضة صغيرة هادئة خضراء ذات جناحين مخرمين تحوم حول مصباح مكشوف ذي نور ساطع فوق صلعة "بْنين" اللامعة. بدا عجوزا هرما، بفمه الأدرد شبه الفاغر وقشرة دموع تحجب عينيه المشدوهتين اللتين لم تعودا ترفّان. بعد ذلك، أصدر أنّة تنم عن ترقب قلِق، وهو يتقدم نحو الحوض. غطس يده عميقا في الرغوة. لسعته شظية زجاجية. أزال كأسا مكسورة برفق. كانت الكأس الجميلة سليمة. تناول منشفة نظيفة، وواصل عمله المنزلي.

عندما أصبح كل شيء نظيفا وناشفا، وصارت الكأس بعيدة عن المتناول، تنعم بالسكينة فوق الرفّ الأكثر أمانا داخل الخزانة، وغرق البيت الصغير المضاء بأمان في ليل الظلمة الواسعة، جلس "بْنين" إلى طاولة المطبخ، ثم أخرج من جارورها قصاصة ورقية صفراء. نزع سدادة قلمه، وشرع يحرر مسودة رسالة:

«عزيزي "هاغن"»، كتب بخط يده الواضح والواثق، «اسمح لي بأن أختصر الحديث الذي دار بيننا الليلة. يجب أن أعترف أنه أصابني بالحيرة إلى حد ما. إذا كان لي شرف أن أفهمك على نحو صحيح، فقد قلتَ إن..».

الفصل السابع

١

ارتبطت أولى ذكرياتي عن "تيموفي" بذرة غبار فحم تسربت إلى عيني اليسرى ذات أحد ربيعي من سنة ١٩١١.

كان ذلك الصباح واحداً من تلك الصباحات الهائجة والعاصفة والبراقة في "سان بيترسبورغ"، عندما جرف نهر "نيفا" آخر قطعة شفافة من جليد بحيرة "لادوغا" إلى الخليج، وظلت أمواجه النيلية تمور وترتطم بصخور الصوان على الضفتين، بينما كانت المراكب والزوارق الضخمة، الراسية على طول الرصيف، تصرّ ويحتك بعضها ببعض على نحو إيقاعي، وتتلألأ اليخوت البخارية الراسية تحت أشعة الشمس الخجولة. كنت أجرّب درّاجة إنجليزية جديدة وجميلة تلقيتها هديةً بمناسبة ذكرى ميلادي الثانية عشرة. ولمّا كنت عائداً إلى بيتنا الحجري الوردي بشارع "مورسكايا"، أسوقها على أرصفة خشبية صقيلة، لم يكن الوعي بعصيان معلّمي يثير انزعاجي أكثر مما سببته لي الحبيبة من ألم حارق في الجهة اليسرى أعلى مقلة عيني. ولم تنفع العلاجات التي تلقيتها في البيت، كاستعمال حشوات قطنية منقوعة في الشاي البارد وجهاز فرك الأنف، بل زادت الأمر سوءا. عندما استيقظت صباح اليوم الموالي، شعرت بذلك الجسم المندس أسفل جفني الأعلى مضلعا صلبا

ينغرز في العمق أكثر فأكثر عند كل طرفة دامعة. وفي العشية، أخذوني إلى طبيب عيون شهير، كان هو الدكتور "بافيل بْنين".

لقد بصمت حادثة من تلك الحوادث السخيفة التي تبقى موشومة على الدوام في الذاكرة الفتية لكل طفل الفضاء الزمني الذي قضيناه أنا ومعلّمي في غرفة الانتظار بعيادة الدكتور "بْنين"، المفروشة بقطيفة والمليئة بالغبار المتلألئ تحت أشعة الشمس، حيث كان نمش أزرق ينعكس على القبة الزجاجية لبندول من ذهب زائف موضوع على رفّ الموقد، وذبابتان ظلّتا ترسمان ببطء أشكالا رباعية الزوايا حول الثريا الجامدة. كان رجل ذو نظارات سوداء وزوجته التي تضع قبعة مزينة بالريش يجلسان على أريكة، صامتين كعادة الأزواج؛ ثم دخل ضابط في قوات الفرسان، وجلس قرب النافذة يقرأ جريدة؛ وبعد ذلك، توجه الزوج إلى مكتب الدكتور "بْنين"؛ حينها لاحظت سيماء غريبة على وجه معلّمي.

تابعت نظرته بعيني السليمة. مال الضابط نحو السيدة. لامها بفرنسية سريعة عن صنيع أتته، أو فعل لم تنفذه في اليوم السابق. مدّت إليه يدها المكسوة بقفاز كي يقبلها. ألصق شفتيه بفتحته الدائرية، ثم غادر فورا، كأنه شُفي مما كان يؤلمه.

بدا الدكتور "بافيل بْنين"، في نعومة أساريره وضخامة جسده ونحافة ساقيه وشكل أذنيه وشفته العليا الذي جعله مثل قرد، شبيها تماماً بما سيكون عليه حال "تيموفي" بعد ثلاثة أو أربعة عقود. غير أن الأب كان يمتاز بخصلة شعر لونها كالتّبن تخفف صلعا أشبه بالشمع، وكان يضع نظارات ذات إطار أسود يربطها بخيط أسود مثل الراحل "تشيخوف". ويتلعثم في الكلام، عكس ابنه تماماً فيما بعد. ويا لها من راحة ربانية شعرت بها عندما أزال الطبيب اللطيف، بواسطة آلة صغيرة أشبه بعصا

طبلِ قَزَم، من عيني الذرّةَ السوداء الضارّة! أتساءل أين هي تلك الذرة الآن؟ الحقيقة التافهة والغبية أنها موجودة في مكان ما.

لعلّني رأيت شققا أخرى تسكنها الطبقة المتوسطة أثناء زيارتي زملاء الدراسة، واحتفظت لا شعوريا بصورة شقة "بْنين" التي تتطابق ربما مع الواقع. بمقدوري أن أقول إذا إنها تتكون على الأرجح من صفّين من الغرف، بينهما رواق طويل، بجانب غرفة الانتظار ومكتب الطبيب وربما غرفة طعام وصالة استقبال، وعلى الجانب الثاني سريران أو ثلاثة وحمام وغرفة للخادمة ومطبخ. هممت بالمغادرة وأنا أحمل قارورة بها سائل عيون، بينما انتهز معلّمي الفرصة ليسأل الدكتور "بْنين" إن كان إجهاد العين يسبب ألما ما في المعدة، عندما انفتح الباب الأمامي وانغلق. تقدم الدكتور "بْنين" برشاقة نحو الممر، ثم استعلم عن الواقف خلف الباب، ليتلقى جوابا خافتا، قبل أن يعود رفقة ابنه "تيموفي"، الفتى الرياضي البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة (التلميذ بثانوية التعليم الكلاسيكي) بزيّه الرياضي الموحد، وهو عبارة عن قميص أسود وسروال أسود وحزام أسود لامع (أنا كنت أدرس بمدرسة ليبرالية، حيث كنا نرتدي ما نشاء).

هل أتذكر فعلا قصة شعره الشبيهة بالربابنة ووجهه الشاحب المتورم وأذنيه الحمراوين؟ أجل، بوضوح. بل إنني أتذكر كيف أبعد كتفه عن يد والده المتباهي دون أن يلحظ ذلك، بينما صوته الأبوي المتفاخر يقول: «هذا الولد حصل للتو على تسع نقط ونصف في امتحان الجبر». من آخر الرواق انبعثت رائحة مسترسلة لفطيرة كرنب مفروم، وعبر فتحة باب القسم كنت أرى خريطة لروسيا معلقة على الجدار، وكتبا على رفّ خزانة، وسنجابا محنّطا، وطائرة مصغرة بجناحين قماشيين ومحرك مطاطي. كنت أملك واحدة مثلها، لكن أكبر منها بضعفين، اشتريتها من مدينة "بياريتز". كان المطاط يغيّر طريقة دورانه، كلما تم شحن المروحة، ويحدث لفّات مكثفة مدهشة تنبئ بنهايتها الوشيكة.

خمس سنوات بعد ذلك، وبعد أن قضينا بداية الصيف في بيتنا بضواحي "سان بيترسبورغ"، صادف أن كنا، أنا وأمي وشقيقي الأصغر، نزور خالة عجوزا حزينة في بيتها الريفيّ الخرب على نحو غريب، غير بعيد عن ملجإ شهير على شاطئ بحر البلطيق. ذات عشية، وبينما أنا في حالة فرح غامر، عندما كنت أفحص تغيرا نادرا على نحو غريب في فراشة من صنف حشيشة الحجل، التحمت بسببه الخطوط الفضية التي تزين الجانب السفلي من أجنحتها الخلفية بحيز معدني لامع، أخبرني خادم أن الخالة العجوز تطلب مني الحضور. وجدتها في صالة الاستقبال تتحدث إلى شابين خجولين يرتديان لباس للطلاب الجامعيين الموحد. كان أحدهما ذا شعر أشقر، وهو "تيموفي بُنين"؛ والثاني ذا شعر خمري، وهو "غريغوري بيلوشكين". جاءا يستأذنان خالتي الكبرى لاستعمال حظيرة فارغة تقع على أطراف ملكيتها بغية التدرب على مسرحية عبارة عن ترجمة روسية لمسرحية *"ليبيلي"* التي ألفها "أرثر شنيتزلر" من ثلاثة مشاهد. كان "أنكاروف"، الممثل الريفي شبه المحترف، الذي اشتهر أساساً ببعض قصاصات نشرت في جرائد باهتة، يساعد على تحضير العمل. هل كنت سأشارك؟ لكني كنت متعجرفا في سن السادسة عشرة، مثلما كنت خجولا. فأبيت أن أؤدي دور النبيل المجهول في المشهد الأول. انتهى الحوار بتردد من الطرفين، دون أن يبدده كون "بُنين"، أو "بيلوشكين"، قلب كأس عصير إجاص مخمّر، ثم عدت إلى فراشتي. بعد أسبوعين، وجدتني بطريقة ما مجبرا على حضور العرض. امتلأت الحظيرة بالمصطافين والجنود المعطوبين من مستشفى مجاور. حضرت رفقة أخي. جلس بجانبي، "روبرت كارلوفيتش هورن"، المشرف على ملكية خالتي، وهو رجل بدين

بشوش من مدينة "ريغا"، ذو عينين محتقنتين بالدم، لونهما أزرق مثل صينية خزفية، حيث ظل يصفق بحماس في اللحظات غير المناسبة. أتذكر رائحة الديكورات المصنوعة من أغصان التنّوب، وعيون أبناء المزارعين تتلألأ عبر شقوق الجدران. كانت المقاعد الأمامية قريبة جدّاً من الخشبة، حتى إنك كنت تستطيع أن ترى بشكل واضح، عندما أخرج الزوج المخدوع علبة رسائل غرامية أرسلها إلى زوجته عن طريق "فريتز لوبهايمر"، الطالب الجامعي والجندي في فرقة الفرسان، ورمى بها على وجه "فريتز"، أنها بطاقات بريدية قديمة قطعت زوايا طوابعها. وأنا متأكد تماماً أن الدور الصغير لذلك النبيل الحانق أنيط بـ"تيموفي بْنين" (رغم أنه شخّص، من غير شك، شخصية أخرى في المشهدين المواليين، لكنه تخفى بمعطف صقيل وشارب كثّ وباروكة سوداء ذات مفرق وسط الرأس حتى إن تخفيه المتقن لم يلفت نظري إلى وجوده بتاتا. ولم يكن على "فريتز"، العاشق الشاب المحكوم بالموت في مبارزة، أن يصون فحسب تلك العلاقة الغامضة من وراء ستار بالسيدة ذات الزي المخملي الأسود، زوجة النبيل، بل أن يعبث بقلب "كريستين"، الخادمة الساذجة القادمة من فيينا. وقد أدى دورَ "فريتز" "أنكاروف" الأربعيني ذو الجسد الممتلئ، الذي وضع زينة بلون رمادي داكن، وكان يضرب صدره محدثا صوتا أشبه بما يحدثه سجاد أثناء خبطه، وكادت ارتجالاته في ذلك الدور، الذي لم يحفظه جيدا، تشلّ نديمَ "فريتز" "تيودور كايزر" ("غريغوري بيلوشكين"). فيما لم تتقن خادمة عجوز ميسورة الحال في الحياة الواقعية، كان "أنكاروف" يلاطفها، تمثيل دور "كريستين وايرين"، ابنة عازف الكمان. أما دور بائعة القبعات الصغيرة، "ميزي شلاغر"، معشوقة "تيودور"، فقد أدّته أداء ساحرا شقيقة "بيلوشكين" الجميلة ذات العنق الأهيف والعينين المخمليتين، والتي لقيت أكبر حفاوة خلال تلك الليلة.

لا أرجح أن ثمة فرصة أتيحت لي، خلال سنوات الثورة والحرب الأهلية التي تلتها، لأتذكر الدكتور "بْنين" وابنه. وإذا كنت قد أعدت بناء انطباعاتي السابقة ببعض التفصيل، فإني لم أفعل ذلك سوى لأحيط بما خطر ببالي عندما وجدتني، ذات ليلة أبريلية في مطلع العشرينيات بمقهى باريسي، أصافح "تيموفي بْنين" ذا اللحية الكستنائية والعينين الطفوليتين، الشاب المثقف الذي كتب أوراقا بديعة عديدة حول الثقافة الروسية. لقد جرت عادة الكتّاب والفنانين المهاجرين أن يجتمعوا في مطعم النافورات الثلاث بعد القراءات أو المحاضرات التي ذاع صيتها بين المغتربين الروس. ففي مناسبة مثل تلك، وقد بحّ صوتي بعد القراءة التي أدّيتها، لم أحاول فحسب أن أذكّر "بْنين" بلقاءاتنا السابقة، بل أن أدهشه كذلك، هو والآخرين المتحلقين حولنا، بصفاء ذاكرتي وقوتها. لكنّه أنكر كل شيء. قال إنه تذكر خالتي بصورة مشوشة، لكنه لم يلتقِ بي أبدا. قال إن علاماته في الجبر ظلت ضعيفة على الدوام، وإن والده لم يعرّفه، في كل الأحوال، على أي مريض. قال إنه لم يؤدِّ في مسرحية *"ليبيلي"* سوى دور والد "كريستين". ردّد أننا لم نلتقِ أبدا من قبل. لم يكن حوارنا القصير سوى مزحة مرحة أضحكت الجميع. عندما لاحظت مدى ممانعته في الاعتراف بماضيه، انتقلت إلى موضوع آخر أقل خصوصية.

ما لبثت أن أدركت أن شابة مظهرها لافت للنظر، بكنزتها الحريرية السوداء وطوق ذهبي يحيط بشعرها الكستنائي، أصبحت أهمّ منصتة إليّ. كانت تقف أمامي، تتكئ بكوعها الأيمن على راحة يدها اليسرى، وهي تمسك بين إبهام وسبابة يدها اليمنى، مثلما تفعل الغجريات، سيجارةً يرتفع دخانها نحو الأعلى، ويجعلها تغمض عينيها الزرقاوين الوقادتين

نصف إغماضة. كان اسمها "ليزا بوغوليبوف"، وهي طالبة طب تكتب الشعر أيضاً. سألتني إن كان بمقدورها أن ترسل لي حزمة أشعار حتى أدلي برأيي فيها. بعد لحظات، خلال الحفلة ذاتها، رأيتها جالسة قرب "إيفان ناغوي"، الملحّن الشاب ذي الشعر الكثيف على نحو منفّر. كانا يشربان على طريقة الأخوة، التي تقتضي من الشاربين شبك الأيدي. وعلى بعد بضعة كراسٍ، كان الدكتور "باراكان"، طبيب أمراض الأعصاب الموهوب وآخر عشاق "ليزا"، يراقبها بيأس مستتبٌ في عينيه اللوزيتين السوداوين.

بعد مرور بضعة أيام، أرسلت لي تلك القصائد. كان أجود عينة من نتاجها ذاك يمثل نوعا من الحشو الذي كتبه نظّامون مهاجرون بعد "أخماتوفا"؛ أي قصائد غنائية قصيرة رديئة تنظم على تفعيلة ثلاثية أَنْبَسَطية[1]، قبل أن تنتهي بآهة حزينة:

Samotsvétov kr?me ochéy

Net u menyà nikakich,

No estÂ roza eschcho nezhnéy

Rozovïh gub moih.

I yunosha tihiy skazàl:

«Vashe sérdtse vsego nezhnéy...»

I yà opustila glazà...

أبرزت النبرات الصوتية، ونقلت الحروف الروسية بما يسمح لها بأن تفهم بشكل عادي أن حرف u ينطق كـ "oo" بمد قصير، وحرف "i"

---

(١) وزن من أوزان الشعر.

كـ "ee"، و"zh" كالحرف الفرنسي "j". اعتبرت أن القوافي غير التامة، مثل "skazàl" وglazà أنيقة جداً. لتلاحظ كذلك الدلالات الإباحية الضمنية. إذ من شأن الترجمة إلى نص نثري أن تكون كالآتي: «لا حليّ، حافظ على عينيّ، هل أملك شيئاً، لكني أملك وردة أكثر نعومة من شفتي الورديتين. ثم قال شاب هادئ: "ما من شيء أكثر نعومة من قلبك". وخفضت نظري..».

كتبت رداً على رسالة "ليزا" أخبرها فيه أن قصائدها رديئة، وأنها يجب أن تتوقف عن نظم الشعر. بعد مدة وجيزة، رأيتها في مقهى آخر، جالسة إلى طاولة طويلة، متوهجة ومتقدة، بين عشرة شعراء شباب روس. ظلت تسلط عليّ نظرتها الياقوتية بإصرار غامض ينم عن السخرية والتهكم. تكلمنا. اقترحت عليها أن تسمح لي بالاطلاع على تلك القصائد في مكان أكثر هدوءاً. قلت لها إنها بدت لي أسوأ مما كانت عليه أثناء القراءة الأولى. كانت تسكن في أرخص غرفة بفندق عتيق صغير تفتقر إلى الحمام، ويسكن بجوارها شابان إنجليزيان ثرثاران.

مسكينة ليزا! بالطبع، كانت تحيا بعض اللحظات الفنية، حينما ستتوقف ذات ليلة من شهر ماي، وهي دائخة، في شارع قذر، لتعجب ـ بل لتشغف ـ بالبقايا المتنافرة لملصق قديم على جدار أسود مبلل على ضوء مصباح شارع، وبأوراق الزيزفون ذات اللون الأخضر الشفاف، وهي تتدلى قرب المصباح، لكنها كانت واحدة من تلك النساء اللواتي يجمعن بين الجمال السليم والقذارة الهستيرية، بين الحماسة الغنائية وروح عملية مألوفة جداً، بين طبع دنيء ونزعة إلى التأثر العاطفي، بين انصياع واهن وقدرة جبارة على حمل الناس على التجول في البراري. ابتلعت "ليزا" حفنة من الأقراص المنوِّمة، بسبب الانفعالات، ونتيجة مجرى الأحداث التي لن يكتسي سردها أي فائدة عامة بتاتا. ما إن طوحت بها تلك الأقراص إلى اللاوعي، حتى قلبت محبرة مفتوحة بها

مداد أحمر قانٍ كانت تستخدمه لتحرير قصائدها. لاحظ "كريس" و"لو" ذلك السيل الهزيل المتسرب أسفل بابها، فأنقذاها في الوقت المناسب.

لم أرَها طيلة أسبوعين بعد ذلك الحادث المؤسف عندما ترقبت مروري، عشية سفري إلى سويسرا وألمانيا، في الحديقة الصغيرة الواقعة في نهاية الشارع حيث أسكن. بدت نحيفة وغريبة في لباسها الجديد الأنيق، وديعة مثل حمام باريس. كانت تضع قبعة جديدة رائعة فعلا، ذات ريشة طائر زرقاء. سلمتني ورقة مطوية، ثم قالت لي بصوت "أبيض"، كما يقول الفرنسيون:

«أريد منك نصيحة أخيرة. يتعلق الأمر بعرض زواج تلقيتُه. سأنتظر إلى منتصف الليل. إن لم أتلقَّ جوابا منك، فإنني سأقبل به».

أشارت "ليزا" إلى تاكسي، ثم ذهبت.

ظلت تلك الرسالة بالصدفة بين أوراقي. وها هو مضمونها:

«أخشى أن يؤلمك اعترافي، يا عزيزتي "ليز" (رغم أن الكاتب استعمل اللغة الروسية، فقد ظل يناديها، في الرسالة كلها، بهذا الاسم ذي الصيغة الفرنسية حتى يتحاشى، كما أفترض، استعمال الصيغة المألوفة جدّاً "ليزا" والصيغة الرسمية جدّاً "إليزابيث إينوكينتييفنا"). *لطالما شعر كل إنسان ذي عواطف مرهفة بالألم، وهو يرى إنسانا آخر يعيش موقفا حرجا. وأنا أعيش حتما موقفا حرجا.*

أنت، يا "ليز"، محاطة بالشعراء والعلماء والفنانين والأشخاص الأنيقين. ذلك الرسام الشهير الذي أنجز لك العام الماضي بورتريها صار يعرض نفسه اليوم للموت بسبب الخمر، كما قيل، في براري ماساتشوسيت. بينما يذيع أصحاب الإشاعات أشياء أخرى كثيرة. وها أنا أتجرأ على مراسلتك.

لست وسيما، ولا مثيراً للاهتمام. لست موهوبا، ولا غنيا بالأحرى.

لكن، يا "ليز"، سأمنحك كل ما أملك، إلى آخر كريّة دم، وآخر دمعة، سأمنحك كل شيء. صدقيني، فهذا يفوق كل ما يمكن لعبقري أن يمنحك إياه، لأنه يحتاج إلى أن يبقي الكثير في جعبته، ولا يستطيع أن يمنحك نفسه كاملا كما أفعل. قد لا أحقق لك السعادة، لكني أعرف أنه يجب أن أبذل قصارى جهدي لأجعلك سعيدة. أريدك أن تكتبي قصائد. أريدك أن تواصلي بحثك في العلاج النفسي ـ الذي لا أفهمه كثيراً، بينما أتساءل عن جدوى ما أفهم. بالمناسبة، أرسل لك في رسالة مستقلة، كتيّبا نشره صديقي الأستاذ "شاتو" في براغ، يدحض فيه بطريقة ذكية نظرية صديقك الدكتور "هالب" حول الولادة بوصفها محاولة انتحار يقدم عليها الجنين. لقد سمحت لنفسي بتصحيح خطإ مطبعي واضح في الصفحة ٤٨ من كتيّب "شاتو" الممتاز. أنتظر ("قرارك" ربما. لقد قطعت "ليزا" أسفل الصفحة الحامل للتوقيع).

٤

بعد مرور ست سنوات، زرت باريس مجددا، وعلمت أن "تيموفي بْنين" تزوج "ليزا بوغوليبوف" بعيد رحيلي. أرسلت لي ديوانها الشعري *"شفاه جافة"* يحمل توقيعا بخط أحمر قانٍ: «من غريب إلى غريب». رأيتهما، هي و"بْنين"، ذات مساء في حفلة شاي بشقة مهاجر مشهور، ثائر اشتراكي، وهو عضو في تلك التجمعات غير الرسمية التي يمثل فيها الإرهابيون المتعصبون، والراهبات الشجاعات، والأبيقوريون الموهوبون، والليبراليون، والشعراء المغامرون الشباب، والروائيون والفنانون الكهول، والناشرون ووكلاء الدعاية، والفلاسفة والعلماء المتحررون نموذجا لشهامة فريدة ونواة نشيطة ومهمة لمجتمع من

المنفيين، ازدهر على امتداد ثلث قرن، لكنه ظل مجهولا لدى المثقفين الأمريكيين، الذين جعلتهم الدعاية الشيوعية الماكرة يعتقدون أن مفهوم الهجرة الروسية يراد منه كتلة غامضة ووهمية تماماً مما يسمى بالتروتسكيين (مهما كان هؤلاء)، والرجعيون المفلسون، ورجال "تشيكا" التائبون أو المتنكرون، والسيدات حاملات الألقاب، والكهنة المحترفون، وحراس المطاعم، وجماعات جنود روسيا البيضاء، جميعهم لا يكتسون أي أهمية ثقافية.

استغلت "ليزا" انخراط "بْنين" في نقاش سياسي مع "كيرينسكي" على الطرف الآخر من المائدة، لتقول لي ـ بصراحتها الفجة المألوفة ـ إنها «أخبرت "تيموفي" بكل شيء»، وإنه كان "قديسا"، حيث "سامحني". من حسن الحظ، لم ترافقه في أغلب الأحيان إلى الاستقبالات الأخيرة التي سررت فيها بالجلوس بجواره، أو مقابلا له، رفقة أصدقاء أعزّاء، في كوكبنا الصغير الموحش، فوق المدينة السوداء الماسية، بضوء مصابيحها المسلطة على هذه الجمجمة السقراطية أو تلك وشريحة ليمون تتحرك بشكل دائري في كأس شاي فائر. ذات ليلة، كنا جالسين، أنا والدكتور "باراكان" و"بْنين"، عند آل "بولوتوف". كنت أتحدث مع طبيب الأعصاب حول ابنة خالته "لودميلا"، التي أصبحت تدعى اليوم السيدة د.، والتي تعرفت عليها في يالتا وأثينا ولندن، فإذا بـ"بْنين" يصرخ فجأة في وجه الدكتور "باراكان" عبر المائدة: «الآن، لا تصدق أي كلمة مما قال، يا "جورجي أراموفيتش". إنه يختلق كل شيء. لقد افترى ذات مرة أننا كنا زملاء الدراسة في روسيا، وأننا غششنا في الامتحانات. إنه ملفّق رهيب». ذُهِلنا، أنا و"باراكان" بذلك الهياج، حتى إننا بقينا ننظر إلى بعضنا في صمت.

٥

أثناء تذكر تلك العلاقات القديمة، غالبا ما تكون الانطباعات المتأخرة أكثر قتامة من الأولى. أتذكر الدكتور "ويند"، وهو يتحدث إلى "ليزا" وزوجها، خلال الفترة الفاصلة بين مشهدي مسرحية روسية عرضت في مدينة نيويورك مطلع الأربعينيات. قال إنه يشعر «بإحساس رقيق فعلا تجاه السيد الأستاذ "بْنين"»، وقدم لي بعض التفاصيل العجيبة حول رحيلهما معا من أوربا في بداية الحرب العالمية الثانية. التقيت بـ"بْنين" عدة مرات خلال تلك السنوات في وظائف اجتماعية وأكاديمية متعددة بنيويورك، لكن الذكرى الحيّة الوحيدة التي ظللت أحملها هي رحلتنا معا على متن حافلة على الجانب الغربي، ذات ليلة بهيجة من ليالي سنة ١٩٥٢ المطيرة جداً. كنا قد جئنا من كليتينا الخاصتين قصد المشاركة في برنامج أدبي وفني أمام جمهور عريض من المهاجرين وسط مدينة نيويورك بمناسبة الذكرى المائوية لوفاة كاتب عظيم. كان "بْنين" يدرس بكلية "وايندِيل" منذ منتصف الأربعينيات. لم يسبق لي أن رأيته بصحة أفضل، وأكثر ثراء، وأكثر ثقة بنفسه. تبين أننا، أنا وهو، رجلا ثمانينات، كما قال ساخرا، أي أننا كنا سنبيت تلك الليلة في الحي الغربي المرقمة شوارعه من ٨٠ إلى ٩٠. عندما اعتصمنا بأحزمة متلاصقة داخل السيارة المحتشدة والمندفعة بجنون، تمكن صاحبي الطيب من أن يحني رأسه وأن يلويه بشدة في الآن ذاته (في محاولات متواصلة للتحقق وإعادة التحقق من أرقام الشوارع المتقاطعة) وأن يقدم تقريرا حول كل ما لم يقله بسبب الوقت غير الكافي أثناء الاحتفال بتوظيف المقارنات الشاردة لدى "هوميروس" و"غوغول".

٦

عندما قررت أن أقبل بمنصب الأستاذية بكلية "وايندبل"، اشترطت أن أستضيف كل من أريد قصد التدريس في قسم الشعبة الخاصة باللغة الروسية التي اعتزمت افتتاحها. ما إن تحقق هذا الشرط حتى كاتبت "تيموفي بْنين" أقترح عليه، بكل العبارات القلبية الحارة التي استطعت حشدها، أن يساعدني بأي طريقة أراد وأي مدى رغب. أذهلني جوابه وآلمني. كاتبني باقتضاب يقول إنه طوى صفحة التدريس، وإنه لن يتجشم عناء الانتظار إلى نهاية الدورة الربيعية. ثم انتقل إلى مواضيع أخرى. إذ أخبرني أن "فيكتور" (الذي استقصيت أخباره بتأدب) حلّ بروما رفقة والدته التي طلّقت زوجها الثالث، وتزوجت إيطاليا يتاجر بالمنتوجات الفنية. وختم "بْنين" رسالته بالقول إنه آسف غاية الأسف لكونه سيغادر "وايندبل" يومين أو ثلاثة قبل موعد المحاضرة العامة التي كنت سألقيها هناك يوم الثلاثاء ١٥ فبراير. لكنه لم يحدد وجهته.

وصلت حافلة "غرايهاوند"، التي ركبتها إلى "وايندبل" يوم الاثنين ١٤ فبراير، بعد هبوط الليل. استقبلني آل "كوكريل"، اللذين دعواني لوجبة عشاء متأخرة ببيتهما، حيث اكتشفت أنني كنت سأقضي الليلة هناك، بدل أن أنام في فندق كما كنت آمل. تبيّن أن "غوين كوكريل" سيدة جميلة جدّاً في آخر الثلاثينات من العمر، امرأة وديعة، قوامها رشيق مثل هرة. زوجها الذي التقيت به ذات مرة بمدينة "نيوهافن" واستحضرته بالأحرى في صورة إنجليزي أعرج، ذي وجه قمري وشقرة محايدة، اكتسب شبَهاً لا تخطئه العين بالرجل الذي ظل يقلّده إلى الآن منذ عشر سنوات. كنت متعبا، ولم أكن أتشوق كثيراً إلى أن أتسلّى طوال فترة العشاء بعرض مفتوح، لكن يجب أن أقرّ أن "جاك كوكريل" كان يقلّد "بْنين" بإتقان. لم يتوقف عن ذلك طيلة ساعتين على الأقل، وهو

يعرض عليّ "بْنين" في جميع حالاته - "بْنين" يدرس، "بْنين" يأكل، "بْنين" يسدد نظرات غرامية إلى طالبة، "بْنين" يسرد ملحمة المروحة الكهربائية التي جازف بتشغيلها، وهي موضوعة على رف زجاجي فوق حوض الاستحمام، حيث كادت ذبذباتها أن تسقطها، "بْنين" يحاول إقناع الأستاذ "وين"، عالم الطيور الذي تعرّف عليه بشق الأنفس، بأنهما هما الزميلان القديمان "تيم" و"توم" - بينما ظنّ "وين" أن الأمر يتعلق بشخص ينتحل شخصية "بْنين". لقد بنى "كوكريل" كل شيء، بالطبع، حول حركات "بْنين" ولغته الإنجليزية الشاذّة، لكنه نجح كذلك في أن يقلّد أشياء أخرى بدقة، مثل الفرق بين سكات "بْنين" وسكات "ثاير"، وهما جالسان يجترّان بلا حراك على كرسيين متجاورين بنادي الكلية. شاهدنا "بْنين" بين رفوف المكتبة، وقريبا من ضفة بحيرة الجامعة. سمعنا "بْنين" ينتقد الغرف المختلفة التي استأجرها على التوالي. أنصتنا إلى "بْنين" يروي كيف تعلم قيادة السيارة، وكيف عالج أول ثقب في عجلة سيارته، وهو عائد من «مزرعة الدجاج التي كان يملكها مستشار سرّي من مستشاري القيصر»، حيث افترض "كوكريل" أن "بْنين" كان يمضي الأصياف هناك. انتهى بنا المطاف أخيراً إلى الخبر الذي أفصح عنه رفيقنا المسكين ذات يوم بأن "رصاصة أصابته"، وهو يعني أن "نارا أطلقت" عليه، حسبما قاله المُقلّد - (وهو خطأ أشكّ أن يكون صاحبنا قد اقترفه). كما روى "كوكريل" الألمعي حكاية المشاحنة الغريبة التي حصلت بين "بْنين" ومواطنه "كوماروف" - رسام الجداريات المتواضع الذي ظل يلحق بورتريهات جدارية لأعضاء الكلية بصالة العشاء بتلك التي سبق أن رسمها "لانغ" العظيم. إذ رغم أن "كوماروف" كان ينتمي إلى فصيل سياسي آخر غير فصيل "بْنين"، إلا أن الفنان الوطني رأى في إبعاد "بْنين" حركة تدلّ على معاداة روسيا، ثم شرع يمحو صورة نابليون العابس التي رسمت بين صورتي

"بلورينج" الشاب الممتلئ الجسد (هزيله اليوم) و"هاغن" الشاب ذي الشارب (حليقه اليوم)، حتى يرسم صورة "بْنين" مكانها. ثم حصل ذلك المشهد بين "بْنين" والرئيس "بور" أثناء فترة الغذاء - بين "بْنين" الغاضب التمتام الذي فقد كل تحكم في كل ما يملك من عبارات إنجليزية، وهو يشير بسبابته المرتجفة إلى خطوط أولية لشبح موجيك[1] على الحائط، ويصيح بأنه سيقاضي الكلية إذا ظهر وجهه على ذلك الستار؛ وبين ذلك الرجل المتطلع إليه، "بور" الهادئ الواقع في فخّ جهله المطبق، الذي ظل ينتظر أن ينهك "بْنين" كامل طاقته، ليسأل بشكل عام: «هل ينتمي ذلك النبيل الغريب إلى طاقمنا؟» آه، كانت المحاكاة مضحكة إلى حد الهذيان، إذ رغم أن "غوين كوكريل" ربما شاهدتها مرات عديدة من قبل، إلا أنها ضحكت ضحكاً مجلجلاً حتى إن كلبهما الهرِم "سوباكيفيتش"، ذلك الحيوان الكستنائي المدلل ذا الوجه المضرج بآثار الدموع، أخذ يتململ ويتشممني. أكرر القول إن العرض كان رائعا، لكنه كان طويلا. في منتصف الليل، بدأت الفكاهة تتقلص. شعرت أن الابتسامة التي أبقيتها طافية أخذت تكتسي أعراض تشجنات على شفتي. في آخر المطاف، تحول الأمر برمته إلى مصدر إزعاج حتى إنني تساءلت إن لم يكن موضوع "بْنين" ذاك قد تحول، نتيجة ثأر شعري ما، لدى آل "كوكريل" إلى نوع من الهوس الحتمي الذي يبدّل ضحيته بالضحية التي وقعت فريسة ذلك التهكم الأصل.

أفرطنا في شرب الويسكي. وفي وقت ما بعيد منتصف الليل، اتخذ "كوكريل" قرارا من تلك القرارات المفاجئة التي تبدو نيّرة ومرحة جدّاً

---

(١) تحيل كلمة "موجيك" في اللغة الروسية على المزارعين، الذين شكلوا طبقة اجتماعية تعرضت لاستغلال بشع على يد النبلاء والكولاك ورجال الدين الذين كانوا يسيطرون أيام روسيا القيصرية على أجود الأراضي الزراعية (المترجم).

في لحظة ما من السّكر. قال إنه كان متأكدا أن "بْنين" العجوز الماكر لم يغادر فعلا البارحة، لكنه كان محتجبا عن الأنظار. إذا، لِمَ لا نتصل به ونتبين الأمر؟ أجرى المكالمة. ورغم أنه لم يكن هناك أي ردٌ على سلسلة الإشعارات الملحّة التي كانت تتصنع صوتا بعيدا لرنين آني داخل رواق متخيل، كان من البديهي أن خط ذلك الهاتف الرنّان سيقطع ربما، لو أن "بْنين" أخلى البيت. كنت أتوق بغباء إلى أن أقول كلمة طيبة لصديقي "تيموفي باليتش"، حيث حاولت، بعد برهة قصيرة، الاتصال به كذلك. فجأة، سمعت نقرة، فجوة صوتية، وصدى أنفاس ثقيلة، ثم صوتا مموها على نحو ضعيف يقول: «He is not at home, he has gone, he has quite gone» (ليس في البيت. لقد رحل. لقد رحل فعلا). بعدها أغلق المتحدث الخط، لكن لا أحد، غير صديقي القديم، ولا حتى أفضل مقلّد له، يستطيع أن يبتكر ذلك السجع المفخّم بين "at" و"hat" في الألمانية، و"home" و"homme" في الفرنسية، و"gone" و"Goneril"[1]. حينها اقترح "كوكريل" أن يتوجه بسيارته إلى "٩٩٩ شارع تود"، وأن يغني أسفل نافذة شقة المستأجر الحاجر على نفسه، لكن السيدة "كوكريل" تدخلت هنا. آوينا جميعا إلى أفرشتنا، بعد أمسية خلفت في ذهني ما يماثل الغصة في الحلق.

٧

قضيت ليلة سيئة في غرفة نظيفة جيدة التهوية وبهيجة الفراش، حيث لا باب، ولا نافذة تنغلق بشكل صحيح، وحيث طبعة جامعة من رواية

(١) "غانريل" هو اسم ابنة "الملك لير" البكر في مسرحية وليم شكسبير الشهيرة (المترجم).

"*شيرلوك* هولمز"، التي ظلت تقتفي أثري منذ سنوات، كانت تسند مصباح السرير، الباهت نوره الشاحب شعاعه، حتى إن حزمة البروفات التي جلبتها بغية تصحيحها لم تخفف أرقي. كان هدير الشاحنات يزلزل البيت كل دقيقتين تقريبا. بتُّ أغفو وأستفيق لاهثا وأنفاسي تتقطع. عبر ستارة نافذة مقلّدة كان الضوء يتسلل من الشارع، لينعكس على المرآة، فيدفعني إلى الاعتقاد أنني أواجه فرقة إعدام.

هكذا جبلت، حتى إنني أجد نفسي مجبرا حتما على أن أتجرع ثلاث كؤوس من عصير الليمون، قبل أن أتصدى لشدائد الأيام. هكذا، استحممت بسرعة في الساعة السابعة والنصف. بعد خمس دقائق، كنت أغادر البيت رفقة "سوباكيفيتش" الحزين صاحب الأذنين الطويلتين.

كان الجو حارا، والسماء صافية ولامعة. كنا نرى الشارع الخالي من جهة الجنوب يتسلق التلة الرمادية الزرقاء بين بقع الثلج الصامدة. كانت شجرة حور طويلة عارية، مسفوعة مثل مكنسة، تنتصب على يميني، ظلّها الصباحي الطويل الممتد عبر الشارع إلى هناك على الجانب الآخر حيث بيت ذي شرفات لونه أصفر باهت، ظنّه المقيم السابق، حسب قول "كوكريل"، قنصلية تركية بحكم حشود أصحاب الطرابيش الذين رآهم يدخلونه. استدرت يسارا، ناحية الشمال، وسرت مسافة بنايتين عند سفح التلة، حتى وصلت إلى مطعم كنت قد انتبهت إليه عشية اليوم السابق، لكنه لم يفتتح أبوابه بعد. بالكاد خطوت بضع خطوات عندما زمجرت شاحنة كبيرة في الشارع تحمل جعة، تبعتها مباشرة سيارة صغيرة زرقاء شاحبة يطل منها رأس كلب أبيض، ثم تلتهما شاحنة كبيرة أخرى شبيهة تماماً بالأولى. كانت السيارة المتواضعة محشوة بالحزم والحقائب. كان سائقها هو "بْنين". صرخت أحيّيه، لكنه لم يرَني. كان أملي الوحيد أن أصعد التلة بسرعة، لألحق به عندما يجبره الضوء الأحمر على الوقوف.

اندفعت متجاوزا الشاحنة الخلفية، ثم لمحت صديقي القديم مرة ثانية، بوجهه المعقود، كان يضع بيرية ذات أذنين ومعطف شتوي. لكن الضوء أصبح أخضر في تلك اللحظة. نبح الكلب الأبيض الصغير في اتجاه "سوباكيفيتش". اندفع الجميع إلى الأمام ـ الشاحنة أولا، "بْنين" ثانيا، والشاحنة ثالثا. وقفت هناك أتابعهم، وهم يبتعدون على الطريق، بين البيت الموريسكي وشجرة الحور اللومباردية. ثم تأرجحت السيارة الصغيرة بجسارة متجاوزة الشاحنة الأولى. عندما تحررت أخيراً، اندفعت مسرعة على الطريق المتلألئة، التي صارت تتضاءل أمامي حتى تحولت إلى خيط ذهبي في الضباب الخفيف، واستحالت المسافة جمالاً تلة بعد تلة. ببساطة، كان من المستحيل أن نعرف أي معجزة ستحدث.

أدخل "كوكريل"، الذي كان يرتدي منامة وصندلا، الكلب، ثم قادني إلى المطبخ، نحو مائدة عليها فطور إنجليزي يحتوي على كلي وسمك.

قال: «والآن، سأروي لك قصة "بْنين"، وهو يصعد المنصة لمخاطبة جمهور نادي "كريمونا" النسائي، اكتشف أنه جلب المحاضرة الخطأ».

الفهرس

مقدمة المترجم ٥
الفصل الأول ٩
الفصل الثاني ٣١
الفصل الثالث ٦٥
الفصل الرابع ٨٩
الفصل الخامس ١١٧
الفصل السادس ١٤٣
الفصل السابع ١٨١

هذا الكتاب

«بنين» هو اسم لأستاذ روسيّ في كلّية أمريكيّة، يركب القطار الخاطئ في طريقه لإلقاء محاضرة بلغة لا يبرع بها. إنه النقطة المحورية للمؤمرات الأكاديمية التي لا يفقه في أمورها، وفوق ذلك ينظّم حزباً في الكليّة للقضاء على كل الأحزاب الأخرى هناك.

الغلاف : سكينة صلوّن
ISBN 978-9922901367
9 789922 901367